معالم قرآنية في البناء

القصص القرآني وعطاء الشباب

القلب.. والعقل.. والساعد

أ.د. محمد أديب الصالح



القصص القرآني وعطاء الشباب

القلب.. والعقل.. والساعد

أ. د. محمد أديب الصالح



ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالح، محمد أديب

القصص القرآني وعطاء الشباب./ محمد أديب الصالح. - الرياض ١٤٢٧هـ

430 ص؛ ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٥ - ١٠٤ - ٥٤ - ٩٩٦٠

١ - قصص القرآن. ٢- الشباب في الإسلام

أ. العنوان

ديوي ٢٢٩,٥ ٥٣٩٤/ ١٤٢٧

رقم الإيداع: ٥٣٩٤/ ١٤٢٧

ردمـــــك: ٥ - ١٠٤ - ٥٤ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

الناشر

شركة العبيكان للأبحاث والتطوير

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤/ ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمـز ١١٥١٧

امتياز التوزيع

شركة مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨/ ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٥٦٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمـز ١١٥٩٥



توطئة

الحمد لله الذي يسجد له ما في السموات وما في الأرض طوعاً، وكرهاً وظلالُهم بالغدوِّ والآصال.

والحمد لله عالمِ الغيب والشهادة الكبير المتعال، القائم على كل نفس بما كسبت وهو شديد المِحال.

والحمد لله الذي له مقاليد السموات والأرض، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون. وتبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، سبحانه من إله غفورٍ ودودٍ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، أنزله بالحق وبالحق نزل، وهو النور المبين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أوحى بهذا الكتاب المبين إلى خاتم رسله وصفوته من خلقه محمد بن عبدالله رحمة العالمين؛ مباركاً ليدَّبروا آياته وليتذكَّر أولو الألباب، نعم، ونزّله تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين. ويسّره بلسانه ليبشر به المتقين، وينذر به قوماً لداً. حيث الغايةُ الكبرى أن يحصل التذكر وتأخذ الهداية سبيلها إلى القلوب ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله؛ أدّى الأمانة في تبليغ ما أنزل إليه من تلكم الآيات البينات، ولم يدَع أن يبيِّن - وقد أوتي القرآن ومثله معه - ما يلزم بيانُه خير بيان، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

---

(١) (الدخان: ٥٨).
(٢) (النحل: ٤٤).

فجزاه الله عن الأمة ونصرة الحق خير الجزاء، وصلى الله وسلم وبارك عليه ما اختلف الليل والنهار؛ أداءً لبعض حقه وقد أنقذنا الله به من التهلكة وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس، كلما ذكره الذاكرون وغفل عنه الغافلون، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الهداة المهتدين، الذين أدَّوا أمانة نقل الكتاب الكريم وبيانه المحمّدي على خير وجه وأكمله للعالمين، ومن تبعهم بإحسان واقتفى أثرهم على طريق القرآن المجيد وبيانه من سنة سيد المرسلين.

وبعد: فليس من نافلة القول أو مكروره التذكير بواحدة من المسلَّمات عند أولي الألباب، وهي أن واحداً من أهل النَّصَفة أوتي ولو أثارة من علم، لا يماري في أن من أجلِّ نعم الله على الأمة المحمدية، بل على البشرية جمعاء، هذا القرآنُ المجيد الذي أنزله الله على نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بالحق، وبالحق نزل، أنزله عليه - كما تدلّ معالمه - ولم يجعل له عوجاً، ويسره بلسانه ليبشر به المتقين وينذر به قوماً لداً لعلهم يتذكرون.. هذا الذكر الحكيم - وهو كلام الخلاق العليم - يتبوأ من رفعة القدر وسعة العطاء في كلماته التي لا تنفد، المنزلةَ التي لم يبلغها كتاب ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[1]، كما يتبوأ من عظيم المكانة التي لا تجارى في قيمه وحقائقه ومعانيه الناطقة بها معالمه، ناهيك عن أسلوبه وفصاحته، حيث بلغ من سموّه أن الله تبارك وتعالى رقاه إلى مقام دلّ بعظمته أنه المعجز حقاً، وأنه مع دلالاته القاطعة على أنه من عند الله لو اجتمعت الإنس والجن على معارضته، ولو بالإتيان بسورة من مثله لعجزوا ولم يقدروا ولو تمالؤوا جميعاً على ذلك ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

---

(١) (الكهف: ١٠٩). (٢) (الإسراء: ٨٨).

فسبحان من أنزله تبصرة وذكرى لأولي الألباب، وجعله مهيمناً على ما سبقه من الكتب، وأغزرَها علماً للعباد ونفعاً، وأجلَّها منزلة وقدراً ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾[1].

وهكذا شاء ربنا تبارك وتعالى أن يكون هذا الكتاب الخاتم - وقد أنزل على صاحب الرسالة الخاتمة - ينبوع الحكمة وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، ولم لا وهو الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير. ألا إنه الفصل ليس بالهزل، لا يمتري عاقل في أنه كلّي التشريع، وعمدة الملة. فهو أصل الأصول، وحبل الله المتين، لا تزيغ به الأهواء ولا يخلق على كثرة الردّ - أو عن كثرة الردّ - ولا تنقضي عجائبه، فهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[2] من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

وأنت واجد في معالمه النورانية الخيرة، المكيُّ منها والمدني، والتي يطالعك من خلالها عمومُ هدايته.. نهجاً من البناء الحضاريّ القويم، على صعيد الفرد والجماعة والأمة بشمول وعمق بالغَين، الأمر الذي يرقى بالأمة، أن لو عملت به، إلى كل ما فيه سعادة الدنيا ويوم يقوم الناس لربّ العالمين، ذلك بأن هذه المعالم - وهي من هذا الكتاب وإليه - حقّ كلها، ونور كلها، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾[3] وقوله جل شأنه: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[4].

(١) (المائدة: ٤٨).
(٢) (الجن: ١ - ٢).
(٣) (الإسراء: ١٠٥ - ١٠٦).
(٤) (فاطر: ٣١).

أجل، هو الحق وأنزل بالحق، فليس لشيء من الباطل - كائناً ما كان شأنه وشأن أهله - إلى تلك المعالم من سبيل، مهما افترى المفترون، ومكر الماكرون، وماري السفهاء والملبِّسون، وانتحل العابثون المبطلون. وجلّ شأن ربنا السميع القاهر فوق عباده إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1].

فطوبى لمن تحملهم نورانية هذه المعالم إلى أن يكونوا على الجادة يحسنون اصطحاب هذا القرآن تلاوة وتدبراً وتذكراً، يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويدورون معه - وهو كلام العليم الحكيم - حيث دار. وما أعزّها ثمرة مخالطةُ تلك المعالم مخالطة إيمانية واعية، تسمو بأصحابها المهديّين إلى حيث السدادُ في الأقوال والأفعال، والظفر بالسعادة العاجلة، وحسن العقبى يوم الدين، حيث يشهد لهم القرآن بأنهم كانوا في الدنيا لا يدَعون أن يدوروا معه حيث دار.

وكم دعا السلف الصالح إلى التحقق بذلك، وكشفوا لمن يقوم به عن أعظم البشريات. روى صاحب «الحلية» عن عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود: أن رجلاً أتى أباه عبدالله بن مسعود فقال: يا أبا عبدالرحمن، علّمني كلمات جوامعَ نوافع، فقال رضي الله عنه:

«اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، ودر مع القرآن حيث دار، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيباً قريباً.»[2] وروى الباجي عن ابن وهب قال: سمعت مالكاً يقول: «إن استطعت أن تجعل القرآن إماماً فافعل، فهو الإمام الذي يهدي إلى الجنة»[3] ورضي الله عن ابن أم عبد إذ يقول: «إنما هذه القلوب أوعية

---

(١) (فصلت: ٤١-٤٢).

(٢) «الحلية» لأبي نعيم الأصفهاني: ١ / ١٣٢ . «صفة الصفوة» لابن الجوزي: ١ / ١٦٥، «الربانيون قدوة وعمل» للمؤلف: ١٣٢ .

(٣) ينظر تفسير الثعالبي: ٢ / ٢٥٢ .

فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره»[١]. ولا تعجب ما دام القرآن هو الكتاب المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس على معارضته ولو اجتمعوا وتظاهروا، والذي صرّف الله فيه دلائل الهدى ونوّعها لتخاطب كل عقل وقلب، وسبحان من أنزله على نبينا المصطفى ليكون للعالمين نذيراً.

وعلى هذا السنن من اصطحاب اللمحة السريعة في هذه العجالة في القول: ما بد من التنويه بوضوح الدلالة على أفضلية هذه المعالم وما تتسم به من الدقة المتناهية، والحكمة - البالغة في وفرة عطائها الذي لا يستثني ساحة من ساحات البناء، ذلك البناء الذي لا ينأى عن العبودية لله والحفاظ على إنسانية الإنسان ونصرة الحق وتوفير ما يثمر الحضارة المثلى، لما أن هذه الحضارة من نور القرآن الذي هو المعجزة الحقة الباقية إلى يوم الدين، وسداها ولحمتُها هديه الربانيّ وبناؤه الحق المكين.

وجماع ذلك على صعيد الهداية والبناء الشامل المتكامل للفرد والجماعة والأمة - ناهيك عن البناء الحضاري القويم - قول الله تعالى في سورة الإسراء - وهي سورة مكية -: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[٢]، وأقوم من القَوام وهو العدل والاعتدال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[٣]، وفلان أقوم كلاماً من فلان: أي أعدل.

فهذا الكتاب المبين يهدي ويرشد العباد على خير منهج في دينهم ودنياهم وآخرتهم لأقوم الحالات وأصوبها، وأفضل الطرق وأسدّها، وأوضح السبل وأعدلها؛ فالهداية به قائمة أبداً للحالة التي هي أسدُّ وأعدل

---

(١) «الربانيون قدوة وعمل» ١٧١، وانظر «الحلية» ١ / ١٣١ .

(٢) (الإسراء: ٩).

(٣) (الفرقان: ٦٧).

وأصوب، ويمكن أن نقول: يهدي للملّة أو الشريعة أو الطريقة التي هي أقوم الملل والشرائع والطرق. وهذا مبنيٌّ على أن كلمة (أقوم) نعت لموصوف محذوف ذهب كثير من العلماء إلى تقديره على الوجوه التي ذكرنا أو بعضها. ومثل هذه الكناية كثير في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾[١]. أي بالخصلة التي هي أحسن. فكان أفعل التفضيل (أحسن) صفة لكلمة الخصلة المقدرة.

ولا علينا أن نذكر أن فريقاً من العلماء ذهب إلى أن (أقوم) ليست للتفضيل؛ فالمعنى: يهدي للتي هي قيّمة أي مستقيمة، كما قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[٢]، وكما قال سبحانه: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[٣]، أي مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق.

هذا: ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أنه على كلا الوجهين في كلمة (أقوم) فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يأتي على وجه الإطلاق في تقرير أن هذا الكتاب الكريم يرشد للطريقة التي هي أسدّ وأعدل فيمن يهديهم وفيما يهديهم له، فيشمَل الهدى - كما يقول صاحب الظلال - أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كلَّ منهج وكل طريق، وكلَّ خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان.

هذه واحدة، وأما الثانية: فهي ما أوضحه الزمخشري من عظمة الإعجاز ورفعة الذوق البلاغي في حذف الموصوف بقوله تعالى: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال في «الكشاف»: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدُّها، أو للملّة أو الطريقة، وأيَّما قدّرت لم تجد مع الإثبات - أي إثبات الموصوف - ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف، لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تُفقَد مع إيضاحه».

وفي خاتمة المطاف: لقد قدمت هذه اللمحة الوجيزة من القول الذي هو في سموّ موضوعه عن القرآن ومعالمه الخيّرة قليل قليل من كثير كثير،

---

(١) (فصلت: ٣٤). (٢) (البينة: ٥). (٣) (البينة: ٣).

قدمتها وأنا بسبيل الإشارة العجلى إلى أن الصفحات القادمات هنا ثمرةٌ من ثمرات رحلة ميمونة طالت بعض الشيء، منَّ الله بها عليّ - وهو ذو الفضل العظيم - صحبت من خلالها عدداً وافراً من المعالم القرآنية المكي منها والمدني، الهادية إلى كل ما هو أسدُّ وأعدل في مختلف الأحوال والشؤون، لما أنها من محكم التنزيل وإليه.

وقد كنت حريصاً - من خلال التدبّر المستطاع - على تناولها بأمانة علمية منهجية والكشف قدرَ الطاقة عن معانيها ومنارات الهداية في كل منها حسب موقعه على الصعيد المطروق في ساحة البناء الشامل المتكامل بمعناه الإسلامي الحضاري، البناء الذي تناول - مع العقيدة والعبادة والأخلاق - شؤونَ الحياة بأكملها، لما أن جذور حضارتنا الإسلامية تكمن في هذه المعالم الخيِّرة وبيانها من السنة المحمدية، ثم فهوم أئمة الهدى عليهم الرحمة والرضوان. وأينما وجدت المصلحة في عرف هذه الحقيقة: فَثَمّ شرعُ الله ودينه.

واللهَ أسأل أن يتقبل بقبول حسن هذا العمل النيِّر بجوهره وعطائه، المتواضع بتناوله والكلام فيه، وأن ينفع به قارئه والناظر فيه، وأن يتفضل بالعفو عما يكون من زلل. إنه سميع مجيب الدعاء، لا ربَّ غيرُه ولا خير إلا خيرُه، منه التيسير والعون وإليه المرجع والمآب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلاة الله وأزكى تسليماته على إمام الهداة وصفوة الله من خلقه سيدنا محمد بن عبدالله وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الهادين المهتدين؛ أجمعين.

أ. د/ محمد أديب الصالح

أستاذ ورئيس قسم السنة وعلومها في جامعة الإمام محمد بن سعود، وأستاذ ورئيس قسم القرآن والسنة بجامعة دمشق سابقاً

رئيس تحرير مجلة حضارة الإسلام



القصة القرآنية.. والبناء

لم تكن القصة في القرآن الكريم ـ ومن بعدها القصة في السنة النبوية ـ وما أدى ذلك من حضور لأمة الإسلام في التاريخ.. لم تكن بمنأىً عما أشرقت به معالمه في العهد المكي من مؤشرات ألمحت إلى وجهة الإسلام ـ دين الفطرة ورسالة اللّه إلى العالمين ـ في بناء الفرد والمجتمع، حين كشفت ـ خضم ما كان من مواجهة عقيدة التوحيد بكل صفائها ونقائها: للوثنية بكل شعبها وما يتصل بها ـ عن ظاهرة المظالم الاجتماعية بين الناس، واضطراب حبل الود والتراحم فيما بينهم، والانحراف الخلقي عند الكثيرين. وحين أوضحت ارتباط ذلك كله بإنكار يوم الحساب، والانفصام بين ما يزعم أنه عبادة، وبين ما هو سلوك.

ثم ما نهجه القرآن إزاء ذلك من الترغيب في الخير والتعاون عليه: بالأسلوب المعجز الذي يبدأ القضية من داخل النفس. وكان ذلك مصحوباً بالترهيب من تلك الجفوة للمعاني الإنسانية والوعيد بالعقاب عليها؛ كالذي رأينا من قبل في واحدة من أقصى السور المكية، وهي السورة التي ذكر فيها الماعون، وفي العديد من الآيات في سور أخر تنزلت في حقبة مبكرة من حياة دعوة الإسلام.

أجل: لم تكن القصة القرآنية بمنأى عن ذلك، بل كانت واحداً من السبل المضيئة التي سلكها هذا الكتاب الكريم في إيصال الدين القيِّم إلى النفوس، لتنعكس آثار الاستمساك به على الحياة بوجوهها جميعاً وميادينها كافة؛ فأسهمت إسهاماً ملحوظاً، وأخذت دورها البارز في التمهيد لبناء الإنسان على الوجه المرْضيّ، وإقامة القواعد التي يقوم عليها بناء الجماعة والمجتمع: بناءً مصروفة عنه عوامل الأذى والضعف، وترفده ـ دائماً ـ عناصر الحياة التي تمكِّن له، وتجعله قابلاً للنماء قادراً على العطاء.

والحجم الذي أخذه القصص القرآني في الكتاب العزيز: دليل عظمة الهدف الذي كان من أجله هذا القصص، حيث الدروس والعظات والحِكم الغاليات، وحيث المقارنة والمقايسة، والعبر التي لا يستغني عنها رواد الحقيقة، ناهيك عن تثبيت فؤاد النبي ﷺ في مواجهة ما كان يلاقي من الصعاب، مع رغبته القلبية العارمة في استجابة أولئك الجانحين المضيِّعين، لما يدعوهم إليه من الهدى والخير العميم.

وحسبك أن هذا القصص ينقل بدقة وأمانة منقطعتي النظير تجارب الأمم وحصاد القرون، والآثار التي ترتبت على الإيمان أو الكفر برسالات الرسل عليهم الصلاة والسلام، وما كان من سنن الله التي لا تتخلف ولا تتبدل في عاقبة كل من المحسن والمسيء.

لقد كان المسلمون يتلقفون الدعوة وتبعاتها في القرن السادس للميلاد، والقرآن يحمل إليهم ـ من طريق القصة القرآنية عبر القرون التي سلفت والأمم التي خلت ـ ما يحمل من ذلك الكم الهائل من التجارب والعبر، وكل ما فيه أحقية ما جرت عليه سنن الله في الإنسان والكون والحياة، وكان ذلك رافداً من أهم روافد الهداية على طريق هؤلاء الذين أسلموا وجوههم لله، مع ما كانوا يلقون من الشدة الشادة وعظيم الابتلاء في سبيل الله!

وطريقهم هذه لم تكن ـ على الحقيقة ـ مدرجة خيِّرة لهم فحسب، ولكنها كانت للإنسانية كلها، إذ لم يكن في أصقاع الأرض من يعتنق الكلمة الطيبة كلمة التوحيد، ويذود عن حياضها ويصبر على ما يصيبه من جراء ذلك سواهم. ألم تر إلى قوله ﷺ وهو يتضرع إلى مولاه يوم (بدر): **«اللّهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض»** ؟!

لذلك يمكن القول بأن ما كان يحصل لهم من الانتفاع وشد الأزر بعبرها وعظاتها، وترسيخ الإيمان وأهلية الاحتمال في سبيله ـ عنوان التصديق بعطاء سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول ـ.. هو في خدمة الإنسانية كلها عبر القرون المتطاولة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وما دام في الناس قرآن يتلى ـ وهو محفوظ بحفظ الله الذي أنزله ـ فالعبرة من القصص قائمة لأولي الألباب العاملين المجاهدين الصابرين، تغني طريقهم ببواعث الخير، وتثبت أقدامهم، وتؤنس ما يمكن أن يكون من وحشة التحدي لديهم، وتحرك في أعماقهم ـ مع ضياء القلب والعقل ـ مزيداً من الاعتبار والقدرة على المقايسة المجدية، والمقارنة التي تؤدي غرضها على صعيد الموقف والسلوك!!

والقصة في القرآن ـ وهي لون من ألوان البيان على طريق الهداية والدعوة إلى الله؛ هدماً للباطل ورفعاً لقواعد الحق الذي نزل به الكتاب وإقامة واعية أمينة لصروحه ـ هي تعبير عن وقائع حدثت على وجه اليقين زماناً ومكاناً وأشخاصاً ـ ذكوراً وإناثاً ـ جرت على أيديهم، أو حلت بهم تلك الوقائع.

وإنا لنبرأ إلى الله من قالة سوء طلع بها على الناس في الأربعينيات من هذا القرن واحد من المنتسبين إلى الأدب، حين قرر أنه ليس ضرورياً ـ دائماً ـ أن تكون القصة في القرآن تعبيراً عن حوادث وقعت، أو أحداث جرت، بل من الممكن أن يكون ذلك حبكة فنية لا علاقة لها بالواقع!!

إنا لنبرأ إلى الله من ذلك ومن كل نفثة شيطانية تمُتُّ إلى ذلك بصلة؛ لأن القصة في كتاب الله ـ وهو كلامه القديم المنزل ـ أو في السنة وهي بيان الكتاب: ليست عملاً فنياً ينسجه خيال واحد من الأدباء، ويبني أسلوبه على طريقته في الأداء، ولكنها إخبار من الله تعالى عما وقع، أنزلها على نبيه ﷺ للعبرة والتذكر، وليست حديثاً يفترى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾[النساء: ٨٧] .

ألم تر إلى ما افتتحت به سورة يوسف من قوله جل شأنه: ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾[يوسف: ١-٣] ثم إلى ما اختتمت به من قوله سبحانه:﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١١١﴾[يوسف: ١١١] .

وبعد: فقد كانت هذه كلمات لا بد منها ـ ولها ضميمة تأتي ـ بين يدي قصة أصحاب الجنة التي جاء ذكرها في سورة (القلم) لتعطي ـ واللام للعاقبة هنا ـ واحدةً من إشارات مبكرة في العهد المكي، تؤذن من خلالها بأن البناء الذي يهدف الإسلام إلى رفع قواعده على أساس من عقيدة التوحيد: بناء متكامل، يبدأ من الإنسان في أعماقه، ولا يدع أن يحاصر الفساد في المجتمع ويطهره من ظلم الفقراء والضعفاء، وانحسار الإحسان إلى من ينبغي أن يحسن إليه ذلك الانحسار الذي بلغ مبلغ أن لا يحصل التواصي في بعض الأحيان بشيء من ذلك.

ولقد كان واضحاً ـ كما تدل النصوص ـ أن مما يراد من وراء هذا المنهج: أن يقتلع الفساد الظالم من جذوره ويقام على أنقاضه مجتمع العقيدة التي تحكمه شريعة الإسلام، وتزينه أخوة الإيمان، وتتنامى في ظله إنسانية الإنسان، وتتحقق في أرجائه على صعيد الأمة عبودية الديان.



القصص القرآني.. والبناء
أصحاب الجنة

لست بسبيل الاستقصاء لكل ما ورد من القصص في كتاب الله عز وجل؛ ولكنني بسبيل التنبيه على النموذج الذي يسعف في محاولة الانتفاع بغيره، وذلك ما يتفق مع قضية البناء المطروحة ضمن موضوعنا العام.

وقد أشرت في معرض التذكير بالأهمية البالغة للقصص القرآني المثقل ـ مع أحقية وقوعه ـ بالعبر والعظات والذي تنزّلت آياته على نبينا محمد ﷺ مشرقة بأسلوبها المعجز حيث ترى التفصيل مرة، والإجمال أخرى، بل قد ترى الإلماحة السريعة مرة ثالثة.. وهكذا بحسب موقع التذكير بالقصة على سلم الهداية في كتاب الله عز وجل. أشرت إلى قصة أصحاب الجنة التي ورد ذكرها في سورة (القلم) ووعدت برحلة عجلى معها لا يتسع لأطول منها المقام، وهذا أوان أن أفي.

وموطن العبرة في هذه القصة التي وعدت بالإلماح إليها: ذو شعب؛ منها أن هذا الموطن يرتبط بالجانب الاجتماعي للبناء الذي وقفتنا على تباشيره المبكرة في عمر الرسالة: آيات بينات في العديد من السور المكية، قبل أن تكون للدعوة كلمة نافذة في المجتمع وقياده، بل على العكس من ذلك: كانت الفئة القليلة المؤمنة هي المستهدفة في الفتنة عن الدين، والأذى المجنّح المستهتر من المشركين عمي البصائر؛ شأن سدنة الباطل الذين يرون في سلطان الحق خطراً يزيحهم عن مواقعهم الظالمة في المجتمع، ويحرمهم ما كانوا يكسبون من متاع الدنيا والسلطان على حساب الحق وأهله.

هؤلاء كفار قريش، أهدى الله إليهم رحمته العظيمة ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام رسولاً من أنفسهم، يخرجهم بالقرآن من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الحق بعد أن كانوا في ضلال مبين!

وبدلاً من أن يشكروا هذه النعمة العظيمة فيؤمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام، ويعزروه، وينصروه، ويسلكوا باتباعه السبيل التي تبدِّل ظلامهم المتسربلين به: نوراً وهداية، وشتاتَهم الجاهلي: انتظاماً وقدرة على العطاء: قابلوه بالتكذيب والجحود، والرد، والمحاربة بشتى الأساليب، بل محاولة الصدِّ عن دينه وإلحاق الأذى والفتنة العاتية بكل من يعتنق هذا الدين!!

فضرب الله تعالى لهم مثلاً في قصة أصحاب الجنة الذين اختبرهم ـ جلَّ شأنه ـ بنعمة الثمرات والخيرات؛ فكان من شأنهم ـ وقد كفروا بالنعم ـ ما هو من جنس كفرانهم: لعلهم يعتبرون أو يكون ذلك ذكراً لهم وقد أنعم عليهم بالرسالة الخاتمة، فماذا كانت عاقبة كفران النعمة والعبث المزري لأولئك؟ ذلك ما أفصحت عنه الآيات الكريمات في سورة القلم ـ كما أشرت آنفاً ـ.

في هذه السورة المباركة، وبعد ذكر مجموعة من مساوئ الأخلاق التي اتَّسَم بها سلوك واحد من زعماء المشركين البارزين، والكشف عن قوله إذا تليت عليه آيات الله: (أساطير الأولين)، والوعيد الشديد على صنيعه المردي: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القلم:١٧-٢٤] .

لقد أقسم أصحاب هذا البستان المشتمل على أنواع الفواكه والثمار: أن يقوموا بالقطاف ليلاً فيجذُّوا الثمر كلَّه في نجوة من الناس، لكيلا يعلم بهم فقير أو مسكين، وبذلك لا ينتقص من محصول البستان شيء ـ على زعمهم ـ فلا عطاء ولا صدقة ولا إحسان!!

وكان حلفهم عاماً لم يستثنو منه حالة من الحالات، ولا إنساناً ـ مهما كان شأن احتياجه ـ من الناس؛ وذلك خلافاً لخطة أبيهم الذي ورثوا عنه هذه النعماء، نعماء البستان الزاخر بالخيرات، فقد كان هذا الأب على السنن القويم كثير العطاء والبذل.

ولهذا ـ كما قال العلماء ـ حنَّثهم اللَّه في أيمانهم فقال جل شأنه: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾[القلم: ١٩-٢٠] .

لقد أصابت جنتهم ـ بستانهم ـ الجائحة بقدرة اللَّه تعالى وهم نائمون، فحرموا من خيراتها بذنبهم حين استجابوا لنداء الشيطان، وما زينت لهم الأهواء، فخافوا النقص إذا فعلوا الخير، بأن يجعلوا للفقير والسائل والمسكين نصيباً من الفاكهة والثمر.

وكان المفترض أن يشكروا نعمة اللَّه عليهم، فيظلوا على نهج أبيهم السويِّ، لا أن يسفهوه بعد موته، ويقبضوا أيديهم عن البر.

لقد وقعوا في الإثم مرتين: مرة حين قبضوا أيديهم عن الإحسان، وأخرى حين خالفوا عن المسلك النيِّر الذي كان ديدنَ أبيهم كلما حان القطاف، وفي ذلك إغضاب وإساءة له بعد موته.

لقد استيقظوا مبكرين لإنفاذ ما ائتمروا به وأقسموا عليه، ونادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ وهو القطع والقطاف، دليل الإصرار على الانحراف واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.

وانظر إلى الأسلوب القرآني الفذِّ في تصوير مشاعرهم وخلجات نفوسهم، حتى كأنك تراهم أمامك ـ وهم على هذه الحال ـ شاخصين يتهامسون ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾[القلم: ٢٣] يتناجون فيما بينهم بحيث لا يُسمعون أحداً كلامهم. وبماذا يتخافتون؟ يقول بعضهم لبعض: لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخل عليكم، ولا تفسحوا المجال لمسكين يستشرف لأخذ شيء ـ مهما قلَّ ـ من الثمر.

وهكذا يتخافتون ويتهامسون ـ بقسوة قلب ـ كأنهم كتلة تخافت وتهامست، معطَّلةً عقولهم، مغشًّى على قلوبهم بما سيطر عليهم من الشح الذميم ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾[القلم: ٢٤] وكانوا جادين فيما عزموا عليه، يحملون في دخيلة أنفسهم الكثير من الغيظ من أولئك الضعفاء المحتاجين.

وبذلك تجمعت أسباب أن يكونوا على قوة وشدة يستخدمونهما لإنجاز أفكارهم المجافية لما ينبغي من عمل الخير، وتحصين النعمة بالشكران؛ ذلكم قوله تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾[القلم: ٢٥].

ولكنهم فوجئوا بالمأساة الأليمة، مأساة استحالة النضارة في القطوف الدانية، والثمار الزكية الشهية إلى سواد مُدلهم لا ينتفع بشيء منه، بل هو ـ كما يوحي شكله المرهق ـ صورة غضب اللّه ومؤاخذته لهم على كفران النعمة، والمخالفة عن طريق أبيهم السويّ: بما أقسموا على منع الخير، وقبض أيديهم عن عطاء من هم أهل للعطاء، وقطع رجائهم وقد تعودوا أن يكون لهم ذلك من قبل.

ولكن اللّه قادر على أن يحيي الأرض بعد موتها، ألان قلوبهم بعد قسوة، فأيقظهم المصاب من سبات الغفلة، فرجعوا إلى بارئهم معترفين بظلمهم، وأن ما جنته أيديهم كان الضلال المبين، راجين أن يبدلهم اللّه خيراً منها ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[القلم: ٢٦-٣٣] .

هكذا كان العذاب في الدنيا حرماناً من الثمر كله بجانب ما حدث لهم من الهلع والاضطراب لثقل المفاجأة، ولعذاب الآخرة لمن يقع في مثل هذه الحمأة الظالمة أشد وأعتى.

إن هذه القصة بما تحمل من العظة النافعة والعبرة الناجعة، تمثل ـ كما أسلفت من قبل ـ واحداً من المؤشرات في العهد المكي يقفنا على أهمية التكامل في المجتمع الإسلامي كما يراد له أن يكون.

صحيح أن القصة بوقائعها العميقة المؤثرة حصلت لأناس كانوا قبلنا، ولكن عرضها بهذا الأسلوب المعجز مثلاً لموقف كفار قريش مع المعركة الفاصلة بين التوحيد والوثنية: دليل على هذه الوجهة الإسلامية في البناء، بدءاً من داخل

النفس، الوجهة التي أطلت تباشيرها قبل الهجرة، وقبل حيازة المسلمين سلطة التوجيه والحكم. ألا وإن العبرة قائمة بذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وطوبى للمعتبرين!



القصص القرآني... والبناء

استخلاص العبر والعظات من القصص القرآني بدقة وإحاطة، ومعرفة بالواقع: غيرُ محدود بزمان معيَّن، وكان من إكرام الله لهذه الأمة ورحمته بالعباد ـ على وجه العموم ـ حفظه لكتابه العزيز من أي تغيير أو تبديل مهما كان شأن الواحد منهما؛ فكما نزَّله وحياً على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، تولى هو جل شأنه ـ بنفسه ـ حفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الحجر: ٩] .

وما دام الأمر كذلك: فالدعوة إلى استخلاص العبر والعظات، واستنباط الحِكم والأحكام من كل قصة جاء على ذكرها كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: قائمة لخير أمة أخرجت للناس؛ لما أن ذلك منوط ـ أبداً ـ بالتحرك على ساحة العمل الجادّ لتنمية العلاقة بأبعاد رسالة الإسلام، ونشر هذه الرسالة في العالمين، وصياغة المجتمعات ـ في ظلها ـ على النهج الذي رسمه القرآن، وبيّن حدوده، وأرسى معالمه المبيِّن عن الله محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وكم في القصص القرآني ـ ومن بعده قصص السنة ـ: من دروس وعظات تثبت أقدام العاملين، وترفد طريقهم بغنى التجربة، وتواسيهم بما ينالهم من لأواء الطريق، في ظل سنن الله التي لا تتخلف، حين يواجهون تحديات المبطلين والهدامين.

ولعلنا لا نغفل المغزى العميق الذي تنطوي عليه تسمية واحدة من سور القرآن بـ (سورة القصص).

ومن أجل هذا: كان لا بد من ضميمة أشرت إلى الحاجة إليها بين يدي كلمات وجيزات سقتها عن قصة أصحاب الجنة حين ائتمروا فيما بينهم، وبيتوا في الظلام العزم على قبض أيديهم عن الإحسان إلى الفقراء والمساكين، بعدم إعطائهم من ثمر

جنتهم عند القطاف ما كان يعطيهم أبوهم من قبل، وعن كونها جاءت في القرآن تذكيراً لمشركي قريش بأن يستخلصوا العبرة مما حصل لمن كفروا النعمة، وأنهم إذا أصرّوا على هذا الكفران بنعمة إرسال رسول منهم يخرجهم من الظلمات إلى النور: سينالهم من وراء ذلك الشر الوبيل.

والضميمة التي أعني: كلمات تشير إلى زمرة من الآيات في الكتاب الكريم تشرق بمجموعها بواحد من المعالم القرآنية التي تكشف عن الأبعاد التي أعطيت للقصص القرآني، والوظيفة التي يؤديها على ساحة الهداية أداءً يتسع لتنوُّع الأحوال والطرائق، والعمل على أن تأخذ عقيدة التوحيد مكانها في بناء الإنسان، وأن يفسح لشريعة الإسلام كي تُحكم بناء المجتمع الذي لا يعوزه النظام الدقيق والتآخي المثمر، وتذكي فيه روح الجماعة والتعاونِ على كل ما فيه تنمية وجوده الذاتي، وتطلعاته إلى ما فيه قوة وعزة المؤمنين.

ففي سورة الأعراف: إشارة إلى سنة من سنن الله تعالى في الطبع على قلوب الكافرين جزاء إعراضهم عن الحق وصدهم عن سبيل الله. نجد ذلك في قول الله جل ثناؤه: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾[الأعراف: ١٠١].

هكذا يقص الله على نبيه أنباء تلك القرى، وكيف طبع ـ سبحانه ـ على قلوب أهلها، جزاء عدم إيمانهم بما كذبوا به من قبل من البينات التي جاءتهم بها رسلهم عليهم السلام، وذلك جرياً على سنته الحكيمة في ذلك.

أرأيت إلى هذا البيان المعجز الذي تحقق معه غرض عظيم من أغراض هذه القصة، وهو التحذير من الوقوع فيما وقع فيه أهل القرى، لكيلا يحلَّ بمن يسيرون على سنتهم ما حلَّ بهم من طبع الله على قلوبهم والعياذ بالله.

وفي سورة (هود) نقرأ بعد الآيات التي عرضت لقصص عدد من الأنبياء مع أقوامهم: قول الله تبارك وتعالى خطاباً لنبينا صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾[هود: ١٠٠-١٠١].

ثم قال تعالى بياناً لسنته في أخذ الظالمين أخذه الأليم الشديد. وكيف أنهم يخسرون دنياهم وآخرتهم جميعاً: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[هود:١٠٢].

إن هذا التذكير بسنة الله في أخذ الظالمين جزاء صدهم عن سبيل الله وتجاوزهم حدوده: يمثّل دائماً غرضاً نيِّراً من أغراض القصة القرآنية؛ لأنه ـ كما رأينا آنفاً ـ يحمل وجوب الاعتبار والتحذير البالغ من الوقوع فيما يكون سبباً لأخذ الله الأليم الشديد.

فالله تعالى يذكّر بهذه الكلمات الهاديات عباده على امتداد الأزمنة والدهور، وحتى قيام الساعة، بهذه السنة الحكيمة. يقول سبحانه: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بنظائرهم وأشباههم وأمثالهم، والعاقل من ذكر فذكر، وقايس الأعمال والعواقب فاعتبر.

وفي مزيد من التنبيه على ما يجب من الحذر والحيطة في مجانبة أي لون من ألوان الظلم: لم يدع رسول الله ﷺ أن يكون هذا من بيانه للآية الكريمة.

روى الإمام البخاري بسنده عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته**»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[هود: ١٠٢].

ورواه مسلم ولفظه «**إن الله عز وجل يملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته**». ثم قرأ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[هود: ١٠٢].

قال الإمام النووي: معنى «يملي»: يمهل ويؤخر ويطيل له في المدة، وهو مشتق من الملوة، وهي المدة والزمان بضم الميم وكسرها وفتحها. ومعنى «لم يُفلته»: لم يطلقه ولم ينفلت منه. قال أهل اللغة: أفْلَته: أطلقه. وانفلت: تخلص منه.

وفي عود على بدء: لا بد من التنبه إلى أن السورة نفسها تهدي إلى غرض عظيم آخر من أغراض القصة القرآنية، ألا وهو تثبيت فؤاد النبي ﷺ وهو يطلّع على ما حصل للرسل عليهم السلام من قبْله كيف أوذوا في الله وصبروا على ما أصابهم في سبيل الله، وكيف أن الله جل شأنه نصر حزبه المؤمنين، وخذل أعداءه الكافرين.. قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[هود: ١٢٠].

وهكذا يثبت الله ـ بما حصل للرسل مع أقوامهم ـ نبيه عليه الصلاة والسلام، ليكون له بمن مضى من إخوانه المرسلين أسوة. وهذا أمر عظيم على طريق الدعوة إلى الله في حياته ﷺ ومدعاة لأن يتأسى به الدعاة المخلصون في كل عصر ومصر، فيظفروا بإحدى الحسنيين؛ إما تحقيق ما أرادوه من الهداية والخير أو الشهادة في سبيل الله. والله تبارك وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وقد أشرت من قبل إلى ما يقع عليه القارئ لسورة يوسف من قوله تعالى في الآية الثالثة منها: ثم قوله جل شأنه في ختامها بعد رحلة مباركة مع قصة هذا النبي الكريم الذي أوذي فصبر، الرحلة التي يتبدى في عرض وقائعها الإعجاز البياني بأجلى مظاهره: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾[يوسف: ١١١].

هذا: وفي تنويع لأساليب الدعوة في المنهج القرآني: يرشد الكتاب العزيز النبي ﷺ إلى أن يقصّ على اليهود ـ وهم يمكرون ويداورون ويشترون بما أنزل الله ثمناً قليلاً ـ قصة مثقلة بالعبر والعظات، لعلهم يتدبرونها، فيؤمنوا. جاء ذلك في سورة الأعراف حيث قال الله جل وعز: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[الأعراف: ١٧٦-١٧٧].

روى الإمام الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الرجل المقصود في الآية هو «بلعام» من أهل اليمن آتاه الله آية فتركها وانسلخ منها.

ثم قال تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧٧].

وبعد: فلشد ما يستوقف الناظر المتدبر قوله تعالى في ختام الآيات السابقة: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقصص القصص على اليهود مبيناً شأن بلعام كيف انقاد للشيطان فانسلخ مما آتاه الله من الآيات، وما كان من سنة الله في الحكم عليه. واقترن ذلك بالكشف عما يرجى من تفكرهم ـ أن لو تفكروا ـ الذي يمكن أن يقودهم إلى الإيمان.

قال الحافظ ابن كثير: «وقوله تعالى: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام، وما جرى له من إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليم اسم الله الأعظم ـ الذي إذا سئل به أعطي، وإذا دعي به أجاب ـ في غير طاعة ربه، دعا به على حزب الرحمن، وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان، كليم الله موسى بن عمران. ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي فيحذروا أن يكونوا مثله؛ فإن الله قد أعطاهم علماً، وميزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه، ومناصرته ومؤازرته، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به؛ ولهذا من خالف منهم في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحلَّ الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة».

ومن هنا كان الوعيد الشديد في الآية التي تلت: أمراً على غاية الأهمية في شأن الهداية وحمل القوم على سواء الصراط: فالله تعالى يقول: ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ أي ساء مثلهم أن شبهوا بتلك الحيوانات

التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شربة أو شهوة؛ لأنها عديمة العقول والقلوب: فمن خرج عن حيز الهدى والعلم ونور العقل، وأقبل على الشهوة لا غير، متبعاً هواه المضلّ، صار شبيهاً بالكلب وبئس المثل مثله.

ونخلص بعد هذا إلى استذكار أن تاريخ الإنسانية سلسلة متكاملة الحلقات؛ فيها البناء والتعاون على ما فيه الصلاح والإصلاح، وفيها الهدم ومظاهرة الباطل على الحق مع قيام الدليل بجانب الحق. وأمتنا ـ وهي تتشد على ألسنة وأقلام المصلحين فيها ـ أن تكون على الخط الواضح المستنير في الإعداد المتكامل للفرد والجماعة مقروناً ذلك بمعرفة الواقع والانصياع لما تقتضيه سنن الله في الكون وخليقته ـ من الواجب المؤكد أن تضع المسلم المعاصر في الموضع الذي يفيد لطريقه من الماضي والحاضر، كيما تمتد يده ـ حين تمتد إلى البناء ـ ومن ورائها حصيلة تجارب الآخرين والعبر المستخلصة مما يرى اليوم، وما علم من الأمس، ناهيك عن تلمس العلاقة بين ذلك كله وبين ما تقتضيه سنن الله التي لن تجد لها تحويلاً ولا تبديلاً.

وكما شاء الله أن لا تتوقف حركة التاريخ: فالمطلوب أن يكون المسلم ـ على الأحوال كلها ـ طاقة فاعلة مؤثرة تنعكس قوتها على عملية البناء والنماء، وأن يكون من تكامل إعداده لذلك: أن يضع ـ وهو يتحرك على محور عقيدته، وطريقته في قيادة حركة الحياة ـ: ما يستخلص من عبر وما يفيد من تجارب على طريق تغني البنية الحضارية والأمة، وتوجهها وجهة الخير وتحقيق سعادة الإنسان في الدارين، وتتوافق أبداً مع رسالة الإسلام في العالمين.



مرة أخرى..قصة أصحاب الجنة

لقد أخذت العبرة في قصة أصحاب الجنة التي عرضنا لها من قريب أكثر من بعد، ولقد أشرت ـ فيما سبق ـ إلى ما كنا بسبيله من الكشف على أن من بعض ما تدل عليه هذه القصة: أن مطلوباً من المسلمين أن يكونوا ـ وهم يخطون الخطوة الأولى في ظل العقيدة التي آمنوا بها وأسلموا وجوههم لله البارئ المصور من خلالها واعتبروا بالقصص القرآني ـ: على تصور سليم لما يجب أن تتسم به عملية البناء من الشمول؛ بحيث يتجاوز الأمر بناء الفرد على العقيدة، إلى بناء المجتمع بناءً تترجم معه العقيدة إلى وجود عملي تنطق به حركة الفرد والأسرة والجماعة، ويُشرق بهديه تنظيم العلاقات التي تحكم كل هؤلاء على أساس من تلك العقيدة التي عنوانها الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ألم تر أن الجاهليين الذين دُعوا إلى إحكام النظر في هذه القصة والاعتبار بما حدث لأهلها، يؤخذ ـ فيما يؤخذ عليهم ـ ما غشيهم من تلك الظاهرة المرضية التي لا يرتاب منصف في أن استمرار الإقامة عليها عنوان التخلخل الاجتماعي، ونذير خراب المجتمع ودماره على وجه الحقيقة، وإن بدا سليماً معافىً كما يبدو للناظر في السطح لأول وهلة دون الغوص إلى الأعماق.

تلك الظاهرة هي تجاوز حقوق ذوي القربى، وإهمال ذوي الحاجات، والمضارّة بالضعفاء والمساكين، مضافاً ذلك إلى انعدام روح التناصح والتحاضّ على ما فيه الأخذ بيد الضعيف وذي الحاجة إلى المستوى اللائق بكرامة الإنسان وأهليته ـ إذا أحسن التعامل معه ـ للعطاء.

والذي نومئ إليه من التعميم في غرض القصة بحيث لا يحده الزمان والمكان: لا ينافي أن القصة ـ كما أسلفت من قبل ـ أوردها الكتاب الكريم مثلاً لكفار قريش الذين أنعم الله عليهم ببعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام ليكون رسولاً منهم،

وأنزل عليهم كتاباً فيه ذكرهم، وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، فجحدوا هذه النعم العظيمة التي لم يقدروها، بما قابلوا به دعوة الرسول ﷺ من التكذيب والعناد، والصد عن سبيل الله، ومحاولة فتن من لا يؤمنون عن دينهم بألوان الأذى!!

فكان مثلهم في ذلك مثل أولئك الذين أفاض الله عليهم نعماءه بتلك الجنة المثمرة وارفة الظلال، فكفروا بالنعمة ولم يشكروها، حين خالفوا عن خطة أبيهم النقية البانية وقد ورثهم تلك الجنة، وأقسموا جهد إيمانهم متعاونين على الإثم والمخالفة عن طريق الإحسان وصنائعه.. أقسموا على نكران حقوق المساكين، ومن هم أهل الحاجة والعوز، التي اعتادوا أن يحظوا بها كل عام يوم يحين القطاف.

ولقد كان من بديع النظم القرآني هذا الإعلان عما أقسموا عليه بقوله تعالى: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القلم: ٢٤].

وموطن العبرة بمقايسة العقل السليم ـ أن لو كان الناس من هذا الصنف يعقلون ـ أنه كما كانت عاقبة هؤلاء خسارة دينهم بما عصوا أمر الله وعَدَوا على خطة أبيهم، وخسارة دنياهم بما ضيعت عليهم الآفة السماوية من رأس المال والربح جميعاً ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: ١٩-٢٠].

فكذلك هؤلاء الكفار: إذا أصروا على عنادهم وتكذيبهم لنبيهم عليه الصلاة والسلام وهم يعلمون علم اليقين أمانته وصدقه، فسينالهم من سوء العاقبة ما نال أولئك، ولن يكون الخسر مقصوراً على هذا الضلال الذي يغضب الله تبارك وتعالى، بل سيكون شاملاً لدنياهم التي يرغبون شديد الرغبة في تنميتها أيضاً، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون.

والواقع أن دعوة الإسلام أحيت ـ بحمد الله ـ هذه الأمة في دينها ودنياها، وعاقبة أمرها: حتى إن الرسول صلى الله وسلم وبارك عليه: كان فيما صنع بُعَيْد مهاجره إلى المدينة: أن أقام للمسلمين سوقاً خاصة بهم، ليس لأحد عليها من سلطان، بعد أن كانت لليهود السيطرة الاقتصادية والمراباة، والتحكم بسوق المدينة، والتلاعب بأسعار السلع كما يشتهون!!

ولا تسل عن التمكين في الأرض للمسلمين، وما أورثهم الله من ديار الأعداء، والأرض التي لم يطؤوها من قبل؛ كيف تفتحت لهم ـ بالإسلام ـ أبواب البناء الحضاري الذي كانوا فيه سادة الدنيا، وقادة الإنسانية بلا منازع.

وما أدقَّ تلك المنهجية التي نقع عليها في كتاب الله وسنته عليه الصلاة والسلام في إرشاد الأمة إلى حيث الانتفاع بالوقائع، والمخالطة المجدية لتجارب الآخرين، بعد أن كان لها هذا الحضور التاريخي بالخبر الصادق عن الماضين.

لقد أخذ الله بيد المؤمنين إلى موطن العبرة وإعمال العقل بالمقايسة والمقارنة، وإحكام النظر في العلاقة بين المقدمات والنتائج، وإدراك الخطورة الكامنة وراء الغفلة عن سنن الله الحكيمة في الوجود، وخيرية التبصُّر فيها بقلب مؤمن، وعقل ينصاع بنوره الإيماني إلى حيث الانتفاع المجدي بهذا النور.

فالكافرون بالنعمة: مصيرهم كذا، أما المؤمنون المستقيمون على أمر الله: فمصيرهم على العكس من ذلك، والعاقل من تدبَّر وأنصف وانتفع!!

ها نحن نجد أنه بعد ذكر حال أهل الجنة الدنيوية، وما أصابهم فيها من النقمة الربانية حين عصوا الله عز وجل وخالفوا عن سبيله، فعزموا بصرامة وتوكيد على حرمان من يريد هو ـ سبحانه ـ أن يُكرَموا ويُحسنَ إليهم من ثمار تلك الجنة كما كان يصنع أبوهم الذي أورثوها منه.. بيّن ـ جل شأنه ـ أن لمن وقف عند أمره فاتقاه وأطاعه جنات النعيم الذي لا ينقطع ولا يزول.

ذلكم قوله تعالى في أعقاب الآيات التي تحدثت عن القصة التي عليها مدار الحديث في سورة القلم والتي ختمت بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾[القلم: ٣٣-٣٤].

ولا يخفى ما يعطي التوكيد بـ «إن» وتقديم ما يتعلق بالخبر «عند ربهم» من مزيد الإكرام الإلهي لأولئك المتقين الذين استعلوا على سلطان الهوى، ورذيلة الشح الأثيم.

وإذن: فالمسلمون مدعوون ـ على مدى الأجيال المتعاقبة حتى يرث الله الأرض ومن عليها وقد تلقَّوا هذه القصة عن الله ـ أن يعطوا من أنفسهم، وأن يبذلوا ـ وبخاصة أهل السعة منهم ـ من مالهم الذي هو في الحقيقة مال الله استخلفهم فيه، لكي تسلم بنية المجتمع في ظل أحكام الإسلام وأخلاق الإسلام، ولهم بذلك خير الدنيا والآخرة وسعادة الدارين.

وذلك ما يستقيم في ميزان العقل السليم؛ فهل يمكن أن يساوي الله العادلُ الرحيم الكريم، بين المجرمين والمسلمين في الجزاء؟ إن العدالة الإلهية تأبى ذلك بلا ريب. وهي حقيقة كان من تكامل المنهج التربوي في القرآن: أن تذكر مباشرة بعد الآيات التي خلت؛ ذلكم قوله جلَّ وعز: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾[القلم: ٣٥-٣٩].

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾[القلم: ٣٥] استفهام إنكاري يدرك العربي دلالته في استنكار الدعوى التي جاء الاستفهام بسببها﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[القلم: ٣٦] أي كيف تظنون ذلك وسنة الله لا تتخلف في كون العاقبة متسقة تمام الاتساق مع العمل!!

هذا: وقد كان رسول الله ﷺ ـ وهو يخوض معركة البناء ـ بشتى ميادينها ـ في الداخل والخارج، يعمل على إزالة الركام من داخل النفس ومن أرض المجتمع، في حرص على بناء الأمة البناء السليم، الأمر الذي كان من شأنه: أن يقدِّم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ البديل الصالح لما يزيل، وأن لا يهمل جانباً لحساب جانب آخر، مصحوباً ذلك بالعمل الدؤوب على تنمية قدرة أصحابه على الاعتبار، وأن يكون لديهم ـ مع إدراك الأبعاد ذات التأثير في الواقع ـ حسن الاتعاظ بما سبق.

وذلك من أهم العناصر التي ينبغي توافرها لمن يناط به أمر البناء، وتنمية روح الإقدام والثبات في الأمة مهما كانت الصعاب والمعوقات؛ لأن الصبر على ذلك عند المؤمن مرقاة يرقى بها إلى منازل القرب عند الله. والفوز بما أعد لأحبائه المجاهدين الصابرين، ناهيك عما يتحقق من الإنجاز الحضاري على أرض الواقع.

من هنا رأيناه صلوات الله وسلامه عليه يضع أيدي الصحابة الكرام على واحد من مواطن العبرة في القصة التي تجري الدندنة حولها فيقول: «**إياكم والمعاصي؛ إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هُيئ له**» ، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿**فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾**﴾ [القلم: ١٩-٢٠] قد حرموا خير جنتهم بذنبهم» أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.



عبرة العمل في قصة موسى وشعيب عليهما السلام

من عبر القصص القرآني الذي أكرم الله به هذه الأمة: ما نجد في سورة القصص من حديث شعيب وموسى عليهما السلام.

فلقد جاءت الآيات في سورة (القصص) على واقعة ما حدث لموسى عليه السلام عندما ورد ماء مدين، وكيف سقى لابنتي شعيب وهو لا يعرفهما، وكان ذلك منه شهامة أخذت حقها من التقدير؛ لأنهما لا تسقيان حتى يصدر الرعاء وأبوهما شيخ كبير.

وساقته المقادير إلى شعيب عليه السلام ملبياً دعوته إلى داره حيث أراد أن يجزيه أجر ما سقى لبنتيه، وكان من بعدُ ما قصَّه علينا القرآن الكريم من واقعية نظيفة في التعامل أصبحت من المعالم الخيرة في كتاب الله، حيث يتلو التالي تصويراً لحقيقة ما جرى بين نبيين من أنبياء الله، وهي حقيقة مثقلة بالعبرة الهادية التي تنير السبيل وتخرج بالإنسان إلى جو أرحب في عبر التاريخ، والتفهُّم لطبيعة الحياة، مصحوباً ذلك بتبين ما لأخلاق المتعاملين بعضهم مع بعض من أثر في حفظ الحقوق وصيانة العلاقات الاجتماعية من العبث. واستمرار الألفة والوئام.

قال الله تبارك وتعالى على لسان شعيب يخاطب موسى عليهما السلام: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص: ٢٧].

لم يجد شعيب غضاضة في أن يعرض على موسى الزواج بإحدى ابنتيه اللتين كانتا تذودان ـ تمنعان أغنامهما عن الماء ـ، بعد أن رأى فيه القوة والأمانة، وسمع منه قصة خروجه من بلده إلى مدين بعد أن ائتمر به القوم ليقتلوه. والمهر المطلوب ـ كما هو صريح الآية الكريمة ـ: أن يرعى موسى غنم شعيب ثمان سنين وإن أتم عشراً فمن عنده.

وإذا كان العمل مكرمة وعنوان رجولة، فماذا على موسى أن يقبل هذا الزواج ويوافق على هذا المهر؟ إنها منه عليه السلام ـ وهو رسول من رسل الله ـ صورة إيجابية لحياة من يختارهم الله لحمل رسالته، وإن كان ابتلاء موسى بالقوم الغارقين في غضب الله ولعناته المتتابعة: على غاية الشدة في الابتلاء.

ونقرأ في جواب موسى قول الله جل وعز: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٨] .

ولقد رافق العملَ الأمينَ عنصرٌ خلقي كريم؛ فعلى الرغم من أنه لم يلتزم بعشر سنوات لكنه قضى هذا الوقت كله في رعي غنم شعيب عليه السلام.

فقد روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أيَّ الأجلين قضى موسى عليه السلام؟ قلت: لا أدري حتى أقدَم على خير العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس رضي الله عنهما فقال: قضى أكثرهما وأطيبَهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل. قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: (كذا رواه سعيد بن جبير موقوفاً وهو في حكم المرفوع؛ لأن ابن عباس كان لا يعتمد على أهل الكتاب).

وبعد: فإن هذا المعلم القرآني الذي يأخذ حيِّزه في جانب من جوانب قصة موسى مع شعيب يؤصل لتكريم العمل والعاملين، ويرسم لأمتنا واحداً من خطوط مسارها في بناء المجتمع وتنميته وازدهاره.

أن يكون حديث العمل مرتبطاً برسول من رسل الله، أن يكون الذي يأجر نفسه عشر حجج كوامل يرعى فيها الغنم، واحداً من هؤلاء المصطفين الأخيار: مؤشرٌ عميق الدلالة على طريق العمل والبناء، وإذا كانت هذه الأمة مدعوة لأن تفيد من تاريخ موسى مع بني إسرائيل الذين ابتلاه الله بهم ورأى من شرورهم وآثامهم ما يشيب له الوليد، فإن في هذا التعامل بينه وبين شعيب عليهما السلام ما يعطي دروساً في الواقعية والإيجابية وإعلاء شأن العمل والعاملين تستوقف الناقد البصير.

ألا إن أمة أكرمها الله بكتاب يحوي بين دفتيه حديث الأمم الغابرة وتاريخ المرسلين، جديرة أن توليَ موطنَ العبرة في القصص القرآني كبير اهتمامها.

وكلما ازداد وعي الأمة لمفهوم اليقظة والبناء والقوة، كانت أقدر على استلهام العبر ووضعها على طريق التنمية والازدهار.

ها نحن نرى في قصة موسى مع شعيب عليهما السلام صدق اللَّهجة، وإيجابية التصرف، وواقعية النظرة إلى الحياة، وسلامة المقاييس التي تقاس بها الكفاءات.

ورأينا بعد ذلك كله ـ كما أسلفت ـ قدر العمل الذي يقوم به واحد من رسل اللَّه. والعمل يمثل واحداً من أهم مرتكزات البناء والتنمية، وهو عند أهل الإيمان قائم ـ مع التجويد والأمانة ـ على العقيدة والمعرفة، مصاحب لكريم الخلق والحرص على مرضاة رب العالمين.

وقبل هذا وبعده: لا بد أن نذكر قوله تعالى على لسان إحدى ابنتي شعيب: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦] .

لقد اجتمع لموسى ـ وهو من أولى العزم من الرسل ـ القوة في إتقان ما يوكل إليه من العمل وتجويده، والأمانة التي لا بد منها في الحفاظ على ما به يؤتي العمل ثماره المطلوبة.

وفي ذلك عبرة مكينة لأهل الصلاح والإصلاح في أن يعملوا على تربية الأجيال المسلمة على هذا السنن المفضّل، فيجمع الإنسان المنوط به الإسهام في استئناف مسيرة الأمة الخيرة نحو القوة الذاتية والتمكين إن شاء اللَّه: بين الكفاية المطلوبة في أي تخصص وأي مجال، وبين الأمانة في الأداء، مراقبة لله قبل المراقبة للعباد، واللَّه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

من حياة شعيب عليه السلام

«١»

الناظر المتبصر في تاريخ الإنسانية ـ عموماً ـ يجد أن الرواد الأمناء ـ وفي مقدمتهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ـ كانوا في سلوكهم وتصرفاتهم ترجماناً أميناً للمبادىء التي يدعون إليها الناس، والقيم التي يريدون لها أن تحكم مسيرة المجتمع.

وترى كل واحد منهم ضنيناً بنفسه أن يكون في عمله والنهج الذي يسلكه وهو يزاول شؤون الحياة، على شيء من المخالفة لما يأمر به أو ينهى عنه.

ولما كان الرسل والأنبياء عليهم السلام يصدرون عن منبع مبارك واحد في التوحيد ومكارم الأخلاق فإن هذا السلوك منهم يشدُّنا إلى العلم بأن قاعدته التي يقوم عليها قضية كبرى قررها القرآن الكريم وعاتب من يتجاوزونها إلى غيرها فقال تعالى في سورة الصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾[الصف: ٢-٤] .

وهكذا يرى علماء التربية والتاريخ والاجتماع ـ نتيجة المعاناة والتجربة ومسيرة التاريخ وما تفيض من عبر ودروس ـ أن الدعوة إلى الخير وما فيه الصلاح والإصلاح: بالسلوك القويم الداعي إلى حسن التأسي لكونه يترجم دعوة الرائد إلى عمل: قد يكون أبلغ في التأثير وتحقيق المراد من الدعوة القولية ـ وإن كانت هذه لا بد منها للكشف عن المراد ـ؛ على أن الجمع بينهما هو الأولى ويكون خيراً على خير.

والحق أن الأمة التي تحرص بجدية على بناء ذاتها، وتجاوز الصعاب التي قد تكون تكدست عبر السنين على طريقها؛ لا بد أن يكون الرواد فيها على هذا المستوى من عدم مخالفتهم عملاً وسلوكاً عما يدعون إليه وهم يرتادون الطريق، وإلا ساءت الحال وتفاقمت المشكلات، والعكس بالعكس. والوقائع الدالة على ذلك عبر التاريخ كثيرة وفيرة.

ونحن أمة تعمل على استئناف رحلة التمكين وذاتية البناء، بعد أن مال بها الزمان لأسباب داخلية وخارجية معاً، ولكننا ـ بحمد الله ـ لا نبدأ من الصفر ـ كما يقال ـ؛ فلدينا من معالم الهداية في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ـ ويا لها أمانة ثقيلة ـ وسيرة السلف الصالح الذين ضربوا في كل ميدان: ما يغني ويقني، أن لو كنا جادين في الحرص على تلك الهداية والانتفاع بالوقائع، مضموماً إلى ذلك الاعتبار بالعظات والدروس.

وفي سورة (هود) واحد من تلك المعالم القرآنية يحدِّد للأمة مرتكزاً من مرتكزات خطة شعيب عليه السلام؛ وذلك المرتكز: هو أن شعيباً ـ وهو يدعو إلى التوحيد واستقامة السلوك ـ لا يمكن أن يفعل أمراً نهى قومه عن فعله، أو أن يترك أمراً أمرهم هو بفعله؛ ذلكم قول الله جل ثناؤه على لسانه عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

يقول شعيب لقومه: أرأيتم يا قوم إن كنت على بصيرة من ربي ووضوح رؤية فيما أدعوكم إليه وقد أوتيت النبوة دونكم والرزق الحلال ـ وهذا استفهام تقريري ـ ما الذي يكون منكم؟ وما أريد أن أنهاكم عن فعل شيء وأخالف في السر فأفعله خفيةً عنكم، أو ألتمس له المخارج والمداخل من هنا وهناك حين تتعدد العناوين للتعمية والمضمون واحد.

قال قتادة ـ كما روى الإمام الطبري ـ: لم أكن لأنهاكم عن أمر وأرتكبه. وروى شيخ المفسرين عن سفيان الثوري قوله في الآية: لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم.

ولقد كان رسول الله ﷺ سيِّد الوقافين عند هذا الخلق المكين وتأسّى به صحبه الكرام في هذا، وكان دائماً سمة من تبعوهم بإحسان، وما يزال أهل الرضى إلى يوم الناس هذا حريصين على أن يكونوا من أهل ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾.

أورد الحافظ ابن كثير ما أخرج ابن أبي حاتم عن مسروق رحمه الله قال: جاءت امرأة إلى عبد الله بن مسعود فقالت: تنهى عن الواصلة؟ قال: نعم، قالت: فلعلّه في بعض نسائك، فقال: ما حفظتِ وصية العبد الصالح: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ وقال عثمان بن أبي شيبة في «المصنف»: حدثنا جرير عن أبي سليمان الضبي قال: كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله فيها الأمر والنهي، فيكتب في آخرها: وما كانت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾» الواصلة: هي التي تصل شعرها بشعر آخر زور، والمراد بالنهي عنها: النهي عن فعلها. وقد حذر الرسول ﷺ تحذيراً شديداً من ذلك وأمثاله.

هكذا حمل إلينا المعلم القرآني الإعلان الواضح الصريح الذي كان من أمضى أسلحة العبد الصالح شعيب في مواجهة عناد قومه ومكابرتهم، وهو أن يكون عمله صورة مثلى لما يدعوهم إليه من فعال البر ومكارم الأخلاق؛ حتى كأن هذا الذي يستنفد وقته في دعوتهم إليه وترغيبهم في فعله ـ سلوكاً، وفعلاً للخير وحسن تعامل فيما بينهم، وبعداً عن التظالم والغش ـ: قوةً متحركة فيه لا تنفصل عنه حيثما حلَّ وحيثما ارتحل. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾.

ثم أتبع هذا بقوله:﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ذلك شأن المصلحين الذي يرتادون للأمة طرائق البناء الذي يحفظ هويتها ويصون وجودها، والعلاج الذي يصوِّب الخطأ ويشفي ـ بعون الله ـ من الأدواء ـ وما أكثرها ـ. ولا يتوانون عن تنمية خصائص المتابعة في أبنائها دون يأس، والتدرة على تخطي الصعاب دون طلب للعافية أو فتور عن التصديق الجازم بما عند الله للصابرين المخلصين.

إن غايتهم التي ينشدون ـ وهم يدعون إلى الحق ـ هي الإصلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وهو أمر يحتسبونه عند الله ليكون زلفاهم إلى مرضاته سبحانه. وهذا ما يهوِّن عليهم الصعاب ويحول دونهم ودون التوقف، وهم على طريق تبدأ بالمكاره وتنتهي بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. وهذا قبس من نور ما يشرق به على قلوبهم قوله تعالى على لسان شعيب:﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

هذا: وليس من معاد القول ومكروره التذكير بأن على من أولاهم الله أمانة الريادة في البيت والمسجد والمدرسة والجامعة ومؤسسات الإعلام وسدة الحكم وما وراء ذلك من مرافق الحياة في الأمة: أن يُولوا هذه العظة من دعوة العبد الصالح شعيب عليه السلام بالغ عنايتهم، كيما تكون الريادة في حقيقتها تفانياً في العامل المتصل بالإيمان، وقدوة في السلوك، وبعداً عن مخالفة المبادئ والقيم في أنفس أولئك الرواد. ومن هم في مواقع المسؤولية، في أنفسهم وفي ذويهم.

وتلك هي بعون الله ضمانة المسيرة الخيرة من عوامل التخلخل والهدم، سواء أكان ذلك من داخل الأنفس أم من خارجها، واليقين بضرورة أخذ الحذر في ميادين المواجهة وإعداد القوة المستطاعة عملاً بأمر الله، وهو ـ جل شأنه ـ حسبنا ونعم الوكيل.

درس في البناء.. من حياة شعيب عليه السلام «٢»

هذا كلام موصول بما كنا بسبيله من قريب، من الاستنارة بهدي المعلم القرآني في شأن العبد الصالح شعيب عليه السلام وما يحمل منهجه في الدعوة من عبر وعظات تتصل بكيان الفرد والجماعة.

ولعل مما يحسن استذكاره أن الذي أعلنه شعيب في قومه: لم يقتصر ـ كما جرت الإشارة من قبل ـ على أنه لا يريد أن يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه، وأنه لا يريد إلا الإصلاح ما استطاع.

ولكنه أضاف إلى ذلك قضية جوهرية أخرى، هي إعلانه الإيماني أن الله هو الموفق عليه التوكل وإليه الإنابة ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

لقد قدَّم هذا النبي الكريم لقومه ما فيه مقنع لمن أراد مقنعاً؛ فكان في عمله وسلوكه على غاية التطابق مع الذي يقوله ويدعو إليه، وأخذ على نفسه العهد أنه فيما يدعو قومه أمراً ونهياً وإرشاداً لا يهدف إلا إلى الإصلاح ما استطاع، ولا يبغي إلا بناء المجتمع الصالح الذي يحيا بعقيدة أبنائه، وجهودهم المخلصة، ويتحرك بالأخلاق والتعاون على ما فيه خير الجميع.

وبذلك تنمو طاقات ذلك المجتمع الفاعلة، التي تضمن ـ بإذن الله ـ استمرار النمو الخيِّر، والقدرة على درء ما يعترض من عوامل تعوق النمو والازدهار، أو تنحرف بالمنهج عن سبيله القويم.

وهذه المهمة الشاقة التي حمل عبأها شعيب عليه السلام، تلك التي تلقى العنت من الجاهلين، والمناهضة ممن هانت عليه عقولهم وأخلدوا إلى الأرض فاستعبدتهم الأهواء والشهوات، كما تُقابَلُ ـ شأن دعوات الإصلاح الحقيقي دائماً ـ بالفتنة واللدد في الخصومة وألوان الأذى من أولياء الشيطان الطغاة والظالمين..

هذه المهمة التي تحيط بها تلك الملابسات: لا بد لها ـ مع الأخذ بالأسباب الأرضية ـ من صدق التوكل على الله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وحسن الرجاء في توفيقه وعونه؛ فهو الملاذ عند الشدة ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]، والملجأ عند الاضطرار، وصريخ أهل الإيمان عند الكرب؛ فما توفيقهم إلا به، وما عونهم إلا من عنده، عليه يتوكلون، وإليه ينيبون.

وذلك ما قاله ـ بلغة الواثق المطمئن ـ شعيب عليه السلام، وكان هذا القول لبنة عظمى من لبنات المنهج عبّرت عن صلة هذا العبد الصالح بربه، وقربه منه، وصدق اعتماده عليه. أرأيت!! ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

وقد عرضت من قبل لما روى ابن أبي شيبة في «المصنف» عن أبي سليمان الضبي ما يدل على تفاعل الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز مع تلك المقولة المباركة التي أشرق بها قلب شعيب عليه السلام وكان لها ما لها من انعكاسات على منهجه في الدعوة إلى الله.

قال أبو سليمان الضبي: كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله فيها الأمر والنهي، فيكتب في آخرها . «وما كانت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾».

ولعل من الخير أن نعرض لشيء مما دعا إليه هذا الرسول الكريم قومه؛ فقد دعاهم إلى ما فيه خيرهم في دنياهم وآخرتهم.. أجل: دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى أن يحسنوا التعامل فيما بينهم، فلا ينقصوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن يبتعدوا عن الفساد في الأرض، وأن يعلموا أن ما

يعطاه الإنسان من الرزق الحلال ـ مهما قلّ ـ خير من هذا الفساد الذي هم واقعون فيه من تظالم فيما بينهم؛ حيث يحيف الأقوياء على الضعفاء. وينحسر التراحم عن المجتمع، ويحلُّ الحقد وانعدام الثقة محلَّ الود والرحمة والتعاون المجدي.

كما أنه حذرهم عذاب الله إن أعرضوا عما يدعوهم إليه في يوم لا مردَّ له من الله.

وهذا الذي دعاهم إليه: يعني بناء الفرد بالعقيدة الصحيحة عقيدة التوحيد التي تشرق آثارها الطيبة الفاعلة على عمل الإنسان وتعامله مع الآخرين، مصحوباً ذلك بالوازع الداخلي خوفاً من الله ويوم الحساب.

كما يعني بناء المجتمع على تكريم الحق، والبعد عن الكسب الحرام، وانضباط التعامل المالي والاقتصادي بضوابط تحفظ الحقوق، وتصون كرامة الإنسان، وتحفز على تنمية الثروات من طريق الكسب المشروع.

ذلكم قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾[هود: ٨٤-٨٦] وفي تحذيرهم سوء العاقبة نقرأ قوله تعالى على لسان شعيب أيضاً: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾[هود: ٨٩-٩٠].

ولكن العلة كل العلة في أولئك الذين لا همَّ لهم إلا الهدم طاعةً للشيطان، والأهواء، ولأنفسهم الأمارة بالسوء؛ فتراهم يواجهون الكلمة الخيِّرة البنَّاءة، بما يحول دون الإصلاح ودون أن يأخذ طريقه في حياة الناس فيصوِّب الخطأ ويرد المظلمة ويصلح ما فسد.

إن «مدين» ممثّلة في جهلائها وأهل الضلالة فيها: لا تريد أن تعبد الإله الواحد سبحانه؛ لأن في ذلك تركاً لما كان يعبد الآباء والأجداد، ولا تريد أن تلتزم الكسب الحلال في طالب الرزق؛ لأن ذلك في رأي الحمقى أهل الأهواء، حجزاً لحرياتهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون.

ولقد كان أولئك الطغام التافهون مصرِّين على ما هم عليه من هذا الغثاء الجاهلي، ولم يبالوا أن يواجهوا العبد الصالح عليه السلام بذلك علانية ودون تحفظ، مضيفين إلى ذلك مخاطبتهم أياه بلهجة السخرية والاستهزاء من صنيعه، متجاهلين أن من صفته الحلم والرشد لا يفعل ذلك ولا يهبط إلى هذا المستوى. وسبحان من أنعم على أنبيائه بالصبر على أذى الجاهلية بألوانه وصوره وما أكثرها وأوفرها.

قال تعالى حكايةً لما جابهت به «مدين» شعيباً فيما أراد من الإصلاح وإبعادها عن الأذى في الدنيا والعذاب في الآخرة: أي إنك لأنت العاقل للمتصف بالحلم والرشد؟ قال الإمام الرازي في «التفسير الكبير»: كما أنك إذا رأيت معتوهاً يطالع كتباً ثم يذكر كلاماً فاسداً فيقال له: هذا من مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزؤ والسخرية، فكذا ههنا.

نعم: لقد قالوها مستهزئين، ويا لله ما أشق طريق المصلحين، ولكنها الطريق التي تغمرهم فيها مرضاة الله وتنتهي بالفوز المبين.

وعند الإمام الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما وميمون بن مهران وابن جريج وابن أسلم: يقول ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء قبحهم الله، ولعنهم من رحمته وقد فعل وأورد ذلك ابن كثير.



البناء.. وعظة في دعوة شعيب عليه السلام

«٣»

ما أكثر ما يجد الرواد والمصلحون في حياة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وما لقوا من العنت وهم يدعون إلى الله ـ وفي مقدمتهم رسولنا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ـ ما يكون مسلاة لهم وشداً لأزرهم فيما يواجهون على طريق البناء الذي لا بد ـ في الأغلب ـ أن يسبقه الهدم، والريادة المثقلة بالواجبات: من صعاب، وما يعترض سبيلهم من عقبات.

وعلى سبيل المثال لا الحصر: هل يغفل تال متدبرٌ للقرآن الكريم عما أخبر به هذا الكتاب العزيز عن تعنت قوم لوط والمبالغة في أذيته حتى بلغ بهم الشطط الخبيث أن يراودوا النبي الكريم عن رضاه في أن يسيئوا إلى ضيوفه بما لا يليق به والعياذ بالله!! ذلكم قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود: ٧٧-٧٩].

وما أعظم أن يفيد دعاة الإصلاح من هذا الذي يجدون في حياة أولئك الصفوة من البشر؛ فتكون المشقة عاملاً مهماً في تفجير الطاقات وشحذ العزائم. والله في عونهم، ما أخلصوا النية وحرّروا المقصد واستقاموا على الطريقة، بعد الأخذ بالأسباب قدر المستطاع.

ولقد رأينا فيما سبق من الحديث عن قصة شعيب عليه السلام مع قومه ثُلَّةً من القضايا الكبرى التي دعاهم إليها وهي: عبادة الله وحده لا شريك له واستغفارُه من زلات الأقوال والأفعال، وتجنيبُ المجتمع عوامل التخلخل والفساد ـ فلا يعثون في

الأرض مفسدين ـ خصوصاً ما كان شائعاً فيما بينهم من عدوان القوي على الضعيف، وبخس الناس أشياءهم، وتطفيف المكيال والميزان، وأن يكونوا على حذر من عذاب لله في يوم محيط لا ريب فيه، إن هم أصرُّوا على ما هم عليه من الإعراض عن دعوة الحق والإقامة على الإفساد والتظالم، بله الشرك باللَّه عز وجل.

وكان الرد على دعوة العبد الصالح من وجهين، من الخير تجديد النظر فيهما.

أما أولهما: فيقوم على الاستمساك بالتقليد الأعمى، دونما نظر أو تبصر؛ فهم يأبون عقيدة التوحيد وعبادة اللَّه وحده لا شريك له؛ لأن ذلك يعني ترك ما كان يعبد آباؤهم من قبل، وهي نقيصة ما بعدها من نقيصة.

وأما الثاني: فهو أنهم يريدون أن يكونوا أحراراً في تصرفاتهم المالية على الوجه الذي يفهمونه من الحرية في هذا المقام؛ ودعوة شعيب إياهم أن لا يبخسوا الناس أشياءهم وأن لا يطففوا المكيال والميزان ولا يعثوا في الأرض مفسدين: تتنافى مع تلك الحرية. وقد بلغ بهم الإصرار على هذا الانحراف المجنح: أن جنحوا إلى الاستهزاء بشعيب في ردهم عليه ـ كما سبق ـ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧].

لقد سمّى هؤلاء العميُ الأمور بغير أسمائها؛ فعبادة اللَّه الواحد انصراف عما كان يعبد الآباء، وذلك انحراف لا يجوز بحالٍ، فكيف يأمر شعيب به؟ والإنصاف في المكيال والميزان، وأداء الحقوق إلى أصحابها، والإقلاع عن الفساد والإفساد: كل أولئك خلائق تنافي حرية التصرف في المال ولو كان مال الآخرين. فكيف ينهى شعيب عن ذلك؟

وإذن فشعيب عليه السلام، هذا الرسول المبلغ عن اللَّه، الذي ما أراد إلا الإصلاح، وتجنيب قومه مزالق الأذى والفساد: يأمرهم بما لا يجوز ـ على زعمهم ـ الأمر به، وينهاهم كذلك عما لا يجوز النهي عنه.

ولعل من الخير أن نستذكر مرة أخرى صورة ما أمر به العبد الصالح على الحقيقة، وما نهى عنه، وصورة ما زينت لهم أهواؤهم وسولت شياطينهم أن يواجهوا به دعوة البناء والفضيلة.

وانظر إلى قولهم:﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ هذا التعريض الماكر الخبيث بالصلاة يراد من ورائه التهوين من أمر الصلة بالله من طريق دعوة الحق، والاستمساك بها؛ فلو كانت الصلاة التي يقوم بها شعيب خيراً لما حملته على أن يدعوهم إلى ترك ما كان عليه آباؤهم من الشرك والضلال والانتقال إلى عبادة الله سبحانه وتعالى.

وإنها ـ كما أسلفت من قبل ـ لكلمات تنبئ عما وراءها ـ وما أكثر ما يزخر به واقعنا من ذلك ـ من الدَّخل والجبروت.. ناهيك عن السخرية والاستهزاء.

وأنت واجد أنهم اختتموا قالة السوء بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ على طريق الاستهزاء ـ كما سبق ـ بمحاولة إخضاع التصرف المالي لضوابط تحفظ لكل ذي حق حقه، بصرف النظر عن كون صاحب الحق ضعيفاً أو قوياً.. فكأنهم يقولون: ما دمت ترى ذلك الذي يحول دوننا ودون أن نفعل في أموالنا ما نشاء دون ضوابط: فلا أنت بالحليم ولا أنت بالرشيد؛ فالحلم فيهم والرشد فيهم.

ولكن استهزاءهم المفضوح، لا يغيِّر من الحقيقة شيئاً؛ لقد استضعفوا نبيهم عليه السلام؛ فبدلاً من أن يتلقوا دعوته بالقبول والاستجابة، واجهوه بهذا اللون من العنت وقلب الحقائق والسخرية اللاذعة، ولكن كان الله لهم بالمرصاد، ومسَّهم من العقاب الصارم ما فيه العبرة للمعتبرين. فليقرأ ذلك دعاة الحق وليسمعوه ويفقهوه بقلوبهم؛ إن نصر الله قادم والعاقبة للمجاهدين الصابرين.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أنه ما يزال في أنحاء متفرقة من وطننا الكبير: أناسيٌّ هم ـ مع الأسف ـ في فكرهم ومواجهتهم لدعوة الحق التي تهدف إلى تحقيق ما فيه خير الأمة من إقامة صرح الهداية في كل جانب من جوانب الحياة، وإزاحة ركام الضلالة والمضلين عن طريقها..: يمتون بوثيق الصلة إلى ما قالته مدين لنبيها شعيب ولكن تختلف الصور والأساليب.

وإن المعلم القرآني يحمل الرواد والمصلحين إلى ساحة رسم أبعادها المرسلون في قصة هذا الرسول مع قومه. والأمة التي يحمل قرآنها معالم الهداية من حياة هؤلاء البررة عليهم السلام: جديرة أن تنمي في نفوس أبنائها ملكة الإفادة من هذه الهداية والانتفاع بها على الصعيد العملي.

وبناء الأجيال على أصول تلك المناهج أولاً وآخراً مع إدراك معطيات الواقع: غاية أكرم بها من غاية. والله يتولى عباده الصالحين الهداة المهديين.



لون آخر.. من قصة شعيب على طريق البناء

«٤»

لقد علمنا القرآن الكثير من قصة شعيب عليه السلام مع قومه، ووقفنا على صورة مشرقة من صدق الرسل عليهم السلام وحرصهم على إنقاذ من يدعونهم من الهلكة: حرصَهم على بناء الإنسان والمجتمع على أمتن الأسس وأقواها، كل هذا مع الذي يلقونه من التعنت والإصرار على الضلالة والفساد، مضموماً إلى ذلك السخرية والتهديد والوعيد.

ولكن الذي رأيناه في رحلتنا مع العبد الصالح وقومه: لم يكن القصة كلها، فقد ودَّعْنا القول عند نهيه لهم على أن يكون بغضهم له حائلاً دون النظر إلى الدعوة نفسها، وما تحمل لهم من الخير لهم في دينهم، وفي دنياهم من ناحية المعتقد ومن الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، وما يتصل بهما، ودعوته إياهم إلى التوبة والاستغفار، عسى الله أن يتوب عليهم؛ فهو سبحانه الرحيم الودود.

ويمتد رواء المعلم القرآني ليرينا أن القوم ـ مع كل هذا الذي طلع عليهم به شعيب عليه السلام ـ لم يرتدعوا عما هم والغون فيه من الآثام، ولا تزحزحوا إلا قليلاً منهم قيد أنملة عن موقفهم المتشبث بالباطل.

ذلكم قوله تعالى في سورة هود: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾[هود: ٩١] يقولون له على وجه الاستهانة والاستضعاف: ما نفهم كثيراً مما تحدثنا به وتكرر قوله فينا. قال الآلوسي في كتابه «روح المعاني»: (جعلوا كلامه المشتمل على الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف، من قبيل التخليط والهذيان الذي لا يفهم معناه، ولا تدرك فحواه، مع أنه ـ كما ورد في الحديث الشريف ـ خطيب الأنبياء).

كم هو ناب وقاس ذلك الموقف في الميزان الحضاري ـ على الأقل ـ!! داعٍ إلى الله يقيم الدليل على ما يقول، وليس له مطمع شخصي؛ إنه يدعوهم إلى أن يحرروا أنفسهم التي كرمها الله، من قيد الذل بين يدي أوثان لا تضر ولا تنفع، وأن يقلعوا عن هذا العمى في التقليد غير المتبصر للآباء والأجداد، وأن يُزيلوا من المجتمع مظاهر الظلم الاجتماعي، والتناقضات الاقتصادية فيفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، ولا يعثوا في الأرض مفسدين.. داع يكون هذا شأنه في استثارة ما يدعو إليه إخلاصه فيه، فيقابل بهذا الإعراض المشين!!

أي شيء يبدو غير مفهوم في كل فقرات هذه الدعوة؛ فهم لا يفقهونه؟! الواقع أن كل شيء مما طلب منهم في غاية الوضوح، ولكنه الهوى وطاعة الشيطان، والعناد الجاهلي، خصوصاً من أصحاب المصالح في ظلم الناس والعدوان على الآخرين، وبخاصة يوم يكون وجودهم مرتبطاً بالفساد وأهل الفساد، فهم يدافعون عن وجودهم المؤذي من خلال حرصهم على الفساد والمفسدين، والطغاة الظالمين.

لقد قالوها هكذا وبدون حياء أو تحفظ: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾؛ في الأولى عجبوا من دعوتهم لترك ما كان عليه آباؤهم من عبادة أوثان لا تضر ولا تنفع وحجزهم عن الفوضى في أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون؛ لأنهم رأوا في أمرهم بإيفاء المكيال والميزان، وعدم بخس الناس أشياءهم: حجراً عليهم أن تكون له حرية التصرف في أموالهم، ولم يدعوا أن يكون ردُّهم ساخراً ﴿ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ ﴿إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.

وفي الثانية ـ كما نرى ـ يواجهون القضية بلون آخر من العناد والمكابرة ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾ الواقع أن هذه سمَةُ أهل الغفلة ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[الأعراف: ١٧٩] وقال سفيان الثوري: كان يقال لشعيب: خطيب الأنبياء.

ودائماً يجد المرء في الواقع الذي يظلُّه من الحاضر، قبساً يعينه على فهم الماضي؛ فما يجده اليوم دعاة الحق، والرواد على طريق الأمة في أي ميدان من الميادين، سواء كان ذلك على صعيد الفكر أو الاجتماع أو الاقتصاد، أو غير ذلك: من إعراض، وعرقلة للمسيرة الخيِّرة تحت شتى العناوين، يوضح لنا أن مكمن العلة ليس في الدعوة الخيِّرة بما تحمل من عناصر وخصائص، ولا في الداعية ـ غالباً ـ ولا في الأسلوب ـ عموماً ـ ولكن في المكابرين المعرضين أنفسهم.

فالقضية قضية حق وباطل؛ أهل الباطل لا يريدون الحق؛ لأنه يكشف مواقعهم، ويظهر زيفهم كما يكشف النور الظلام وتبصر الاستقامة بالعِوج، فتسقط الأقنعة ويبدو كل واحد منهم على حقيقته كما هو.

ومن أجل ذلك ينتحلون العلل والأسباب من هنا وهناك.

وإذا كان الأمر كذلك: كان لزاماً أن تتضح الصورة عند العاملين، فلا يؤخذوا بظاهر القول ولا بالمصطلحات الزائفة المنسوجة من قبلهم، بل يستمسكوا ـ مع سعة الصدر للحوار والتبيان ـ بالذي يدعون إليه من إصلاح الفرد والمجتمع، وتهيئة المناخ الصالح للبناء الذي يتناول كل الميادين، وينمي مع وضوح الرؤية والثبات على الطريق ملكة الإحساس بما يطرحه المعوقون كالذي فعلت مدين مع شعيب عليه السلام من تعللات وحجج داحضة، ودعاوى هي بالغثاء أشبه.



درس آخر في البناء.. من حياة شعيب عليه السلام

«٥»

في محاولة للاستنارة بقبس من سير بعض الأنبياء عليهم السلام على طريق الدعوة والبناء: كانت لنا وقفات عجلى عند قصة العبد الصالح شعيب مع قومه، هدانا المعلم القرآني من خلالها في سورة «هود» إلى الذي دعا شعيب قومه إليه، وما الذي كان جواب قومه، والطريق التي سلكوها في الردّ.

ومن قَبلُ وقفنا عند المرتكز الأول لمنهجه عليه السلام في الدعوة كما تنص الآيات، وهو أنه لا يريد أن يخالف قومه إلى ما يدعوهم إليه، وأنه لا يريد إلا الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ثم قال لهم: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨] .

ونتابع الإشارة فيكاد يعجزنا التسامي النبوي، فلا نرقى إلى تمثُّله كما ينبغي، حيث نقرأ قوله تعالى على لسان العبد الصالح: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٨٨].

سبحان الذي أعطى أنبياءه كريم العطاء؛ هذه ترجمة لمقولة شعيب التي مرت بنا من قبل ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾إنه يريد أن يبني الإنسان ويجعل منه طاقة فاعلة يتحقق من خلالها الخير لنفسه وللآخرين، ويريد أن يبني المجتمع الأمثل الذي تنعقد لبناته من هؤلاء الأفراد الذين تصوغهم كلمة «لا إله إلا اللَّه».

ثم العزم على العمل بمقتضاها طاعة لله، وعملاً على تنقية المجتمع من التظالم، والعدوان على الحقوق، وتمكين أهل الضلالة أن يعيثوا في الأرض الفساد. ولا عليه بعدها أن ينتفع هو أو يضار بدنياه؛ لأنه لا يريد إلا الإصلاح وقد تحقق.

ففي هذه الآية الكريمة يدعو قومه إلى أن لا يحملهم شقاقه ومنازعتُهم إياه وبغضُه على ترك الإيمان والإصرار على ما هم عليه من الكفر، والفساد الاجتماعي الضارب أطنابه، فيكون ذلك سبب غضب الله عليهم فيصيبهم ما أصاب قومَ نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط من النقمة والعذاب؛ فالتمادي في الكفر والضلال بعد أن بلَّغهم العبد الصالح دعوة الله، ونهاهم عن الفساد والإفساد: مدعاة لأن ينزل بهم العقاب الصارم من السماء، وتحلٌّ بهم القوارع ويصيبهم الله بعذاب من عنده كما أصاب أولئك الأقوام الذين يعلمون من شأنهم ما يعلمون.

قال الحسن البصري: «لا تحملنكم معاداتي على ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار» وهذا إجمال تفصيله ما هم عليه من الضلال والتظالم والإفساد كما أوضحت الآيات.

تبارك الله رب العالمين: أيُّ سمو هذا السموّ، وأي تجردٍ للإصلاح وبناء صرح الحق هذا التجرد.

إن شعيباً عليه السلام يخاف على قومه نقمة الله وعذابه، فهو يصرخ فيهم صرخته الأخيرة، أن ينظروا إلى ما يدعوهم إليه مجرداً عن شخصه هو، وبذلك لا يكون بغضُهم لرسولهم سبباً في النقمة على دعوته، والإعراض عن عبادة الله خالق السماوات والأرض، والإقامة على ما هم فيه من فساد وتظالم.

وهذا يذكرنا بما كان يعاني سيد الأنبياء عليه الصلاة والسلام من عدم إيمان المشركين حزناً على ذلك، كما جاء ذكره في عدد من آي الكتاب الكريم، ـ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦] إلى أن كان التوجيه إلى أن الهداية بيد الله، وإن عليك إلا البلاغ.

لقد شغلت وصية الإصلاح شعيباً عن نفسه، وصرفته عما بقي من قومه من العنت والاستهزاء، والوعيد.

وهكذا الرسل عليهم الصلاة والسلام: التطواف من قبل الواحد منهم حول نفسه، لا وجود له في المنهج ـ وهذا فارق ما بين مسلك النبوة ومسلك الزعامة الأرضية التي تثقلها الأهواء ـ إنهم ـ جزاهم اللّٰه خير الجزاء ـ ينشدون أن يبنوا الفرد والمجتمع على قواعد الخير والفضيلة، وينمّوا منطلقات الهداية، وصنائع التعاون والإحسان. استبدالاً لهذا النور المبصر بما يكون جاثماً على صدر الإنسان ومجتمعه من الظلمات الكثيفة في شتى الأنحاء وبمختلف الصور.

وترى العبد الصالح بعد هذا يخطو الخطوة التي تؤكد التجرد والأخلاق فيما يقوم به من الدلالة على الخير بعد التنبيه على مواطن الأذى ومكامن الفساد، وأنه حريص الحرص كلَّه على أن يقلع قومه عن معاداتهم لله المنعم المتفضل، والحق، ويؤبوا إليه مستغفرين تائبين، كي ينالوا رضاه ـ وهو الرحيم بعباده الودود لهم إن رجعوا عن غَيِّهم ـ ويصرفَ عنهم سوء العذاب.

ذلكم قوله تعالى على لسانه عليه السلام: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود:٩٠] إنه ـ رحمةً بهم ـ يدعوهم إلى الاستغفار والتوبة بهذا الأسلوب الذي يبدو بحق غايةً في الرقة والترغيب المريح، أن لو أزيلت الغشاوة عن الأعين والران عن القلوب. استغفروا ربكم ـ اطلبوا مغفرته ـ من جميع الذنوب التي أنتم لها مقترفون، وتوبوا إليه توبة صادقة لا تراجع عنها ولا نقض: إن ربي ـ جل شأنه ـ عظيم الرحمة واسعها، كثير الود والمحبة لعباده التائبين المنيبين.

ألا ما أجمل أن يعي الجانحون عظمة هذا التعبير القرآني ويفتحوا له قلوبهم ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ بعد طلب الاستغفار والتوبة، ويقدروه قدره، عسى أن يسارعوا إلى العودة إلى باب مولاهم العفو الغفور، والضرع إليه ـ خاشعين خاضعين ـ كي يقبل توبتهم إليه، وخضوعهم بين يديه، فيعفو عن الزلات، ويبدل السيئات حسنات!!

وبعد: فأين هذا الذي أشرق به نهج شعيب وهو على هذه الطريق الشائكة مع قومه الذين قابلوا إحسانه بمنتهى الإساءة ولم يراعوا في التعامل معه ـ وهو يحمل إليهم دعوة الإنقاذ من الهلكة ـ أية رابطة بين الإنسان وأخيه الإنسان.. أين هذا من صنيع أولئك الذين دأبهم التطواف حول أنفسهم وذواتهم مسدلين على تصرفاتهم ستارة العصمة، والنظر إلى الآخرين من خلال الرغبات الهابطة والأهواء؟!

أما العبد الصالح: فتراه في الخطوات التي سلكها مع أولئك الجفاة، يتصرف وكأن شيئاً من العقوق والإصرار على العداوة والوعيد ـ بله الاستهزاء والسخرية ـ لم يكن ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾.

إن هذا الذي يرى من صنيع شعيب: هو صورة عملية لسلامة اتجاهه رحمة بمن يدعوهم وحرصاً على هدايتهم ونجاتهم من النار، وهو في بعض وجوهه تسلية وعزاء لرواد الإصلاح في الأمة، ومن نذروا أنفسهم لتجديد الصياغة في بناء الإنسان المسلم على نور من الكتاب والسنة، كما أنه قوة دافعة إلى إنكار الذات والتسامي فوق المعوقات الشخصية؛ كيما تستأثر قضية التغيير الجذري على سلّم الهداية بالاهتمام، وتستأنف أمتنا طريقتها القرآنية في إحكام البناء المستقل المتميز، وصنع ما يكون امتداداً للحضارة التي ينشدها الإنسان.



من دروس قصة شعيب.. في البناء

«٦»

كان مما دلَّنا عليه المعلم القرآني في سورة (هود) ـ والكلام على قصة شعيب عليه السلام مع قومه ـ ما لجأ إليه القوم في مرحلة من مراحل إصرارهم على الكفر، وعنادهم في قبول ما دعاهم إليه من إصلاح الفساد: ما لجؤوا إليه من دعوى أنهم لا يفقهون كثيراً مما يقول.

وهذا لون من ألوان الهروب من ساحة الحق يلجأ إليه الغافلون، بجانب كونه صورة من صور السخرية والاستهتار! وقد عبّر القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ**﴾.

والواقع أن الأمر لم يقتصر على ذلك؛ فقد كانت هذه الدعوى بداية التحوُّل إلى التهديد والوعيد، ما دام لم ينفع ما اقترفوه من مواجهة دعوة الصلاح والإصلاح، بالتعجب البارد والاستهزاء المشين، وأن ما يقوله شعيب ـ أو أكثره ـ غير مفهوم.

فهو فيهم ضعيف، ولولا رهطه لرجموه، وليس هو ـ كما يرون ـ بعزيز على الرجم، بل قومه هم الأعزة على زعمهم؛ ذلكم قول الله جل شأنه: ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾**﴾.

يقولون: إنا لنراك فينا ذليلاً لا قوة لك، لأن عشيرتك ليسوا على دينك، ولولا معزة رهطك علينا لرجمناك بالحجارة، ولست عندنا بعزيز ولا مكرَّم حتى نعفيك من الرجم ولكنا نحن الأعزة!!

ولقد يبدو في كلامهم بعض التناقض؛ فكيف يرونه ضعيفاً، ولولا رهطه لرجموه؟

وجـواب ذلك إمكان القـول بأن الضـعف في نظرهم جـاء من كـون رهطه غيـر مؤمنين به، فهو ذليل لأن عشيرته ليسوا على دينه، وإذن فهو أعزل من سلاح النصرة من الأقربين، ولولا معزتهم عليهم ـ وفق مقاييسهم ـ لتاموا برجمه بالحجارة.. ويا سوء ما يعلنون وما يدبّرون!!

هكذا استبدل قوم شعيب عليه السلام، الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ فلجأوا إلى التهديد بالرجم بالحجارة كما يُرجم العصاة المخرِّبون، عوضاً عن الحوار الذي تتكافأ فيه الفرص، ويفسح فيه المجال لكل طرف أن يقول ما عنده بحرية، ويقيم الدليل على ما يذهب إليه.

فالرجم: بدل الكلمة الطيبة المنصفة، والساعد الذي يرمي بالحجارة: بدل العقل الذي يفكر والقلب الذي يعي... تماماً كالذي يحدث اليوم لدعاة الحق في دنيا الواقع، على اختلاف أحياناً في الصور والأساليب التي هدى إليها العلم التقني المنفصل عن الخلق، ولم يكن يعرفها أقوام الأنبياء عليهم السلام يومذاك.

وإلى هنا، وما يزال العبد الصالح يفتح لقومه أبواب الهداية بالحكمة المشوبة بالأسى عليهم، أن يصروا على عدم الإيمان، وإتاحة الفرصة لتنقية المجتمع من الفساد.

فهل من سداد الرأي أن يكون رهطه أعزَّ عليهم من الله، فيخافون الرهط والعشيرة، ويقدرونهم حق قدرهم، ولا يخافون الله ولا يرجون له ـ سبحانه ـ وقاراً؟! جاء ذلك في قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾[هود: ٩٢] .

وأنت واجد أنه يعاتبهم عتاباً هو أشبه بالتوبيخ يقول: أتتركونني لأجل قومي ولا تتركونني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيه ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ بمساءة وقد اتخذتم جانب الله وراءكم ظهرياً.

أجل اتخذتموه وراءكم ظهرياً: نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه. قال الإمام الطبري: يقال للرجل إذا لم يقض حاجة الرجل: نبذ حاجته وراء ظهره أي تركها ولم يلتفت إليها.

وفي الآية هنا ـ كما ترى ـ إثارةٌ للعقل كي يأخذ حظه من العمل وتدبر ما يقع، وذوق في الخطاب هو منتهى الذوق، وإعلان عن حقيقة موقفهم، وأنهم ـ في محاورتهم البالية ـ لا يرعون لله أمراً، ولا للحق حرمة، وهم يقذفون الكلام على عواهنه من أفواههم.

إنهم يتركون شعيباً بلا رجم لأجل قومه، ولا يتركونه إعظاماً لله تعالى الذي ابتعثه إليهم: أن ينالوا نبيه بمساءة في القول أو الفعل.

وهذا دليل أنهم خاضوا في ظلام المخالفة إلى حد أن اتخذوا جانب الله الذي لا تخفى عليه خافية وراءهم ظهرياً، فنبذوه خلفهم ـ ويا للمقت ـ لا يطيعونه ولا يعظمونه، وذلك منتهى الخبال!!

وانظر إلى قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فهذه الإضافة المحبّبة عند العبد الصالح شعيب، إضافة الرب تبارك وتعالى إلى نفسه﴿إِنَّ رَبِّي﴾ـ وهي تحمل ما تحمل من التشريف للعبد ـ: ملحوظة هنا كما كانت ملحوظة فيما سبق عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ وهو سبحانه يعلم جميع أعمال القوم، فهو بها محيط، وسيجزيهم بها ولا يعجزه شيء.

هذا: وبعد المراحل التي قطعها شعيب مع قومه على طريق دعوتهم إلى الإيمان بالله، وإفراده بالعبادة، واستغفاره والتوبة إليه، والعمل على نفي الأذى الجاهلي عن المجتمع، وتنقيته من الظلم الاجتماعي والفساد، وبنائه من جديد على قواعد الخير والهدى.. وما أخذ ذلك من جهد وصبر على صدِّهم ووعيدهم واحتمال لألوان الأذى: استيأس من استجابتهم له، فلم يكن بدٌّ من تحديد المسار النهائي، وإعلان كلمة الفصل التي تحمل اللغة المناسبة للمقام بعد هذا كله.

يطالعنا بهذا قول الله جل ثناؤه: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾[هود: ٩٣].

إنه الوعيد الصارم بعد استنفاد الوسائل الدقيقة الحكيمة كلها، وبذل كل ما يمكن من جهد وسعة صدر وصبر.

يقول لهم: يا قوم اعملوا على طريقتكم في ركوب متن الضلالة، إني عامل على طريقتي في الدعوة إلى منهج الهدى؛ وإنها لومضة من ومضات السمو في الأسلوب القرآني الذي يأتلف تمام الائتلاف مع مقتضى الحال؛ فكأنه يقول لهم مهدداً متوعداً: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعماية عن الحق، فأنا ثابت على الحق الذي أدعوكم إليه والصبر والمصابرة.

وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه بما صنع وقدّم، ومن هو كاذب مني ومنكم، وانتظروا عاقبة أمركم التي هي الخسران المبين، إني معكم رقيب منتظر.

ولعل من الخير الإشارة إلى أن استمراءَ «مدين» لما هي فيه من الانصياع الجاهلي للهوى والشيطان، وإيغالها في العماية الظالمة دون وضع حدٍ لذلك بالكلمة الفاصلة، والموقف الحاسم: يمكن أن يعود بالمساءة ـ لا عليها فحسب ـ بل على أقوام آخرين؛ لأن في ترك المفسدين وأهل الضلالة ـ بعد كل الذي جرى ـ يسرحون ويمرحون، وهم مجاهرون بالضلالة والعدوان على دعوة الهدى والصلاح وصاحبها: تمكيناً للباطل وسدنته الهدَّامين، وتشجيعاً للآخرين ـ وبخاصة المترددين ـ على نصرته واحتضانه، وتقعيد القواعد لثباته واستمراره!!

ولئن طال الزمان بيننا وبين حقيقة ما كان بين شعيب وقومه ـ وهي حقيقة قرآنية لا يعتري وجوب الإيمان بها غبش ـ إن قضية الإصلاح واحدة في أرومتها وآفاقها ـ من حيث ضرورة الهدم للباطل ورفع قواعد الحق ـ ولكن تختلف بعض الصور باختلاف البيئة والزمان.

وذلك ما يدعو إلى مراجعة جديدة لا تعوزها قوة الإيمان والوعي: لقصص أولئك الرواد عليهم السلام الذين قال الله لنبيه محمد ﷺ ـ وهو خاتمهم وإمامهم ـ: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾[الأنعام: ٩٠] .

ففي اقتفاء آثارهم إخلاصاً وحرصاً على الانتفاع بما حصل لهم على ساحة الصراع بين الحق والباطل: ما يسعف في خطوة إيمانية هادفة لها ما لها من طيب الآثار والتثبيت.

وها نحن واجدون في واقع الأمة ما يذكرنا بما حدث للعبد الصالح وغيره من الرسل عليهم السلام، وهم ينافحون عن الحق بعيداً عن الرغبات الخاصة، ويبذلون قصارى جهدهم في بناء الإنسان المؤمن الصالح بناءً يؤهله لإقامة المجتمع الأمثل المكين.

ويوجب تنمية الإحساس بصنيع أولئك البررة الذين كان نهجهم من الهداية وإليها، إحساساً يدفع إلى العمل ويهوّن البذل في سبيل الله.



أعداء البناء السليم.. وعاقبة مدين

«٧»

وبلغ السيل الزُّبى، وجاء أمر اللَّه بإهلاك الذين ظلموا من مدين قوم شعيب عليه السلام، أولئك الذين أصروا على الكفر متخذين كلمة الحق وراءهم ظهرياً، عازمين على إلحاق الأذى المهين بنبيهم، بل والقضاء عليه لو أمكنهم ذلك، فحلت بهم النقمة وأخذهم عذاب يوم الظلَّة وفعلت بهم الصيحة ما فعلت وأصبحوا في ديارهم جاثمين.

ونجى اللَّه العبد الصالح ومن آمنوا معه برحمة من عنده؛ فكان ذلك إيذاناً بأحقية ما دعا إليه شعيب عليه السلام، وبطلان ما كان من سفه المعرضين المعاندين.

وفي هذا كله تذكرة لمن أراد أن يتذكّر، وعبرة لمن أراد أن يعتبر؛ ذلكم قول اللَّه تبارك وتعالى في السورة التي نسعد باصطحاب آيها في هذه القصة وهي سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾[هود: ٩٤-٩٥].

وهكذا ـ كما تدل الكلمة القرآنية هنا ـ نجّى اللَّه القادر القاهر شعيباً والذين آمنوا معه برحمة من عنده، وأخذت الذين ظلموا ـ بعنادهم وإصرارهم على الكفر البواح والإضرار بالعبد الصالح ومن استجاب لدعوته ـ الصيحة، وأصبح الذين كانوا يهددون ويتوعدون بالأمس: جاثمين في ديارهم موتى هامدين، لا حراك بهم، كأن لم يعيشوا أو يقيموا في تلك الديار أية حقبة من الزمن ولم يدرجوا على أرضها!! قال الإمام القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن»: (صاح بهم جبريل صيحةً فخرجت أرواحهم من أجسادهم).

والملاحظ أن الأمر لم يقف عند هذا الأخذ الأليم ـ والجزاء من جنس العمل ـ ولكن كان من سخط الله عليهم بما صنعوا أن دعا عليهم ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ قال الإمام الطبري في «جامع البيان..» (أي ألا أبعد الله مدين من رحمته بإحلال نقمته، كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سخطه بهم).

ومن إعجاز القرآن الحكيم: التعبير بـ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾عن هؤلاء الذين أصروا على الكفر واتسمت تصرفاتهم بكل ما دلت عليه الآيات الكريمات؛ الأمر الذي يدل على مبلغ ما يعني الظلم في حياة البشرية، وتنوُّع الأبعاد المدمِّرة التي ترتبط به، والآثار المهلكة التي تترتب عليه. كما يدل على أن استحقاقهم ـ بظلمهم ـ نقمة الله وعذابه: أمر يقرر ويؤكد عدل الله في عباده، وحكمته بتوجيههم إلى أن يبتعدوا عن الظلم، ولا يبخلوا على الحق وأهله بمقارعة الظلم والظالمين أهل الباطل في إطار الضوابط السليمة التي تسعف في تحقيق الغاية المرضية لله عز وجل.

ومهما يكن من أمر: فما كان لنا أن نغادر القول في وقائع ما حصل بين نبي الله شعيب مع قومه دون الإشارة إلى أمرين اثنين:

أما أولهما: فضميمتان نجدهما في سورتي الأعراف والشعراء:

أ ـ فقد أضافت سورة الأعراف ـ وهي تتحدث عن صنيع مدين مع العبد الصالح: أن أهل الضلالة المستكبرين توعدوا بإخراج شعيب والذين آمنوا معه من قريتهم إن لم يعودوا في ملَّتهم؛ فليس أمام الطائفة المؤمنة إلا الهجرة من القرية بتهجير أولئك العتاة الظالمين، أو العودة في ملة الكفر ونهج الكافرين والعياذ بالله؛ ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾[الأعرف: ٨٨].

إنه يذكرهم بما يجب من حرية الفكر والقول؛ فلا يجوز لهم أن يقضوا على تكافؤ الفرص في ذلك، ويستخدموا القوة بدل الإقناع بإقامة الدليل، فيخرجوهم من قريتهم ومنازلهم وهم كارهون؛ فكأنه يقول لهم: أوَتخرجوننا ولو كنا كارهين لهذا الإخراج غير راضين به، لما فيه من الظلم والعدوان على الحرية؟!!

وهذا الذي رسمه المعاندون الظالمون لأنفسهم وللحق: أباه شعيب عليه السلام أشد الإباء ـ وهذا منه لا غرابة فيه ـ وعجب من ذاك الهراء أشد العجب، وأعلن في الناس ثباته الصارم وثبات الذين آمنوا معه على الدين الحق؛ لأنه المخالفة عن ذلك افتراءٌ على اللّه الكذبَ، كما أعلن توكُّلهم جميعاً على اللّه، فهو حسب المؤمنين الصابرين؛ صحب ذلك دعاء غايةٌ في العبودية والميل العميق إلى النصفة حتى مع الأعداء المعاندين.

نقرأ ذلك فيما حكى القرآن على لسانه في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾[الأعراف: ٨٨].

ولم يعبأ شعيب ـ وهو الصادق المتوكل على اللّه ـ باللون الآخر من وعيد أعدائه وتخذيلهم حين رتبوا الخسران على اتباعه عليه السلام؛ ذلك اللون الذي كان آخر سهم في جعبة من ضربت العماية على قلوبهم بالأسداد، وتأبَّوا ـ مهملين عقولهم ـ على كل ما هو هداية وحق؛ يطالعنا بذلك قوله تعالى في الآية التي تلي: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[الأعراف: ٩٠].

ولا ينقضي عجبك من حسن التأتي عند شعيب عليه السلام وجميل اللطف في المحاورة والتوجيه؛ وهو ما نبَّأت به الآية السابعة والثمانون التي سبقت الآيات الثلاث الآنفة الذكر من سورة الأعراف في قول اللّه جل ثناؤه: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الأعراف: ٨٧].

هذا ما يقوله عليه السلام ـ بكل وضوح وصفاء ـ إن كان فريق منكم صدَّقوا بما جئت به من الحق، وفريق لم يصدِّقوا فاصبروا ـ والخطاب لمدين وما أدراك ما تصنع مدين ـ حتى يفصل اللّه بحكمه العدل بيننا وهو خير الفاصلين.

ولقد استوقف هذا الأسلوب العلماء المحققين؛ فكشف بعضهم عن حسنه وما يحمل من التلطُّف في المحاورة. قال أبو حيان في «البحر المحيط»: هذا الكلام من أحسن ما تلطف به في المحاورة؛ إذ برز المتحقِّق في صورة المشكوك فيه، وذلك أنه قد آمن به طائفة بدليل قول المستكبرين:﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾[الأعراف: ٨٨] وهو أيضاً من بارع التقسيم؛ إذ لا يخلو قومه من القسمين.. فيكون وعداً للمؤمنين بالنصر الذي هو نتيجة الصبر، ووعيداً للكافرين بالعقوبة والخسار.

ب ـ وتطلع علينا سورة الشعراء بحلقات أخر من سلسلة الحجج التي لا أوهى منها في هذا الباب، وهي أنهم يعتقدون أن شعيباً سُحر كثيراً حتى غُلب على عقله فجاءهم بما يدعوهم إلى الإيمان وترك الكفر، ثم إنه بشرٌ مثلهم، فهو إنسان كباقي الأفراد وليس رسولاً ـ على زعمهم ـ. وبعد هذا كله: لم يستحيوا أن يقولوا له: ما نظنك إلا تتعمد الكذب فيما تقوله وتدعيه، لا أن الله أرسلك إلينا. انظر إلى قوله تعالى في ذلك: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾[الشعراء: ١٧٦-١٨٦].

وأما الأمر الثاني: فهو أن الصيحة التي ذكرت في سورة هود بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾[هود: ٩٤-٩٥] هي مظهر من مظاهر نقمة الله عليهم، وإلا فهناك مظهران آخران عرضت لهما سورتا الأعراف والشعراء؛ إنها قوارع عدة نزلت بهم جزاء ظلمهم وبغيهم؛ فمع الصيحة: الرجفة وعذاب يوم الظلة؛ فهم أمة واحدة اجتمعت عليهم تلك النقم كلها.

ففي سورة الأعراف ذكرت الرجفة، وفي سورة الشعراء ذكر عذاب يوم الظلة، وفي سورة هود ـ كما أسلفنا ـ ذكرت الصيحة.

قال تعالى في سورة «الأعراف» ﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩٠-٩٢].

ونقرأ في سورة «الشعراء» ما تلا آيات سبق ذكرها وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧-١٨٩].

وكان ذكر الصيحة في الآية الرابعة والتسعين من سورة «هود» كما جرى التنويه بذلك غير مرة.

وجميل ما ذهب إليه الحافظ ابن كثير رحمه الله في تعليل ما جرى عليه الأسلوب القرآني من تعدد صفة العقاب الإلهي لمدين: من أنه جارٍ على التناسب بين صفة النقمة وبين كلام الكفار وما كان يصدر عنهم من التصرُّف؛ فقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن: كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق.

ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين؛ وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ فأرجفوا بنبيِّ الله ومن معه، فأخذتهم الرجفة.

وفي سورة هود قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله في قولهم: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧] قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء؛ فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ الآية.

وههنا ـ في سورة الشعراء ـ قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: «إن الله سلَّط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شيء، ثم إن الله تعالى أنشأ لهم سحابة ـ وهي الظُّلَّة ـ فانطلق إليها أحدهم فاستظلَّ بها، فأصاب تحتها، فأججت عليهم ناراً». وهكذا روى الإمام الطبري عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم.

وقال محمد بن كعب القرظي: «إن أهل مدين عُذِّبوا بثلاثة أصناف من العذاب: أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها؛ فلما خرجوا منها: أصابهم فزع شديد، ففرقوا أن يدخلوا البيوت فتسقط عليهم، فأرسل الله عليهم الظلة فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كاليوم ظلاً أطيب ولا أبرد من هذا، هلموا أيها الناس؛ فدخلوا تحتها جميعاً تحت الظلة، فصاح بهم صيحة واحدة فماتوا جميعاً، ثم تلا محمد بن كعب: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾».

وروى شيخ المفسرين بسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ما يقارب ذلك.

تلك كانت عاقبة هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، وظلموا الحقيقة والمجتمع، وتمرَّدوا على الكلمة الهادية تخرجهم من الظلمات إلى النور، حين وقفوا بعناد وإصرار في وجه دعوة الخير، ومنهج واحد من رسل الله في البناء الصالح النافع للفرد والجماعة؛ حيث ينتفي بذلك الخضوع لغير الله، ويُنقَّى المجتمع من المظالم التي كانت مطبقة عليه.

وإذا لم يكن صنيع هؤلاء المستكبرين على الحق وأهله من الظلم: فأي شيء يكون؟!

من أجل هذا أعطاهم القرآن ـ فيما أعطى من صفاتهم ـ هاتين الكلمتين ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عنواناً على كل ما صنعوا ـ وقد أشرت من قبل إلى وجه الإعجاز في ذلك ـ. وكان من نقمة الله عليهم بذلك ما كان.

وللظالمين في الآخرة ما هو أشد وأنكى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣] قال ميمون بن مهران ـ كما روى الإمام الطبري ـ: «هذا وعيد للظالم وتعزية للمظلوم».

والحق أن هذه النقمة الإلهية ـ وما كان من ألوان العذاب فيها ـ على هؤلاء الذين باعوا أنفسهم للشيطان والهوى، فاتخذوا أوثاناً يعبدونها من دون الله، وأصروا على ارتكاب المظالم والفساد في الأرض، ناهيك عما درجوا عليه من السخرية والاستهزاء بالداعي إلى الله فيهم، وتهديده ومن آمن معه بمزيد من الأذى والفتن عن الدين.. الحق أن هذه النقمة رافد عظيم من روافد الخير؛ يشحذ هممهم العاملين، ويزيد من يقين من تؤرقهم هموم الأمة وواقعها الأليم: أن الله لا بد ناصرهم إن نصروه، ثباتاً على الحق، واستعلاءً على الرغب من داخل النفس، وعلى الرهب تنفثه صدور المخالفين المعاندين.

وثمن ذلك دائماً أن ينمي هؤلاء ـ الذين أكرمهم الله بالريادة على الطريق المحفوفة بالمكاره ـ في أنفسهم، روح الصدق والإخلاص لله تبارك وتعالى، وأن تظل قلوبهم موصولة به سبحانه، وأن يضعوا نُصب أعينهم ـ وعلى درجة غاية في اليقين ـ أن ما لهم عند الله من الأجر والمثوبة، والعطاء غير المحظور ـ (وما كان عطاء ربك محظوراً) ـ أكبر وأعظم مما قد ينالهم من أذى الظالمين المعاندين للحق، مهما بلغ من عتوهم واستكبارهم وإصرارهم على إلحاق الأذية ـ بشتى ألوانها وصورها ـ بهم.

ومما لا يرتاب فيه منصف أن الذين تبنى شخصياتهم على هذا المنهج المشرق الوضاء، وتنمو بين جوانحهم هذه المشاعر، ويتقدمون إلى ساحة الهدم للباطل، ورفع صروح الحق بكفاياتهم ومهاراتهم المطلوبة على صعيد الأخذ بالأسباب؛ علماً وعملاً وانتفاعاً بمعطيات التاريخ والوقائع: هم الصالحون لأن يؤتمنوا على تحديد الطريق ومن أين تكون نقطة البدء في طي المسافة بين الواقع، وبين ما يجب أن يكون.

ولقد طال انتظار الأمة ـ وهي تعض على جذع النوائب والتقلبات ـ لشباب ينتمون إلى الجيل القرآني، يتخطون بها الصعاب بمنهجية وصدق جهاد وبذل، ويسيِّرون طاقاتها وإمكاناتها في قنوات تؤتي ـ بإذن الله ـ أفضل النتائج وأينع الثمرات.

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ويقف المدُّ الإسلامي ليملي على التاريخ كلمته الحقَّة الفاصلة من جديد.



عبرة من قصة يوسف عليه السلام

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾

في القصص القرآني عبر تضيء الدروب، وتغني تجارب الأمة، وتمنح العاملين رصيداً من الثقة بطرائق الخير وما تؤدي إليه، ومزيداً من الوعي لطرائق الشر والانحراف وضرورة البعد عنها، وتجنب كل ما هو منها بسبب. وذلكم أحسن القصص.

وترى في هذا القصص نتائج أثمرتها مقدمات، وقيماً عملت عملها في هذا الجانب أو ذاك من جوانب الحياة يقول اللّه تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾[يوسف: ٣].

من هذا القصص القرآني قصة يوسف عليه السلام التي كان منها سجنه بعد فرية افتريت عليه، وأن الملك رأى فيما يرى النائم سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات.﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾[يوسف: ٤٣]. وجيء بيوسف عليه السلام وطلب إليه الإفتاء في الرؤيا، فأولها بما أخبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[يوسف: ٤٦-٤٩].

وكان أن امتلأت نفس صاحب الرؤيا تقديراً ليوسف عليه السلام، وإكباراً لما رأى من ثاقب ذهنه ونفاذ بصيرته، فأراد ـ لهذا ـ أن يستخلصه لنفسه، وقد أفصح له عن ذلك عندما اجتمع إليه، وأخبره أنه ذو مكانة عالية وموضع ثقة وائتمان، وأنه

مخوله تخويلاً مطلقاً فعل ما يشاء في أمور الزرع، وادخار المؤونة لدفع المجاعة، وضمان ولو اليسير من الكفاية، ذلكم قوله جل وعلا: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف: ٥٤].

ولما رأى يوسف عليه السلام هذه الثقة والتخويل المؤكدين، طلب إليه أن يجعله على خزائن مصر؛ لأنه قادر على القيام بالمهمة الصعبة في تلك الأيام العصيبة، وهو بحمد الله ذو كفاءة لما يوكل إليه وأمانة لما يؤتمن عليه ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾[يوسف: ٥٥].

وكان ما كان؛ حيث صدقت الرؤيا، وصدق تأويل يوسف لها، وخرجت البلاد من المحنة وتجاوزت بعون الله، ثم بجدارة يوسف وكفاءته فيما ولي من خزائن، وبحفظه وأمانته فيما كان تحت يده من المال وشؤون الاقتصاد.. تجاوزت ما كان يمكن أن يقع من المجاعة وسوء الحال.

وغير خافٍ أن موطن العبرة في هذا الجانب من القصة المثقلة بالوقائع: ما حصل من النتائج العظيمة على يد يوسف عليه السلام في حقبة حرجة قاسية، حيث استطاع ـ بعون الله وفضله ـ أن يخرج البلاد من الأزمة ويجنبها مجاعة مرتقبة تأخذ الإنسان والزرع والضرع، كل ذلك لأنه جمع بين العلم بما كلف به من مهام، فكان جديراً بذلك، وبين الأمانة والصدق ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾وهذان عاملان أساسيان تبرز ضرورتهما لكل مجتمع يهدف إلى البناء والتنمية وتسيير الموارد والطاقات في قنواتها المثمرة والمنتجة في ضوء العلم.

فإذا توافرت الكفاءة العلمية والأهلية التقنية، واجتمع لذلك الأمانة القائمة على عقيدة راسخة ووازع إيماني من داخل النفس، كانت الأمة في مأمن على ما تريد عند التخطيط المدروس، وعند التنفيذ وترجمة الدراسة إلى عمل ناطق في كل ميدان من ميادين الحياة.

هكذا يعمل العلم عمله وتعمل الأمانة عملها في بناء كيان الأمة وتنمية وجودها الذاتي ودفع العاديات عنها، وفي القصص القرآني عبر تذكر ومعالم حياة تضيء الدروب.

وعِبَرُ القصص أمانة في الأعناق، وإنما يخرج من عهدة ذلك تقوى الله بحسن الانتفاع بها. والله ولي المتقين.



إسماعيل عليه السلام

البناء.. والشباب

«١»

من أجل الشباب أتحدث ـ بقدَرٍ ـ عن قصة الذبيح إسماعيل عليه السلام؛ ففي الآيات التي تنزلت في شأن الذبح وما حصل من إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، والتي أشرقت بها سورة «الصافات» معلم قرآني، فياض بنور الهداية، مثقل بالعبر، زاخر بالدروس؛ يذكرنا من حيث الدعوة إلى الاعتبار: بقوله تعالى في شأن يوسف عليه السلام وإخوته:﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾[يوسف: ١١١].

والآيات المعنيَّة في سورة «الصافات» هي قول الله جل ثناؤه في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾[الصافات: ٩٩-١١١].

ففي مطلع هذه الآيات: يخبر الله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام، أنه بعدما نصره الله تعالى على قومه وأذاقهم لباس الخزي، في أعقاب يأسه من إيمانهم ـ وقد أصروا على عنادهم بعدما شاهدوا من الآيات العظام الدالة على صدقه ـ هاجر من بين أظهرهم وقال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾[الصافات: ٩٩]. ودعا مولاه عز

وجل أن يهبه أولاداً صالحين مطيعين ينقادون لأمر اللَّه، يكونون عوضاً عن قومه وعشيرته الذين فارقهم لله، وفي سبيل اللَّه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٠].

واستجاب اللَّه دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وجاءت البشارة العظيمة ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[الصافات: ١٠١] رُزقه خليل اللَّه إبراهيم عليه السلام على كبر وقد تجاوز الثمانين، وكان إسماعيل بذلك أول ولد بشر به إبراهيم، وهو أكبر من إسحاق عليهما السلام.

فلما بلغ الغلام الحليم السعي مع أبيه، حيث شبَّ وترعرع، وأطاق مشاركة أبيه فيما يفعله من السعي والعمل: كان الاختبار الإيماني العميق...

أجل لقد جاء الاختبار من السماء، والغلام الذي كان ملء السمع والبصر لوالده الذي رزقه بعد أن كبرت سنه ورق عظمه: يدرج رويداً رويداً على عتبة الشباب؛ حركةً، وحيويةً، وصورةً تألَّق بندى الحياة.

لقد رأى إبراهيم عليه السلام، فيما يرى النائم ـ ورؤيا الأنبياء حق ـ أنه يذبح بيده ولده الوحيد الذي قطع أشواطاً من العمر، فبلغ معه السعي، والذي أطل على ينبوع الشباب المتدفق في عمر فتي من عمر الشباب..

واعتبر الخليل ـ عليه السلام ـ الرؤيا أمراً إلهياً بالذبح؛ وما كان لرسول من رسل اللَّه ـ وهو يبلغ رسالة اللَّه ـ أن يحول دونه ودون إنفاذ أمر اللَّه به شيء، ولو كانت عاطفة الأبوة التي لا تكاد توصف، تجاه ولده المحاطة نشأته بكل هذه الظروف!!

وأعلم إبراهيم إسماعيل بالأمر ليكون أهون عليه، ويطمئن إلى جلده وعزمه وهو في هذه السن على طاعة اللَّه تعالى وطاعة أبيه ﴿مَاذَا تَرَىٰ قَالَ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي ثم تلا هذه الآية ﴿مَاذَا تَرَىٰ قَالَ﴾.

ولا تسل عن قوة الإيمان الفاعلة بإذن الله؛ تلك التي كانت محور التحرك بين إبراهيم وإسماعيل كلٌّ حسب الاختبار الذي ابتُلي به.

ترى أيَّ شيء راح إسماعيل يراه جواباً لقول أبيه: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾؟

الحق أن الفرع الطيب كان امتداداً للأصل الطيب، والنبتة العظيمة في البيت الإيماني العظيم، كانت واضحة الملامح في الاستسلام المطمئن لأمر الله!

من هنا كان الجواب الذي يفيض بندى الإيمان والرضى بقدر الله، مع أهلية الصبر على حكم الله ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

هكذا: يا أبت امض لما أمرك الله من ذبحي؛ فأمر الله لا خيَرة للمؤمن فيه، وسأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل الذي أمره كله حكمة، وفي إنفاذ أمره الثواب الجزيل.

﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ إنها الكلمة التي عملت عملها في تاريخ العقيدة وحَمَلَتِها من الرجال والنساء وبناء الإنسان!!

ولعل من الخير ـ على ساحة الحرص على البناء المحكم للإنسان ـ أن لا يغيب عن البال أنه على أرض الرسالة، جرى هذا الحوار المعطاء بين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما الوالد الذي أمره الله بالذبح، والولد الذي كان مثال الرضى والاستسلام لأمر الله.

لقد استعلن الحق في صدر إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، وعلى لسان كل واحد منهما كما أخبرنا القرآن كتاب الله.

هذا يرى الرؤيا ـ ورؤيا الأنبياء وحي ـ فيسارع إلى مرضاة ربه بالعمل على إنفاذ ذبح ولده ويخبره بذلك، والآخر لا يتردد ولا يستمهل، بل يستجيب على الفور لنداء الحق.

فلا عاطفة الأبوة العميقة الفياضة عند إبراهيم كانت حائلاً ـ ولو على أدنى مستوى ـ دون المسارعة الجادّة للامتثال، ولا غريزةُ حب الحياة الطبيعية عند غلام يافع يدرج على عتبة الشباب حيث بلغ مع أبيه السعي، عاقت ـ ولو بصورة الاحتمال اليسير اليسير ـ عن حسن الاستجابة الصادقة الجازمة ـ للأمر الرباني ـ؛ لقد ملكت عليه نفسَه مشاعر الطمأنينة بأمر اللّه الذي أبلغه إياه أبوه؛ فكانت أقوى من خوف الموت وحب الحياة!!

شباب إسماعيل الوليد يذكرنا بالشباب، وقوة نفسه المتصلة باللّه، ونورُ قلبه المشرق بالعقيدة يذكراننا بما يجب في أعناقنا لفتياننا وفتياتنا على محور الشباب؛ من حشد الإمكانات المتاحة لتكوينهم جميعاً، تكويناً يجمع إلى صفاء العقيدة ـ التي هي القاعدة الصلبة في البناء ـ نقاء الفكر وسلامة البنية، من أجل أن يكونوا جميعاً ـ ذكوراً وإناثاً ـ على المستوى الذي تعدُّهم الأمة لتبوُّئه، فيسهموا في إعادة الأمور إلى نصابها، وتكون هذه الأمة متبوعة لا تابعة تعمر الأرض، وتبني الحضارة المثلى، طاعةً لله.

ألا وإن إسماعيل عليه السلام ـ وهذا ما يجب أن يفخر به الشباب المؤمن ـ خطَّ في تاريخ البشرية خطاً لا يكون امتداده إلا على كواهل شباب يعتزون بالتضحية ـ ولو بأنفسهم ـ في سبيل اللّه، ويضعون إمكاناتهم على طريق نصرة الإسلام، مصحوباً ذلك ـ مع انشراح الصدر ـ بالطمأنينة البالغة والرضى المريح. أولئك شباب تصنعهم يد محمد ﷺ ولد إسماعيل عليه الصلاة والسلام.. تصنعهم يده الكريمة بهديه القولي والعملي ـ ناهيك عن الممارسة والقدوة ـ ثم ما فهمه أئمة الهدى من هذا الهدي الميمون عبر التاريخ علماً وتجربة ونشداناً لسعادة الدنيا والفوز المبين يوم الدين.

الشباب.. والبناء في قصة إسماعيل

«٢»

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[الصافات: ١٠٢].

من خلال المعلم القرآني في سورة «الصافات» تتفتح لنا من قولة إسماعيل عليه السلام هذه آفاق كريمة يعوز الأمة تمثُّلها على دروب تربية الأجيال وبنائها بناءً متكاملاً من الناحيتين النفسية والعملية، يسمو بالفرد ليكون النواة الصالحة في مجتمع أمثلَ تقوده شرعة الإسلام.

إن إسماعيل عليه السلام يقول لوالده جواباً على قوله: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ وهذا في لغة عصرنا منتهى سلامة التصور لموضوع إزهاق الروح..

أن يُقدمَ والد على ذبح ولده: أمرٌ يتنافى في الأصل مع عاطفة الأبوة العميقة في أغوار النفس؛ إذن هنالك الأمر الإلهي من الخالق الذي أنعم بالولد على إبراهيم في سن متأخرة. وما كان للمؤمن إذا قضى الله أمراً أن يكون له الخيرة من أمره.

من أجل هذا قال: يا أبت افعل ما تؤمر، ولم يقل: افعل ما بدا لك.

لقد نمت في نفس إسماعيل بواعث الخير ومحبة الله، حتى استعلى على كل الصعاب الغريزية في حب الحياة والخوف من الموت وغيرهما.

وفي واقعية تعين على تحديد الملامح لشخصية إسماعيل ـ وهو في هذا الشباب الغض ـ يقول عليه السلام لأبيه:

إذن الأمر شاق وصعب على النفوس؛ فهو يحتاج إلى صبر، ولم يتعاظم بدعواه عليه الصلاة والسلام، بل ربط ذلك بمشيئة الله؛ إذ كان ممكناً أن يقول: ستجدني من الصابرين، ولكن الصبر نفسَه ليس بالأمر الهين؛ فقال: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ .

ثم ما هذه الطاعة؟ إن إسماعيل مدرك أن طاعة أبيه من طاعة الله فهو يطيع أباه، ويعينه على طاعة ربه عز وجل.

جميل جداً أن يكون الشاب قوياً في ذاته وقلبه وعقله؛ فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير ـ كما صح عن رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام، ولكن الأجمل منه: أن يكون ـ بإيمانه وصبره ـ أقوى وأشد سلطاناً على نفسه ورغباته ودواعي حب الحياة؛ مما لا يقدر عليه إلا الأفذاذ من العظماء، وأن يصدر ذلك منه مقترناً بهضم النفس والأدب الجم مع الله تعالى.

والواقع أن مما يزين طريق الشباب ـ على مر العصور ـ: أن يكونوا في صدق العزيمة والاستعلاء على الصوارف من معوقات ومغريات وترغيب وترهيب، على نسب متصل بوقفة إسماعيل الصابرة الشجاعة المشرقة بخالص الإيمان؛ تلك الوقفة التي تزينها الاستعانة الصادقة بمن بيده ـ سبحانه ـ نواصي العباد، وإليه ـ جل شأنه ـ مرجعهم ومآبهم يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله.

فلئن كان إبراهيم عليه السلام النموذج الرائع القدوة في هذه الواقعة التي كان الاختبار فيها للجميع، والتي تركت بصماتها في حياة بني الإنسان بعامة وفي حياة المسلمين بخاصة.. للأب الذي يمتثل أمر ربه ـ بلا توانٍ ولا تردد ـ في ذبح وليده الوحيد الذي رزقه وقد بلغ ما يجاوز الثمانين عاماً من السن.. ثم للأم التي لم يثبت عنها أي اعتراض، نعم للأم وما أدراك ما الأم.. دليل الموافقة التاسعة على إنفاذ أمر الله.

لقد كان إسماعيل عليه السلام النموذج الرائع القدوة للشاب الذي يدلف إليه ريعان الصبا، فيمتحن ـ وهو على عتبة الشباب ـ فلا يبخل بنفسه امتثالاً لإرادة أبيه ذبحه عملاً بأمر الله، وكان له من إيمانه بربه والصدق في طاعته، وطاعة أبيه: ما جعله يستعلي على حب الحياة، وهو أمر غريزي فطر المخلوق عليه، ويكون ـ فيما يصدر عنه، وهو في قمة الابتلاء ـ أقوى من كل نوازع الهوى ورغبات الإنسان، خصوصاً ما يكون منها أيام الشباب حيث يكون سلطانها أقوى وفاعليتها أشد.

إن حب الحياة أمر غريزي، هذه حقيقة نذكر معها قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٢٨] ولكن يجب أن نقدر الأمر قدره أيضاً عندما يكون ذلك التحدي في فورة الصبا، حيث يطل الشاب على ساحة الحياة، يملأ جوانحه الأمل، ويتطلع إلى المستقبل بثقة واطمئنان.

ثم إن الآية الكريمة توحي بحقيقة، من الخير أن تكون في الحسبان ــ ونحن نتطلع إلى الواقعة وما تفيض به من عظات ودروس على طريق البناء ــ هذه الحقيقة: هي أن الإقدام على الموت في ساحة القتال ــ مثلاً ــ قد يكون من بعض الوجوه أيسر على النفس من هذا الذي طُلب من إسماعيل عليه السلام.

لقد وُضع إسماعيل عليه السلام الفتى موضع الاختبار الصعب عندما أبلغه أبوه إبراهيم عليه السلام ما يعني أن يوافق على إسلام نفسه للذبح ــ وإن كان ذلك على صورة أخذ الرأي، لأن الأمر من عند الله ــ. أجل طلب منه ــ بالصورة المومئ إليها ــ أن يسلم نفسه ليذبح كما يذبح الكبش، وليس ذلك في سهولته ويسره، كما لو كان ــ وهو الفتى اليافع ــ يصول ويجول في المعركة ــ وبيده سلاحه الذي يعمل عمله في دفع القتل ــ يرى دم القتيل أو الجريح يجري، ويسمع أنين المصاب هنا وهناك، نعم يرى ويسمع الكثير الكثير مما يهوِّن عليه ــ إلى جانب المواجهة والبواعث النفسية ومنها طلب الشهادة في سبيل الله ــ أن يستقبل الموت بحرارة وقبول؛ ومعاذ الله أن يكون هذا تهويناً من شأن القتال في سبيل الله والمقاتلين، ولكنه وضع الأمر في نصابه في استجابة إسماعيل عليه السلام لما طلب منه.

ولقد كان صادقاً فيما وعد به أباه؛ فلم يتلكأ ولم يستأخر، ومن أجل ذلك وصفه الله تعالى بصدق الوعد ــ وإن كانت وقائع هذه الصورة كثيرة في سلوكه ــ فقال تعالى في سورة مريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤] ألا ما أسعد الشباب وأسعد الأمة بهم حين يتحلّون بأخلاق الإيمان والرجولة، وتسمو بهم عزائمهم إلى أن يكونوا جنوداً بل قادة عملية التغيير إلى ماهو الأفضل في أوقات عصيبة عزّ فيها الرجال على الساحة الكثير من أشباه الرجال!!.

الشباب.. والبناء في قصة إسماعيل «٣»

إن الذي رأينا من خلال المعلم القرآني في سورة «الصافات» من قصة إبراهيم مع ولده إسماعيل عليهما السلام، وما كان من إسماعيل في مسارعته إلى الاستجابة لأبيه، كما سارع إبراهيم إلى طاعة ربه فيما أمر.. يقودنا إلى أن ما صدر عن إسماعيل ـ بخاصة ـ وهو في مقتبل الشباب، ذو دلالة عظيمة على أن هذه الثمرة من طاعته لله وطاعته لأبيه ومعاونة أبيه على طاعة الله، متجاوزاً كل عقبات الاستمساك بالحياة، وما تفرضه غريزة حب البقاء، إنما كانت ـ مع توفيق الله تعالى ـ نتيجة مجموعة من العناصر الناعلة المؤثرة، من تنمية للعقيدة والفضائل، وتطويع للنفس على مستلزماتها ومقتضياتها، وتربية على الطاعة وكل ما فيه مرضاة الله تعالى، وبناء متكامل في العقل والقلب والمشاعر، ولّد سلامة الإدراك، ونور البصيرة، حتى كان حبُّ الله تعالى أقوى من كل حبٍّ لما في هذه الدار.

وهكذا يمكن القول: بأن هنالك تكاملاً في التكوين سما بإسماعيل ـ بتوفيق الله وعونه ـ إلى أن تكون استجابته لما هو بر بأبيه ـ وهو رسول يوحى إليه ـ أعظمُ وأكبرُ في نفسه من أي ميل أو رغبة أو رهبة.

أجل لقد كان إيمان إسماعيل عليه السلام أقوى من الخوف، وطاعة أبيه التي هي من طاعة الله أعظمُ من الموت امتثالاً لأمر الله عز وجل.

ورجال التضحية هؤلاء هم الذين يحملون عبء صناعة التاريخ المشرِّف، ويحملون الإنسان ـ أياً كان هذا الإنسان وفي أي عصر وجد ـ على أن يذكر صنيعهم العظيم؛ لأن عطاءهم كان أكبر حجماً وأعمق أثراً مما قد توهم النظرة العجلى إلى واقعة أين تجد مثيلها في حياة بني الإنسان.

وأنت واجد من خلال ما حصل: أن الشباب بقوته وعنفوانه كان رافد نصيحة وسموٍ فوق كل المثبطات والمعوقات. وهذا يعني ـ أول ما يعني ـ أن طاقة الشباب إنما تعطي عطاءها الذاتيَّ إذا أحسن وضعها في المناخ الطبيعي، وهيئ لها أن تجري في قنوات، لا تصطدم مع الفطرة، ولا تجفو الحرية وإنسانية الإنسان، كما لا تتجاهَلُ معها طبيعة المرحلة التي يمر بها واحدٌ من الشباب.

وفي الوقت نفسه لا تنمي جانباً على حساب جانب آخر مما يحدث نوعاً من الترهل المضني في هذا الجانب وهزالاً أسوأ منه في الجانب ذاك.

إن النموذج العظيم الذي رأيناه في إسماعيل عليه السلام: تضحيةً، وثباتاً، وتفانياً في الطاعة وضبط النفس، مضموماً إلى ذلك قوة جسمية وقدرة على الرمي، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما أخرج البخاري من رواية مسلم بن الأكوع رضي الله عنه: «**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً**» كل أولئك جدير بأن يحفز الرواد المؤتمنين على التربية هنا وهناك في حياة الأمة، أن يحسنوا رحلتهم مع الشباب، كيما يمكنوهم ـ وقد تكاملت بنية الواحد منهم في شتى الجوانب ـ من العطاء.

وإنما يكون ذلك ـ بعد غرس الإيمان وعوامل نموه ـ بمراعاة مراحل العمر، وأن يكون البناء مبكراً مرحلةً تسلم إلى مرحلة، بمنهجية بعيدة عن الثغرات، أو تجاهل ما لا يصح تجاهله في سن الشباب.

وانظر إلى حكمة إبراهيم عليه السلام في ذلك؛ لقد كان، وهو يعالج الأمر الجلل سواء بالنسبة إليه أو بالنسبة لولده ضمن الظروف والملابسات المحيطة.. لقد كان عنوان المربي الحصيف الحكيم سعةَ أفق ونور بصيرة... أجل وهو يعالج ذلك الأمر مع خطورته وأهميته ودقة الحساسية فيه؛ حين لم يجنح إلى إبلاغ ولده الذي بلغ معه السعي، الأمر الجازم عن الله وكفى، بل راعى حجم القضية وكل ما قد يحيط بها فقال:﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢].

إنه الاقتران العظيم بين إبلاغ الرؤيا ـ ورؤيا الأنبياء وحي ـ وبين منح إسماعيل فرصة هي في موضعها تتناسب كل التناسب مع إنسانيته وشبابه ومشاعره في تلك المرحلة، كيما يكون ـ في ظل حريته وإنسانيته ـ شريكاً أيضاً في طريقة التفكير ـ وفق إعداد سليم ـ لتنفيذ أمر اللّه.

وهكذا يكون واضحاً من الناحية المنهجية في التربية والإعداد: أن من الحكمة والحصافة بمكان: أن يخاطب الشباب ـ ضمن مرحلة السن والروافد والملابسات ـ على أنهم شباب؛ ولذلك له ماله من الحقوق ـ مع ما يقع عليه من واجبات ـ، لا معالجتهم على أنهم في مرحلة من السن والأحاسيس والمشاعر وطريقة التفكير والبواعث، كأنهم في سن من يخاطبهم من الكبار ذوي التجارب، حين يكون الواحد منهم قد تجاوز مرحلة الشباب، وأثقلت حياته بتلك التجارب، ومهدئات الثورة والفورة.

وفي حياة إسماعيل عليه السلام ما يوحي بالتكامل في التربية، إيماناً وعقلاً وقلباً ومشاعر وأحاسيس.

وإنها لنظرات نجدها غاية في الوضوح والدقة في منهج التربية القرآنية كما توحي به معالم الكتاب العزيز.

وإذا كان لا بد من متابعة النظر في قصته، المنوِّرة المعلِّمة، لما تزخر به من عبر وعظات: إن علينا أن نقرأ هذا التاريخ فنحسنَ قراءته، ونعيَ وقائعه بإدراك وعمق بالغين، كيما يكون ذلك رافداً متميزاً في تأثيره وفاعليته على طريق نبتغي من ورائها أن تكون عنوان يقظة مرجوَّة وانطلاق.

وفي هذا التاريخ شبابٌ أسهموا في بناء حضارتنا أيّما إسهام، وبناء محكم لأولئك الشباب ـ ذكورهم وإناثهم ـ وتنمية خيِّرة مكينة للطاقات النافعة المنتجة في الشباب، وتلكم من العبر التي تضعها أمانةً في الأعناق: معالم القرآن الكريم.

الشباب.. والبناء

الإيمان والفضل الإلهي في قصة إسماعيل

«٤»

في واحد من المعالم القرآنية التي كشفت عن مكارم بعض الأنبياء عليهم السلام، رأينا في الذبيح إسماعيل عليه السلام الشابُّ الذي ابتلي بأن يقدم روحه لله طاعة لأبيه إبراهيم عليه السلام الذي أُمر بذبحه في الرؤيا.. رأينا فيه نموذجاً قدوة للشباب في مهيَع الصِّبا حين يعتصم بالإيمان، ويتلذّذ بالطاعة، ويوظف طاقته وما آتاه اللّه من قدرة تزدان بها حيوية الشباب، في سبيل اللّه.

كما رأينا في الطريقة الحكيمة الرائعة التي سلكها إبراهيم عليه السلام مثالاً ـ هو من دلائل النبوة ـ للمربي الأمين، حين يريد أن يشدَّ الشباب إلى الواجب، وأن يندبهم إلى معالي الأمور، وصنائع الإحسان.

حيث رأى أن يسوس ولده في أمر طلبه للذبح بحكمة هي من معدن النبوة ـ كما أشرت آنفاً ـ فكان منه ما أخبر به القرآن الكريم: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] .

الأمر جدُّ خطير، والسن مبكِّرة على عتبة الشباب وريعان الصبا، وإنما الإطلالة على الفسيح من العمر تستدعي الأسلوب الحكيم.

لم يقل لولده ـ وقد بلغ معه السعي وقد بلغه هو الكبر ـ: هيا أعدّ نفسك للذبح لأنه مطلوب مني أن أذبحك، ولكن ذكَّره بأمر اللّه له بذلك من طريق الرؤيا الصادقة، وعرض عليه الأمر بالطريقة التي نرى في الآية الكريمة؛ وسرعان ما

كانت الاستجابة الصابرة المطمئنة من إسماعيل ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وأخذ إبراهيم الأهبة للذبح واضعاً إياه على الهيئة التي تصلح للشروع بتنفيذ أمر الله.

وكان من وراء ذلك الفرج بعد الشدة والخير الوفير؛ حيث أكرم الله النبيين الكريمين الوالد والولد عليهما الصلاة والسلام بالفداء، وأنَّى للكلمة الأرضية أن تتسع للإحاطة بوصف تلك اللحظات.. وسبحان المنعم المتفضل!!

ذلكم قول الله جل ثناؤه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصافات: ١٠٢-١٠٥] .

هكذا تأذنت العناية الإلهية بالفضل العظيم، إكراماً لمن واجها بالإيمان والصبر البلاء المبين؛ إذ لما خضع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لأمر الله، ووضع الوالد ولده على الهيئة التي يتمكن معها من إنفاذ أمر الله بذبحه، جاء النداء لإبراهيم أن قد فعلت المستطاع من أمر الذبح، وذلك يكفي، فهو تصديق الرؤيا، وكذلك يجزي الله المحسنين الذين يمتثلون أمره، فلا يعوقهم عائق كائناً ما كان مبعثه، ولا يحول دون إنفاذه حائل مهما بلغ من الأيد والنفاذ.

وكان الفداء بذبح عظيم، وأحسن الله ذكر خليله عليه السلام في الآخرين، ألم تر إلى قوله تعالى في سورة الصافّات نفسها: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات: ١٠٩-١١١]. أي سلام منا على إبراهيم، وكما جزيناه نجزي المحسنين. وكرر ذكر الجزاء ـ كما يقول العلماء ـ مبالغة في الثناء عليه، ثم علّل ذلك بأنه ـ عليه السلام ـ كان من أهل الرسوخ في الإيمان وصدق العبودية لله عز وجل؛ فالقاعدة التي قام عليها البناء: هي الإيمان والعبودية ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات: ١١١] واستحق بذلك إبراهيم ما نطقت به الكلمة القرآنية من الثناء.

ومما يجدر ذكره: أن شريعة الأضحية في الإسلام درس بالغ الأهمية متجدد في وجوب التضحية في سبيل الله، فهي مرتبطة أيَّما ارتباط بهذه الواقعة العظيمة، التي لم يبخل فيها الشيخ الطاعن في السن بالإقدام على ذبح ولده الوحيد الذي رزقه وقد ألمت به الشيخوخة، امتثالاً لأمر الله، كما لم يبخل الشاب ـ وهو في ريعان الصبا ـ بروحه طاعةً لأبيه التي هي من طاعة الله.

وكان فضل الله عظيماً على إبراهيم وإسماعيل بالفداء، وعلى أمتنا ـ اعتباراً بهذا الأمر الجلل الذي جرى ـ بشرعة الأضحية المباركة، فله الحمد والمنة سبحانه.

وبعد: فإن الناظر في كتاب الله يجد أن إسماعيل عليه السلام قد ذكر في غير هذا الموطن بصفتين عظيمتين هما: صدق الوعد والصبر. وكلتا الصفتين ـ كما يبدو ـ وثيق العلاقة بواقعته مع أبيه ـ.

ففي سورة «مريم» ـ كما سلفت الإشارة من قبل ـ نقرأ قول الله جل ثناؤه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤].

لقد صدق الوعد الذي وعده أباه حين قال: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وكان ذلك خلقه فيما بعد، ويحكي المفسرون أموراً عجيبة على وفائه وصدق وعده عليه السلام.

ولا يخفى أن انعكاس تربية أبيه في حياته كان انعكاساً عميقاً مؤثراً، فعل فعله في سلوكه المتميز؛ فقد وصفته الآية التي تلت بحرصه على بناء بيته بناءً يتسم بصلاح العقيدة والاستقامة على أمر الله، وهذا ما جعله مرضياً عند ربه سبحانه ذلكم قوله تعالى في سورة مريم نفسها: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾[مريم: ٥٥].

فالبناء لا بد أن يبدأ من الأسرة بعد الفرد، لأنها هي اللبنة الأولى في المجتمع؛ فبمقدار ما تُحكم الأمة البناء في هذه الخلية الأولى ـ التي عني بها القرآن وبيانُه من السنة ـ تضمن قدراً أكبر من السلامة في بنية المجتمع. وهكذا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ مؤذنة بخيريَّة هذا السلوك في أخذ نفسه وأسرته بما يرضي الله تبارك وتعالى.

أما عن الصفة الثانية ـ وهي الصبر ـ: فذلك ما آذن به قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[الأنبياء: ٨٥] فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ: واذكر لقومك قصة كل من إسماعيل بن إبراهيم، وإدريس بن شيث وذي الكفل ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾﴾ [ص: ٤٥] على خلاف بين العلماء في ذي الكفل أهو نبي أو رجل صالح كثير . فقد بدئت الآية بإسماعيل الذبيح عليه السلام وكأنها تعلن أحقية صدقه عندما قال لأبيه في شأن الذبح: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] حقاً لقد صبر على طاعة أبيه وصبر على أن يكون عوناً له على طاعة الله في ذبحه تصديقاً للرؤيا.

وما من ريب في أن معتصم الشباب من الخيبة في أنفسهم وفي حياة الأمة أن يكونوا ـ وهم المؤهلون للعطاء بطاقاتهم وإمكاناتهم ـ على الصراط السوي إيماناً واستقامة ـ فلا يحيدون عن تقوى الله وطاعته والصبر على ذلك مهما كلف الثمن. وما أروع قصة إسماعيل في هذا، والجنوح عن ذلك هو الضياع بعينه، وإذا ضاع الشباب: خسروا أنفسهم وخسرتهم الأمة، والحق والواجب متبادلان؛ فبمقدار ما نذكر من الميادين المعدَّة للشباب من أجل أن يملؤوها بالنشاط والحياة: على الأمة أن تحسن بناءهم في القلوب والعقول والأجسام. في حرص على إحلال الحرية والكرامة ومراعاة مراحل السن والتطلعات مكانها من التعامل معهم وهم النسغ الأقوى في حياة هذه الأمة.

وسلام على إسماعيل في عيون الشباب صدِّيقاً نبياً صابراً شجاعاً أنار طريق الشباب حتى تقوم الساعة، فكانت قصته أمانة في الأعناق ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[الصافات: ١٠٢].

الشباب.. والبناء قصة إسماعيل.. ورفع قواعد البيت مع أبيه

«٥»

وقفتنا الكلمة القرآنية فيما سبق: على أنه كان من إكرام الله لإسماعيل عليه السلام أن وصفه بصدق الوعد والصبر كما سجل القرآن؛ وذلك: لما كان من استسلامه لأمر الله في شأن الذبح دون أن يجد أيَّ حرج في نفسه، وما كان من هذا التسليم المطلق الذي يدل على إسلامه الوجه لله بصدق وطمأنينة بالغة.

ويظهر ذلك جلياً إذا وضعنا في الحسبان دائماً: أن ما حصل من إسماعيل عليه السلام، كان منه ـ وهو على عتبة الشباب حين بلغ السعي مع أبيه ـ.

والواقع أنا أتينا على ذكر هاتين الصفتين لارتباطهما ارتباطاً وثيقاً بواقعة الاستسلام للأمر في شأن الذبح، غير أن الله تعالى قد وصفه في آية أخرى بأنه من الأخيار، والخيرية حين تنسب إلى الإنسان من قِبل مولاه تبارك وتعالى تكون أمراً يعز على الوصف، فالله تعالى أعلم بشؤون عباده؛ فهو الذي خلقهم ويعلم ما يسرون وما يعلنون.

إسماعيل ـ وهو في ميعة الصبا ـ يسمو ويسمو بعقيدته وتوكله على الله وصبره ووفائه: حتى يكون منه ما يكون، ويظل ذلك نوراً هادياً على طريق الإنسانية... قرآناً يتلى حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فلا بدع أن يكون من كرم الله وفضله أن يجعله من الأخيار، ذلكم قوله جل ثناؤه في سورة ص: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾[ص: ٤٨] ثم قوله في شأن هؤلاء وشأن أولئك المكرمين ممن سبق ذكرهم من الأنبياء في السورة نفسها، ثناءً عليهم وبياناً لأقدارهم

العظيمة، ولما أعد لهم في الآخرة: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾[ص: ٤٩-٥٤].

وفي معرض تفضيل النبي على الناس من أهل زمانه جاء ذكر إسماعيل في قول الله جل وعز: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾[الأنعام: ٨٦].

ترى! إلى أي حد نما حبُّ الخير وصالح العمل عند إسماعيل حتى جعله الله من الأخيار ومن المفضلين على الناس من أهل زمانه!!

غير أن هذا كله لا يصرفنا عن قضية هي على غاية الأهمية في حياة إسماعيل عليه السلام، وهذا ـ والله أعلم ـ مرتبط أيما ارتباط بواقعة﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ تلك القضية هي مشاركته أباه إبراهيم عليهما السلام في رفع قواعد الكعبة، يا للسواعد الكريمة الأمينة ترفع قواعد البيت المعظَّم الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً، وكان أول بيت وضع للناس، وما زال ولن يزال مهوى الأفئدة وقبلة أهل التوحيد، والمثابة التي تسمو على كل مثابة في الأرض. ذلكم قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

وليس أمراً هيناً في تاريخ البشرية أن يعهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل في تطهير هذا البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود، دون أن يكون ذلك محدوداً بزمان؛ فهو أمر يسعد به كل أولئك الذين استجابوا لأذان إبراهيم، حاجين ومعتمرين حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذا العهد جاء ذكره في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥] .

ومما يستوقف المتدبر لآيات الله: أن ما جاء في شأن رفع قواعد البيت: دلَّ بأوضح عبارة أن عملية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لم تكن عملية رفع حجر من بعده حجر ليقوم الجدار وحسب، ولكنها كانت عمليةً تمثِّل إعلان التوحيد في دنيا الناس، وأن إسلام الوجه لله عز وجل هو الوضع الطبيعي الذي يجب أن يكون في علاقة المخلوق بخالقه جل وعلا.

من أجل ذلك رأينا النبيين الكريمين عليهما السلام يرفعان القواعد ويدعوان الله بالقبول، ثم يفيضان بهذا الدعاء لهما ولمن يأتي بعدهما من الذرية عبر القرون على محور هو الإسلام الذي يعني التوحيد الخالص، وإفراد الله بالعبودية وإسلام الوجه له سبحانه فيما يأمر وفيما ينهى، وكما الرضى بأمره في كل شأن من شؤون العباد صغر أم كبر، ذلكم قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨].

ألا إنها دلالة مشرقة في تاريخ الإنسان أن يكون من إسماعيل ما يكون استسلاماً لأمر الله، وتتكامل القضية فنرى أن الله أشرك الشاب مع أبيه الخليل في حدث هام هو من أعظم المعالم المشرقة الهادية في دنيا الناس؛ وما أجمل أن يعي شبابنا حقيقة العزيمة تلو العزيمة وأن فضل الله على الناس كائن بلا حدود.



الشباب.. والبناء..

إسماعيل.. ورفع قواعد البيت

«٦»

جرت الإشارة في كلمات قريبات إلى أن ما قام به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من رفع قواعد البيت الحرام، لم يكن رفع حجر فوق آخر ليقوم البناء وحسب، ولكن العملية كانت إعلاناً عن كلمة التوحيد في الناس، وإيذاناً عميقاً لا يحتمل اللبس، ولا يحدُّه زمان: بأن طبيعة العلاقة بين الخالق جل وعلا وعباده: يجب أن تقوم على إسلام الوجه له سبحانه والانقياد له في كل ما يأمر وينهى.

ولنترك للآيات الكريمة تخط لنا معلم الضياء في هذه القضية الكبرى التي أكرم الله بها الشاب إسماعيل عليه السلام بأن جعله شريك والده الخليل إبراهيم عليه السلام فيها، ذلكم قوله جلّت حكمته في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧] .

فإن الذي يُهم العاملين الصادقين: أن يقع عملهم موقع القبول عند الله عز وجل وإنما يتقبل الله من المتقين. فإبراهيم وإسماعيل يرفعان قواعد البيت، ويدعوان هذا الدعاء المشترك ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. إنه سبحانه يسمع دعاءهم ومناجاتهم، وهو ـ جل شأنه ـ العليم بذات الصدور. وقد بارك الله عملهما وأكرمهما بالقبول ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[آل عمران: ٩٦-٩٧]. ويأتي المطلب الكبير الكبير ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾[البقرة: ١٢٨] .

إنهما يدعوان الله بأن يجعلهما منقادين له في أمره ونهيه، مخلصين له الوجهة والدين، لا يوجهان وجههما إلا إليه، مستسلمين دائماً لما يريد سبحانه..

ولا يقتصر أمر هذا المطلب عليهما، بل يسألان المولى أن يجعل ذريتهما أيضاً أمةً مسلمة له. واستجاب الله دعاءهما وكانت أمة محمد عليه الصلاة والسلام.

وليس من مكرور القول أن نذكّر هنا بأن الإسلام بمعناه العام ـ وهو الانقياد لله تبارك وتعالى وإسلام الوجه إليه ـ هو عماد دعوة الأنبياء عليهم السلام والقدر المشترك بينها، وهو صلب القضية طبعاً في ديننا الحنيف.

ولكن الإسلام بمعناه الخاص: هو الرسالة التي أوحي بها إلى نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بما فيها من شريعة نسخت ما قبلها من الشرائع، وهي الواجبة الاتباع، والإسلام بهذا المعنى الخاص هو المقصود بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة:٣] وقوله جل وعلا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[آل عمران: ٨٥] فهو الدين الذي ارتضاه لعباده وتعبدهم به وعليهم جميعهم أن يعتنقوه ويتوجهوا إلى الله بشعائره وأحكامه؛ ولذلك عندما دعا رسول الله ﷺ نصارى نجران إلى الإسلام ولم يستجيبوا وجادلوا فيما لا طائل تحته: أُمر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أن يدعوهم إلى المباهلة، وذلكم قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[آل عمران: ٦٤].

هذا وعلى أساسٍ من إسلام الوجه لله كان من دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾[البقرة: ١٢٨] أي علمنا شعائر عبادتك وكيف نحج ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٢٨].

وكل من أسلم وجهه لله على هذه الشاكلة: لا بد أن يكون مسلماً لأنه سيصدِّق بوحي الله إلى نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه وأن الدين عند الله الإسلام، وإلا كان قوله مجرد دعوى.

ومما لا ريب فيه أن الانقياد لأوامر الله وإخلاص الوجهة له: من أهم عناصر البناء على صعيد الفرد والجماعة، ويظل هذا الاستسلام لأمر الله ينمو وينمو، حتى يأتي صاحبه بالعجب العجاب.

إن العوائق التي تشغل اليوم عن صعود المرتقى الصعب، وكثيراً ما تقف دون شبابنا ودون تحقيق ما يراد، ليس من سبيل لزحزحتها إلا إعادة النظر في البناء والتكوين، ليكون حقاً من هذا المنطلق.. الأمر الذي يسمح بتنمية الطاقات الخيرة التي تنهزم أمامها نوازع الخلود إلى الراحة والركون إلى الانحراف وأهله الهدامين.

وإذا قلنا بإسلام الوجه لله منطلقاً في بناء الإنسان وتنمية مواهبه وطاقاته، فذلك أمر يطول الشباب، كما يطول من يعانون أمر الشباب، لتسير الواجبات والحقوق تحت مظلة هذا الإسلام العظيم.

ولقد رأينا في حياة إسماعيل عليه السلام بناءً وإعداداً وتنميةً للقدرة المتصاعدة التي جعلته عنصر فعالية وإيجابية من طريق المشاركة العظيمة في بناء البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود من أنحاء المعمورة؛ وذلك.. من طريق عظيمة الدلالة في حياة البشرية، طريق الإعلان الإنساني العام أن على البشرية أن تنطلق من نقطة إسلام الوجه لله. ألا ما أجمل وأكرم أن نربي الشباب على الإسلام ونزيل العقبات من طريقهم، وأن نضعهم على الطريق المتسقة مع السن والتطلعات وما تهفو إليه النفوس من الحرية والوجود الذاتي بإيجابية على طريق الواجب والمرتقى الصعب.

البناء

الحوار.. وعمل العقل

«١»

على هامش القضية التي جرى الإلماح إليها من قريب: تشدنا واقعة عملية أخرى إلى ساحة الحوار الفكري تعد من المؤشرات الضخمة التي أشرقت بها آي الكتاب الحكيم على طريق الإنسان.

تلك هي واقعة إبراهيم عليه السلام مع قومه عندما دعاهم إلى نبذ تماثيل يعكفون على عبادتها من دون الله، وهي من صنع أيديهم، والتوجه إلى فاطر السماوات والأرض خالق الإنسان والكون: بالعبادة والإنابة.

ولقد كانت حجته عليهم أكبر وأقوى من أن يقارعوها أو يفلتوا من سلطانها، وهي حجة آتاه الله إياها عليهم، لم يلجأ معها إلى أيٍّ من سراديب الفلسفة أو التعقيد، ولكنه ردَّهم بها ـ من خلال الحوار ـ إلى أن يُعملوا عقولهم، ويتجردوا من سلطان الهوى، والتصورات المستحكمة، الأمر الذي حملهم على شيء من الصحوة، وأن حقاً ما يقول إبراهيم ـ وذلك أول الأمر ـ.

ولكن غلبت عليهم شِقوتهم؛ وبدل أن يراجعوا أنفسهم، ويحتكموا إلى الحق: ركبوا رؤوسهم ولجأوا إلى الإرهاب ـ مسكتين صوت العقل والإنصاف ـ ومقابلة دعوة إبراهيم عليه السلام وحجته الدامغة عليهم بعمدية إحراقه في النار ـ وهذا فعل الطغاة في كل عصر، على اختلاف في الأسلوب والسلاح البديل عن التعقل والحوار المنصف ـ.

وهكذا تسوِّل للطغاة الظالمين المبطلين أهلِ الضلالة والانحراف: أنفسُهم وشياطينهم؛ المصلح يدعوهم إلى الخير والهدى، ويقيم الدليل الناصع على ما يقول، وهم يرون أقرب طريق إلى الإقناع، وأنجح وسيلة لانتصارهم بباطلهم على فكره وما يدعو إليه: أن يقضوا عليه، مستبدلين ظلمهم وجبروتهم بالحوار المنصف وحرية التعبير عن الحق، ويا بئس ما يصنعون.

وهذه آيات بينات من سورة الأنبياء: تصف أول ما تصف إبراهيم عليه السلام بالرشد؛ وذلك ـ والله أعلم ـ لما أنه وقف الوقفة الراشدة في مواجهة أولئك الذين عطَّلوا عقولهم، ولم يعيروا سمعاً لدعوة الهدى، فعبدوا أصناماً لا تضر ولا تنفع، ولا تغني عنهم شيئاً، حتى كأنهم لم يبلغوا سنَّ الرشد؛ وأين الرشد الحقيقي فيما هم فيه من تنحية العقل ومجافاة الفطرة؟

يقول الله تعالى في السورة المشارة إليها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٢].

إن طبيعة الدعوة التي تهدف إلى بناء الإنسان على أرض من الحقيقة، وترتفق بالعقل ليكون في عونها على ما تريد: تواجه الإنسان ـ بوصفه إنساناً ـ بصرف النظر عن أية علاقة نسبية أو قرابة.

ولننظر إلى الحكمة على ساحة التجرد للحقيقة في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ بدأ بأبيه ثم ثنى بقومه ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].طبعاً هو لا يسأل عن جنسها وأنها من معدن أو حجر أو خشب؟ ولكنه يستثير عقولهم؛ ما الذي أهَّل هذه التماثيل التي تضعونها بأيديكم لأن تكون في موضع التجلَّة والتعظيم ـ بل موضع التعبد ـ وهي نتاج أيديكم، فإذا بكم تظلون لها عاكفين؟

والجواب الذي دلَّ على أنهم هم في واد، وأن العمل العقلي في واد: قولهم كما نطقت الآية الكريمة:﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴿٥٣﴾﴾[الأنبياء: ٥٣].

إنه التقليد المعطِّل للعقول، الهابط بكرامة الإنسان إلى الحضيض؛ حسبهم أنهم وجدوا آباءهم يعبدون تلك الأصنام؛ حتى يكون ذلك مسوِّغاً لأن يعبدوها، بل يوجب عليهم عبادتها، معرضين عن أي من دواعي التفكير أو البحث عما وراء الظواهر.

وهكذا تتعرى المشكلة، ويتضح أنها مشكلة إهمال نعمة كبرى حباها الله الإنسان كي يفرق فيها بين الخير والشر، وهي العقل.

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يريد منهم أن يرتفعوا عن هذه الحمأة التي أغرقتهم بأوحالها، فيحرروا العقل من إسار التقليد المتمثل في قولهم: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾، وفي الوقت نفسه يضمن أن يبدأ العقل مسيرته فيهم، من الإيمان بالله الذي فطر السماوات والأرض وما بينهما، والتوجه إليه بالعبادة وإخلاص الدين له؛ لا إلى تماثيل هي جمادات تحت سلطان عابدها، ولا تملك لأنفسها ضراً ولا نفعاً، فضلاً عن أن تملك ذلك للآخرين.

ولم يبرح الرسول المؤتمن على الهداية ساحة النصح لقومه، فكشف لهم عما يعتقد أنه الحق، وأن ما هم فيه من العكوف لتلك التماثيل، جرياً على ما كان عليه آباؤهم: هو الضلال المبين بعينه، قال لهم ذلك بكل وضوح، وذلك مقتضى النصح؛ ذلكم قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء: ٥٤]. أجل كل من الآباء والأبناء الذين يقلدونهم في ضلال مبين؛ إذ المعنى: كنتم وما زلتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين؛ لأن «كان» هنا مقطوعة عن المضي؛ فما داموا على هذا الصنيع فهم في هذا الضلال شأن آبائهم الذين ماتوا على ذلك.

هكذا يخبر القرآن الكريم عن الطريق التي سلكها إبراهيم مع قومه في صرفهم عما هو باطل وعمًى وتوجيههم إلى ما هو حق ونور؛ إنه ـ وهو يسفّه التقليد الذي يهبط بالإنسان إلى مستوى يعطل طاقته العقلية ـ كان يرسم خطاً مستنيراً على طريق الفكر الإنساني.

وما حفل القرآن الكريم بهذه الأخبار وأمثالها ـ فيما حفل به من طرائق الدعوة ـ إلا ليكون ذلك نبراساً للأمة المحمدية وشارة من شارات المنهج العظيم الذي أحكم بناء العلاقة بين الإيمان والعقل المؤهل لفهم نصوص الوحي وتبيُّن أبعاد الهداية فيها، ليحمل الإنسان حملاً إلى حيث يبرهن على استحقاقه التكريم بتحقيق وجوده

الذاتي من طريق رحلة العقل مع آيات اللّه الدالة على وجوده في الآفاق وفي الأنفس، وتنمية الإدراك على هذه الساحة؛ قوةً فاعلة تفقه نصوص الوحي، وتعين على التدبر والتفكر والنظر والتنهيج، وبذلك تمنح صاحبها القدرة على أن يكون شيئاً مذكوراً ـ كما أراد اللّه ـ حين تتلفت الأمة يمنة ويسرةً، فلا تجد إلا أولئك الرجال الذين سلمت لهم تنمية الفكر السليم والتصور الواعي، وانطلقوا بكامل طاقاتهم في ميادين الإبداع والتغيير إلى ما هو الأفضل في ظل شرع اللّه القويم، وإعمال العقل حيث يجب أن يعمل، ويفيد من التبصُّر في آيات اللّه فيما خلق وكوّن وأحكم. وطوبى لمن علم فعمل وذُكِّر فتذكر، واللّه الهادي إلى سواء السبيل.



إبراهيم وبناء شخصية الإنسان

«٢»

هذا الإنسان الذي كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً؛ حين يعرض عن الحق ويهمل العقل الذي أكرمه الله به، ويرضى لنفسه الهبوط إلى ما دون ذلك: يرتد إلى ما هو أشبه بالمسخ في تفكيره، ونظره إلى الأمور، كائناً ما كان شأنها في عاجله وآجله.

أرأيت إلى قوم إبراهيم عليه السلام، بعد أن فجأهم بالحقيقة آخر المطاف، وبيّن لهم بالحجة الدامغة، أنهم في عبادتهم للأصنام في ضلال مبين، على شاكلة آبائهم الذين ـ بما هم عليه من ذلك ـ في ضلال مبين أيضاً؛ لما أنهم يتدحرجون ـ بعماية ـ على هذه الطريق المنكوسة والعياذ بالله!!

ثم: ألم تر إلى ما كان منهم؟ لقد كان منهم أن استنكروا ما قاله ـ عليه السلام ـ وسألوه سؤال استنكار محذرين منذرين: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾ وذلك ماجاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾[الأنبياء: ٥٤-٥٥].

هكذا يجادلونه بهذا العبث في إهمال لأبسط قواعد الحوار، وما يقضي به العقل السليم من النظر في كلام المخالف واحترام الدليل.

نعم ألا تستوقفك هذه الكلمات من قولهم: إن هذا ثمرة الخضوع لتزيينات الشيطان، وما يزخرف من العبودية للهوى وتقليد الآباء والأجداد بلا نظر أو تمحيص.

سبحان الله! يكلمهم الناصح الأمين من أرفع مستوى في قضية أصيلة من قضايا الإنسان تتعلق بمعتقده، وترتبط أيّما ارتباط بوجوده وإنسانيته؛ لأنه إذا تخلى عن العبودية لله: فقد تخلى عن حقيقة وجوده الإنساني، وحريته الحقيقية، وناهض

فطرته التي فطره الله عليها... يكلمهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من هذا المستوى، فيقابلونه بهذا التساؤل المقيت الذي يجعل الاهتمامات الكبيرة على الصعيد العام، نوعاً من العبث الذي عبروا عنه باللعب، دون شيء من الحياء!!

ونحن نرى في دنيا الواقع اليوم: أن كل أولئك الذين يحلو لهم أن يتشدقوا بالإلحاد والكفر بمن خلقهم وخلق الكائنات كلها، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة: يقعون في شرك العبودية لغيره من الأشخاص، أو النفس، أو المال، أو أي غرض من أغراض الدنيا علا أو سفل! بل قد دخلت هذه العبودية لغير الله ـ مع ما يكتنفها مما ذكرنا ـ في صلب تنظيمات منمقة مسؤولة، ولكن تحت عناوين أخرى في ظل مبادئ تنكر وجود الله. وهل بعد هذا الضياع للإنسان، وكرامته وحريته من ضياع؟ بل وهل بعد هذا العدوان على أصل الفطرة عنده من عدوان؟!

أما إبراهيم عليه السلام: في تعبير عن البنية الفكرية السليمة، والنظرة الإنسانية التي تصف ـ فعلاً ـ صورة تكريم الله للإنسان، والمنهج الذي يضع العقل موضعه ليعمل هو، وينهزم التقليد الأعمى الموروث... أما إبراهيم: فقد نصح لقومه، ووضع الحقيقة المعقولة المقبولة المستندة إلى الدليل الناصع بين أيديهم لو كانوا يعقلون. وقد جاء التعبير عن ذلك كله بقوله جل شأنه: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾[الأنبياء: ٥٦].

ويلاحظ أن خليل الرحمن عليه السلام طرح الحقيقة ـ كما أسلفت ـ مصحوبةً بدليلها؛ بل ربكم المستحق للعبادة الذي لا إله غيره: وهو فاطر السماوات والأرض الذي فطرهن خلقاً سوياً لا عوج فيه ولا أمْت.

فخالق الكون بما فيه من إنسان وسماوات وأرضين وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء.. هو ـ سبحانه ـ الجدير بأن يُعبد وتعنو الوجوه لعظمته، وتعفَّر الحياة بالسجود بين يديه.

وانظر إلى اعتزاز المؤمن بربه، وبالحق الذي يدعو إليه؛ يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي وأنا أشهد أن لا إله غيره ولا ربَّ سواه.

إن كل أولئك الذين أوصدوا دون عقولهم أبواب التدبر، وأغلقوا ـ عامدين ـ منافذ الفهم والتفكر: غير مقبولي الشهادة في مثل هاتيك القضية الكبرى، ولكن مقبول الشهادة: هو الإنسان السويُّ الذي أزال الغشاوة عن عينيه، وترك للفطرة التي فطر الله الناس عليها أن تستجيب وتعمل، وأطلق العنان بدقة وتجرد، فنظر واستقرأ وتدبّر.

من أجل ذلك أعلن إبراهيم في قومه على صورة لا تحتمل اللبس﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

أما بعد: فإن كل ما يدور على أرضنا في العالم الإسلامي، وما يدور في العالم من حولنا مما يتعلق بالمسلمين بشكل مباشر أو غير مباشر: يستدعي بناء الشخصية المتوازنة التي تتحسَّس الواقع من خلال العقيدة ومنهج التفكير السليم، وتنطلق بثبات وطمأنينة في مختلف آفاق العمل البنَّاء؛ لأن الشخصية القلقة التي ضاع صاحبها، وهوت إلى القاع بإعراضه عن العقيدة السليمة عقيدة الفطرة. وإدباره عما يقول به العقل السليم: هو عبء على الأمة ولون من ألوان الركام المؤذي على الطريق.

وإن إبراهيم فيما شهد للحقيقة، وفيما حكم بالضلال على المستهترين بعقولهم، المستهينين بفطرهم: قد رشَّح لمسيرة الإنسان، من يكون الكفء من بني الإنسان.

وإن من إعجاز القرآن: ما أغنى ـ بحمد الله ـ البشرية بتجربة القرون التي عاناها الإنسان، وحُقَّ لأمة غنيت هذا الغناء: أن تنمي فاعليتها الذاتية وتستأنف مسيرة الحق المضيَّع من جديد.



الرسول الشاب.. والبناء
الحوار المجدي.. بين إبراهيم وقومه
«٣»

تساؤلات تطرح نفسها بعد الذي رأينا من إشراقات المعلم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، لعل من أبرزها: هل كان ما جرى من الحوار بينه وبينهم، وما كان من شجاعته في قولة الحق، واستدلاله بموضوعية فذَّة على ما قال، ومكاشفتهم بما هم عليه من الضلال، صنيع آبائهم في عبادة الأصنام... هل كان ذلك خاتمة المطاف؟

والجواب: لا، لم يكن ذلك خاتمة المطاف؛ بل إن إبراهيم صلوات الله عليه وجد من إصرارهم وعنادهم: ما حمله على أن يُشفع القول بالفعل، ويضيف إلى الحوار والحجة بإثارة العقل ليعمل عمله.. تحطيم تلك الأصنام بالأسلوب الذي يستطيع معه إزاحة لركيزة منكرة من ركائز الشرك في الأرض، ومجاهرة الخالق الحكيم بالعداوة، واتخاذ الأضداد والأنداد.

ولأن عبادة الأصنام عدوان على الإنسان في عقله وإنسانيته وفطرته، وإعلان صارخ بأن الإنسان قد ضلَّ طريقه السويَّ فانتكس أسوأ انتكاس؛ وأنى لمخلوق كهذا: أن يؤدي رسالته في الحياة وهو معطَّل عن العطاء والبناء في عبادته لصنم ـ كثيراً ما يصنعه بيده ـ لا يضر ولا ينفع ولا يغني عنه شيئا؟!

وهكذا توعَّد إبراهيم بالكيد لأصنام قومه، وأنفذ فيهم وعيده، فجعلهم حطاماً؛ حيث كسَّرها كلها إلا الصنم الكبير فيها. لغرض يعين على نصرة الحق. نقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٥٧-٥٨].

ذكروا ـ كما يقول ابن كثير ـ أنه بعد أن ترك الصنم الكبير سالماً وضع في يده القدوم، لعل القوم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، فكسرها.!!

لقد كانت عقيدة التوحيد، وإزالة ركام الوثنية من طريق الإنسان: أكبر في نفس الخليل إبراهيم من أن يبخل عليها بالثمن ولو كان إزهاق روحه. وهكذا يفعل الكبار الذين يذعن لصنيعهم التاريخ، ويأبى عليهم الإيمان إلا أن يدوروا مع الحق حيث دار مهما كلفهم ذلك من ثمن!!

ولا ننسى أن إبراهيم كان ـ وهو يتحمل عبء الصراع المرير العاتي بين الحق والباطل ـ شاباً في مقتبل العمر، والشباب ريحانة الحياة، ونافذة تطل على زهرة الدنيا بجمالها وما فيها من سحر المتعة والزينة وحب البقاء.. ولكن شيئاً في نفس إبراهيم الشاب كان أكبر من كل ما في الدنيا من زخرف ومتاع! لقد صنع ما صنع بتلك الأوثان وهو يعلم أن من بعض ما قد يجرُّ عليه هذا الإنكار الحازم للمنكر أن تزهق روحه على الطريقة التي يشاؤها الهوى لأولئك الطغام التائهين على دروب الغفلة العاتية والضياع المقيت!!

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾[الأنبياء: ٥٩] آلهة تعجز كلَّ العجز عن الدفاع عن نفسها!! أولاً يكفي ذلك لإيقاظ العقول من سباتها؟ ولكن القوم في غفلتهم سادرون ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فالذي حطَّم الآلهة التي هم لها عاكفون: هو في رأيهم ـ بصيغة الجزم والتوكيد ـ من الظالمين في صنيعه هذا.

وزحفت المخاطر أكثر وأكثر على الرسول الذي يواجه التحديات بإيمان ورباطة جأش؛ فالذين سمعوه يقول:﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ كشفوا عن اسمه أمام القوم ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾[الأنبياء: ٦٠].

ولكلمة «فتىً» هنا إيحاءاتها فيما لاحظ من سمعوه يقسم بالله على كيد الأصنام: من حزم وصدق عزيمة وقوة فاعلة، لا يعوزها الإقدام والتنفيذ!

وهنيئاً لشبابنا، وهنيئاً للأمة هؤلاء الشباب، حين يصلون أسبابهم بأسباب هؤلاء الرسل الشباب عليهم السلام؛ إذن لهانَ عليهم البذل والإقدام، حيث يلجأ ضعاف النفوس إلى الإحجام، ولكانوا بإيمانهم وشجاعتهم الأدبية: أقدر على تخطي العقبات من داخل النفس ومن خارجها، يوم تملأ العقبات طريق الشاب المؤمن المصدِّق، بما فيها من حلاوة ومرارة، ومن رغَب ورهَب.

وأمر بإبراهيم فأُحضر على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم. ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[الأنبياء: ٦١].

وعلى عكس ما يتصوَّر من رهبة المتهم التي تبعث على القلق المزعج والاضطراب الذي قد يعسر وصفه في مثل هذه الحال؟! التهمة بالغة الخطورة!! انقضاض على الآلهة، وجعلها جذاذاً إلا كبيراً لهم، وعبّاد لهذه الآلهة عاكفون عليها: أعمت بصائرهم الغفلة، والتهبت نفوسهم بنار الحقد والانتقام. وما على سدنة الآلهة المنتفعين المعطَّل إدراكهم تحت وطأة هذا الانتفاع، إلا أن يشيروا إلى القطيع التائه في ظلمات الجهالة والتقليد الأعمى.. حتى ينهال على إبراهيم بأسباب الموت.

ولكن إبراهيم عليه السلام كان ـ بحضور قلبه وصدق توكله على الله ـ في معزل عن هذا كله؛ فهو في أعماق نفسه ـ وقد اتجه بشراشره إلى الله ـ همُّه أن تنتصر دعوته، وأن ترتفع لعقيدة التوحيد راية!

لقد رآها مناسبة عظيمة، وغنيمة تعز على الوصف: أن تتاح له فرصة الدعوة المستوفية شرائطها إلى الله، وإقامة الحجة القاطعة على هؤلاء العاكفين بغفلة وعماية على التماثيل في ملأ من الناس وعلى رؤوس الأشهاد، دون رادع من داخل نفوسهم أو من خارجها.

أما ما يكون وراء ذلك: فالرسول الشاب المستعلي بإيمانه واستعذابه الموت في سبيل الله.. قد أخلص دينه وأسلم وجهه لرب العالمين حنيفاً مسلماً جافياً للشرك والمشركين، وليكن بعد ذلك ما يكون.

وإلى أن نلتقي في ظل الكلمات الهاديات النيرات في كتاب الله على مزيد من الاستنارة بهدي المعلم القرآني فيها: أود التذكير بأن البناء المتوازن السليم قد يكلف الكثير من الجهد والوقت وغيرهما، ولكن ثمراته أكثر وأوفر.

وقد تكون تنمية طاقات الشباب الخيِّرة المكينة ـ بمنهجية وتساوق مع سنن الله ـ على هدي سير هؤلاء العظماء حقاً.. عملية شاقة، ولكنها عملية صاعدة تمثل حجر الزاوية في تحقيق الآمال، وهي طريق نيِّرة نقية من الشوائب لغاية نيِّرة لا تعوزها مقومات الرفعة والكمال!

ولم يكن عبثاً أن يُعنى القرآن ـ وهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ بإبراز هذا الحدث الجلل، ودعوة الإسلام يومذاك تواجه على طريق البناء الأمثل الخليِّ عن مؤثرات الجاهلية والشتات: ما تواجه من العقبات والمكاره!! فهل نعقل أبعاد ذلك ـ والحال هي الحال ـ اليوم؟!

ومن الخير على طريق الاعتبار المجدي: أن تذكر الأمة دائماً: أن معالم الهداية في الكتاب والسنة لم تدع عذراً لمتقاعس أو متهاون، والفتن التي تطرق أبوابنا صباح مساء، لا بد لها ـ بعد الإيمان ـ من عزيمة تقهر ـ بعون الله ـ الوهن، وتقضي على أسبابه من حب الدنيا وكراهة الموت، والله المستعان.



واقعة إبراهيم مع قومه والبناء

«٤»

ما زلنا مع المنار الهادي في كتاب الله عز وجل فيما قصَّ علينا من أنباء إبراهيم عليه السلام مع قومه، وما جمعوا له، ليتبينوا ما إذا كان هو الذي فعل بآلهتهم ما رأوا آثاره، من تحطيمٍ جعلها جذاذاً متناثرة هنا وهناك. وقد أشرت من قبل ـ وهذا ما يستوقف الناقد البصير ـ إلى أن إبراهيم عليه السلام وجد اللقاء مع جمهور الناس مناسبةً تمكِّنه مرة أخرى من عرض دعوته المباركة إلى التوحيد، ونبذِ عبادة الأصنام التي كانت تماثيل صنعوها بأيديهم، الأمر الذي جعله ـ بعون الله ـ يستعلي على الخوف وما يمكن أن يلد التهديدُ والوعيدُ.

وعلى ساحة من سلامة التصور، والتصميم على المتابعة حتى النهاية: تابع الرسول الشاب رحلته مع القوم بعزم المؤمن وقوة شكيمة الداعية. وعلى أعين الناس ورؤوس الأشهاد كان اللقاء وجرى الحوار الذي نشهده في الآيتين التاليتين: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[الأنبياء: ٦٢-٦٣].

إن جَوَاب إبراهيم عليه السلام الذي بُدئ بكلمة (بل): يدل على أن إبراهيم لم يفهم من السؤال استفساراً، ولكن فهم منه طلبَ الاعتراف بأنه هو الذي جعل تلك الأصنام جذاذاً، فكأنه قال: لست أنا الفاعل، ولكن الفاعل كبيرهم هذا؛ لقد أراد إبراهيم عليه السلام في هذا الحفل العظيم أن يقيم الحجة عليهم، ويكشف عن شدة جهلهم، وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع؛ فهي لا تملك أن تجلب لنفسها النفع أو تدفع الضر؛ فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟

والواقع أنه ـ عليه السلام ـ بتوجيه الاتهام والدفاع هذه الوجهة: وضعهم في دوامة من الحيرة!! إن العقل السليم يقضي أن الذي فعل تلك الفعلة كبيرهم، وما داموا آلهة تعبَدُ وتُقَدَّمُ لها القرابينُ ويُطلَب منها جلب النفع ودفعُ الضرِّ، فاسألوهم عن هذا الذي حصل بهم إن كانوا ينطقون.

وظل﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء: ٦٣] رمز سلطان الوعي عند المؤمن في مواجهة الانحطاط الفكري والجاهلية الجهلاء.

هكذا كان الفتى إبراهيم عليه السلام، عنوان الصدقِ في تبليغ دعوته وإعلائها في الناس، عنوان الوعي، والشجاعة الفاعلة التي تزين تصرفات المؤمن؛ لما أن دعوة الحق ملكت عليه زمام نفسه.

أما القوم: ففي غمرة الحيرة، رجعوا إلى أنفسهم بشيء من الملامة والتأنيب من أجل أنهم لم يحترزوا لآلهتهم من الأذى ولم يحرسوها مما قد ينالها من الاعتداء، واعترفوا بأنهم هم الظالمون بتركهم لها مهملة لا حافظ عندها ذلكم قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[الأنبياء: ٦٤].

وإذا تأملنا الواقعة من منظور إنساني: وجدنا أن حجة إبراهيم عليه السلام لم يُفقدها قوتها أن قومه ركبوا رؤوسهم وظلوا ساردين في متاهة الضلالة والعِناد.

فالذي قاله ـ جزاه الله عن الإنسانية كل خير ـ يظل حجة قائمة على رؤوس كل أولئك الذين يُهملون عقولهم، وينظرون إلى الحقيقة بعيون الآخرين، أو من منطلق التقليد الأعمى البحت؛ إنه قال: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء: ٦٣] والواقع أنهم لا ينطقون، وقد نالهم الأذى فلم يملكوا لأنفسهم دفع الضر عنها، ولا تحويله قيد أنملة؛ فما هي النتيجة التي يفترض أن يصل إليها العقل بعد هذه المقدمات؟ ليس إلا الحكم الجازم بخبال من يعكف عابداً لتلك التماثيل.

وإذا تحوّلنا إلى واقعنا اليوم: وجدنا أن ما صنعه إبراهيم عليه السلام أنموذجاً لحراسة الحقيقة وإقامة الحجة مرحلة بعد مرحلة، ودليل واضح على أن الذين يجنحون إلى الباطل في خاتمة المطاف، إنما يجنحون إليه اتباعاً للهوى، وعناداً بارداً يهوِّن من شأن صاحبه؛ لأنه لم يرتقِ بالعقل في الوصول إلى نتائج سليمة تولِّدها مقدمات سليمة، صورة عن سلامة البناء الفكري.

ويظلُّ العناد آخذاً بخطام العاكفين على الأصنام، ويتبدى الأمر دفاعاً عن مواقف مهما كان شأنها، لا نُشداناً للحقيقة وتحرياً للصواب، فكان منهم ما نجده في قوله تعالى:﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾[الأنبياء: ٦٥] وإذا كانوا لا ينطقون فكيف يقول لهم إبراهيم: سلو هم إن كانوا ينطقون، مع علمه اليقيني أنهم والبُكْم سواء؛ لقد أقاموا عليه الحجة بزعمهم واستأنفوا نقلة جاهلة أصبحت بديلاً لصحوة عقلية تحمل على الإضراب عن الخطأ المهلك بأن يقولوا: صحيح أن من لا يستطيع النطق ولا أيَّ شيء من مؤشرات الحياة: ليس جديراً أن يُعبَد.

صلى الله وسلم وبارك على إبراهيم الذي رسم لمن يأتي بعده الطريق التي تحفظ على الإنسان عقله ووجوده بعقيدة التوحيد، وكشف عن عماية الضلالة التي يقع فريستها المعاندون، وكان صدقه في الدعوة وصبره على مستلزماتها مثلاً يحتذى.



البناء.. وواقعة إبراهيم مع قومه

«٥»

كان من هداية المعلم القرآني فيما حصل لإبراهيم عليه السلام مع قومه: أن المواجهة لم يكن فيها أي لون من ألوان التكافؤ الظاهري: فإبراهيم يقف وحده داعياً إلى الحق ذائداً عن حوضه، والقوم كلهم حزمة مجمعة على الضلال، ولكن كان من توفيق اللَّه أن سارت المجادلة بينه وبينهم على طريق جعلتهم يعترفون أن أصنامهم لا ينطقون، وأن إبراهيم يعرف ذلك، فَلِمَ يطلب منهم أن يسألوهم؟

وفي لقاء فكري ينتسب إلى العقيدة، ولا يبارحه العمل العقلي، أفاد الخليل عليه السلام من هذا الاعتراف، ووجه إليهم مقولته التي نجدها ـ وهي على غاية القوة في الاستدلال ـ في هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[الأنبياء: ٦٦-٦٧].

ولعل قائلاً يقول: لم خاطبهم إبراهيم بهذا الأسلوب ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾. وكان من الممكن أن يكون الأمر على غير هذه الشاكلة!

الواقع أن من طريقة القرآن في القصص: أنه أحياناً يطوي بعض المراحل، ويضع أيدينا على المرتكزات الأساسية في موضوع القصة أو الواقعة؛ كالذي رأينا في قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[الأنبياء: ٥٧-٥٨]. فالمرحلة بين التولي والجعل مطوية.

في ضوء هذا يمكن القول بأن صوراً كثيرة من العناد والصلف عند القوم قد طويت مع بعض المراحل ـ واللَّه أعلم ـ وهي صُوَرٌ تريك في كلمات إبراهيم غاية الغاية في الحكمة والموعظة الحسنة.

وإن كنت أرى أن خطوات الدعوة والحوار التي عرض لها القرآن الكريم: كافية

كل الكفاية في دلالتنا على الاتساق الجميل الواقع بين المقدمات والنتائج..

لقد أغرق القوم في غيهم مع الإصرار على العناد، وأعرضوا عن أن يكونوا مع الحجة التي بدت وهي كالشمس الطالعة في رابعة النهار؛ وعلى هذا: فليس كثيراً أن يقول لهم إبراهيم عليه السلام بعد كل الذي جرى:﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ و«أف» تفيد التضجر، إذ معناه أتضجَّر، أما قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أتظلون عاكفين على تماثيلكم تعبدونها مع قيام الحجة على أنها لا تنفع ولا تضُر، بل ولا تنطق ـ باعترافكم ـ فلا تعقلون هذا وترجعون إلى الحق والصواب؟! لقد حاول ـ عليه السلام ـ أن يثير فيهم ولو بقية باقية من الاحتكام إلى العقل السليم، فقال لهم: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر، ولا يقيم عليه إلا متعنت تحكمه أهواؤه الفاسدة.

أجل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾لقد أهملوا عقولهم حتى بدوا في تصرفاتهم كأنهم بلا عقول. والإسلام الذي يحرص كل الحرص على أن يحقق الإنسان الرسالة التي أنيطت به في الأرض، يرمي دائماً إلى أن تعمل الطاقة العقلية وغيرها بتناسق يمكِّن الإنسان من أداء هذه الرسالة. ومن أجل ذلك عرض علينا القصص القرآني واحدة من ثمرات إهمال العقل وتعطيل طاقته. وطلب منا الاعتبار.

والآن: ما الذي انتهى إليه الأمر بعد أن تأفف إبراهيم من قومه ومما يعبدون، وكاشفهم بأن ماهم فيه بعيد عن الصواب ودليل أنهم لا يعقلون؟

الذي انتهى إليه الأمر أنهم لجؤوا إلى أقرب طريق لنصرة وجهتهم ورأيهم، بل لنصرة آلهتهم: أن ينهوا حياة إبراهيم بالتحريق؛ نقرأ في ذلك قوله جل وعز: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾[الأنبياء: ٦٨].

يا لشؤم هذه الآلهة التي ينصرها عابدوها بتحريق المنكر لها الداعيةِ إلى الله.

ولا ييتئسنَّ من أولاهم الله نعمة الدعوة إلى سبيله، وأكرمهم بالريادة على

طريقها.. فإن أسوتهم الرسل عليهم الصلاة والسلام. لقد أُلقي إبراهيم في النار ظلماً وعدواناً، ولكن كان بقوة إيمانه: راضياً فرحاً بفضل الله أن طوَّقه كرامة أن تستهدف حياته في سبيل عقيدة التوحيد. وكان الله في عون إبراهيم عليه السلام إذ جعل النار المحرقة حسب ارتباط المسببات بالأسباب: برداً وسلاماً عليه ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾[الأنبياء: ٦٩] وكانت قدرة الله أقوى من كيدهم وما بيتوا لمن أراد إنقاذهم من وهدة الضلالة وهدايتهم إلى الصراط المستقيم ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾[الأنبياء: ٧٠].

أجل لقد ردَّ الله ما أرادوا من الكيد بإبراهيم بإحراقه في النار إلى نحورهم، فجعلهم الأخسرين بأن فوَّت عليهم إمكانية أن يحترق في النار التي هيؤوا لها من أسباب الاشتعال والالتهاب الشيء الكثير.

وهذا اللطف بإبراهيم ظهر بتخلف المسبب عن السبب في هذه الواقعة؛ فالله الذي جعل بحكمته تلازماً بين النار والاحتراق: هذا الذي جعل التلازم يتخلَّف بين النار وجسم إبراهيم عليه السلام، وسبحان من له الخلق والأمر الذي قال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

وهكذا اعتبر القرآن معاندي إبراهيم الأخسرين؛ لأن مصادرة جسم إبراهيم، وإلقاءه في النار، ليس هو النصر على صعيد العقيدة والفكر؛ فإذا ضُمَّ إلى ذلك أن النار لم تفعل شيئاً في جسمه؛ بل كانت برداً وسلاماً ـ على غير المألوف قبل خرق العادة من قبل خالقها سبحانه ـ كان هذا أدلَّ على أحقية ما يدعو إليه، وأن الله الذي فطر السماوات والأرض، ووضع للحياة والكون والإنسان قوانين تنظم مسيرتها والعلاقة بينها، وأنه القادر على خرق تلك القوانين لأنه واضعها: هو الجدير بالعبادة والإفراد بالألوهية، لا تلك الأصنام التي لم تملك دفع الضر عن أنفسها بالتحطيم والشرذمة.

وويل للذين لا ينتفعون بالآيات والدلائل، وهنيئاً لدعاة الإيمان الصابرين

الشجعان، الذين هم بحق ركائز البناء المحكم القويم في جسم الأمة، وحراس الحقيقة في المجتمع؛ فالذين لا ينتفعون بالآيات ويغلقون عقولهم فيعطلونها عن البحث والنظر: هم بحق ركام مؤذٍ على طريق الدعاة إلى الله، البناة الحقيقيين للقاعدة الصلبة في فكر الأمة، وتطلعاتها المشرقة إلى إقامة بنية حضارية سليمة، فضلاً عن سلوك السبيل التي تصل بالإنسان ـ أن لو أخلص في حمل الأمانة ـ إلى ما يسعد في الدنيا، ويحقق الأمن يوم النشور، بعيداً عن الاكتفاء بالتكديس المادي الذي لا يغني وحده من الحق شيئاً.



مع إبراهيم عليه السلام.. في طريق البناء ووضوح الرؤية.. والتساوق مع السنن

«٦»

لا يخفى على الناظر المتدبر لآيات الكتاب الكريم ما جاء في شأن إبراهيم عليه السلام مع قومه، وما حمل ذلك من دلالات: كان واحداً من المعالم القرآنية التي أعطت الكثير الكثير على ساحة الصراع بين الحق والباطل، الحق المتمثل في عقيدة التوحيد والتوجه إلى الله بالعبادة والدعاء، والباطل المتمثل في اتخاذ أصنام صنعها الإنسان بيده آلهة يعبدها من دون الله.

ومن الدروس التي يعوز العاملين توافرها والانتفاع بها على طريق البناء الذاتي للأمة، وتنمية روح الإقدام على نصرة الحق عند الفرد والجماعة: ما يَرى الناظر المتدبر في الآيات من سماتٍ تميز بها تحرك إبراهيم عليه السلام بوصفه داعياً يدعو إلى الله، ويواجه تحديات تقوم على موروثات جاهلية ليست من الحق في قليل ولا كثير.

فإبراهيم عليه السلام على غايةٍ في وضوح الرؤية فيما يريد. انظر إلى قولته الصائبة الشجاعة في عكوف قومه على عبادة الأصنام وتسويغ صنيعهم الهابط بأنهم وجدوا آباءهم لها عابدين: ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

وهكذا يجب أن يكون من وضعته الأقدار على طريق الريادة في بناء كيان الأمة الذاتي، والعمل على أن يكون ما لديها من طاقات بشرية ومادية في نماء متصاعد؛ فوضوح الرؤية أمر ضروري لكيلا يُداخل المسيرة عبث أو فوضى وفضلاً عن المتابعة.

والناظر في الرحلة التي قطعها ـ عليه السلام ـ بين بدء دعوة قومه إلى التوحيد وإنكاره عليهم عبادة تماثيلهم التي لها يعكفون وحتى إلقائه في النار، نجد أن إبراهيم كان مع سنن الله الكونية في الأخذ بالأسباب.

فإلى جانب وضوح الرؤية: يقينه بصدق ما يدعو إليه، ومنهجية حواره القوم في تبيان الحق من الباطل، وصبره على إقامة الحجة عليهم مرحلة بعد مرحلة.

أما صموده في وجه الباطل ـ وهو وحيد لا معين له من بينهم ـ ومصارحتهم بالحقيقة ونذر الشر تتطاير من أعينهم: فالأمر أوضح من أن نبدئ فيه ونعيد.

وما أعظمه درساً بليغاً نعالج فيه كثيراً من الأمراض على ساحة الواجب ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾[الأنبياء: ٥٦] .

وتنمو عنده صلى الله عليه وعلى آله وسلم مشاعر القدرة على المواجهة ـ لأن قوته من قوة الله، واستعانته بالله وحده ـ فتتلاشى أمام ناظريه حشودهم وما يجمعون، ويتضاءل الظلم، ويخسأ الظالمون، وينقلب وعيدهم في نفسه هشيماً تذروه الرياح، ويتعاظم الإيمان في نفسه ويتعاظم حتى يغدو عليه السلام وكأنه هو الدعوة أو كان الدعوة هو﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[الأنبياء: ٦٦-٦٧] .

وما أعظمها عبرة للعاملين البُناة الذين يحاول شياطين الإنس والجن ـ فيما يحاولون من التخذيل والتثبيط عن الخير ـ أن يدخلوا على قلوبهم اليأس: ما كان من نصرة الله لخليله إبراهيم عليه السلام حين اتخذ القوم قرارهم بتحريقه نُصرةً لآلهتهم وألقوه في نار أضرموها أشد الإضرام ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾[الأنبياء: ٦٩-٧٠] .

على أن إبراهيم عليه السلام ظل على صحوه التام ومراقبته لله عز وجل، حتى حين ألقاه المنجنيق في تلك النار المستعرة حيث سقط فيها والشرر يتطاير مع الشهيق واللّهب المستعر المرتفع يتصاعد؛ فما زاد على أن قال بكل طمأنينة: «حسبي

الله ونعم الوكيل» روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد عليهما الصلاة والسلام حين قالوا ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وذكر بعض السلف ــ كما روى الطبري ــ «أنه عرض جبريل لإبراهيم وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا».

لقد كان عدم تأثر إبراهيم عليه السلام بالنار بقدرة الله حيث تخلف التلازم بين الإحراق والنار بإرادته تعالى، وكان بديل ذلك البرد والسلام، فكان هذا دليلاً جديداً وحجة أكثر من قاطعة على قوم إبرهيم ومن يسير على شاكلتهم: أن دعوة الرسل هي الصادقة بيقين، وأن الله هو القادر الذي خلق الكون وسيَّره بحكمته، فربط المسبَّبات بالأسباب، وإذا أراد أن يتخلف السَّبب عن السبب في واقعة من الوقائع لحكمة أرادها: كان ذلك. وهنا كان الأمر معجزة لإبراهيم عليه السلام دلت على صدق رسالته وأحقية دعوته ولكن أين من يعقلون؟!

هذه هي الصورة بطرفيها: المعبودون من دون الله، قطعوا إرباً إرباً، والنار التي ألقي فيها من جعل الأصنام جذاذاً كأن لم تغن بالأمس: كانت بردا وسلاما عليه، إنها لعبرة أيَّة عبرة لو كان في القوم من يعتبر.

أما بعد: فقد كانت رحلة إبراهيم عليه السلام في شبابه على طريق الدعوة وما زالت: أمانة في الأعناق، يدعو إلى المزيد من الانتفاع بها واجب الإخلاص لمسلك الأبرار الذين تحملهم الشجاعة في الحق وصدق توكلهم على الله أن يكونوا نعم البناة على طريق التحويل إلى ما هو الأفضل والحمد لله.



رحلة الهدم والبناء.. وإبراهيم عليه السلام بالتدبر... والتفكُّر

«١»

في أعقاب ما أوجزنا عن هداية المعلم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، أجدني مسوقاً لأن ألقي عصا التسيار عند التذكير بأن مرحلة الصراع المريرة المنوَّعة التي قطعها إبراهيم بين التوحيد والوثنية وانتهت بإلقائه في النار التي جعلها الله برداً وسلاماً عليه، إكراماً منه سبحانه لخليله والتي اتسمت بمحاولة صادقة صامدة منه عليه السلام: تهدف إلى تحويل أبيه وقومه إلى الصراط السوي، حين قدم كل ما يستطيع على صعيد الفكر والحوار والصبر على الأذى نتيجة تحطيمه الأصنام..

أقول: إن هذه المرحلة سبقتها مرحلة شامخة من التدبر والتفكر في آيات الله في الآفاق، وكان هو مستهدفاً من قومه كيما يردوه ـ على زعمهم ـ إلى الصراط السوي.

نقرأ في ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾[الأنعام: ٧٤] فلقد كان هذا إعلاناً عن استنكار مبكِّر عند إبراهيم لما عليه أبوه وقومه من العكوف على عبادة الأصنام، وأنه ليس على قناعة بما يفعلون، بل يراه من الضلال المبين.

ويكرمه الله بتدرج صاعد على سلَّم اليقين من طريق ما يريه من ملكوت السماوات والأرض﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾[الأنعام: ٧٥-٧٦].

أجل إنه يجب أن لا يتخذ ما يتغير ويتبدل رباً من دون الله عز وجل؛ لأن ما يخضع للتغيير والتبديل لا يصلح لهذه الربوبية، إذ إن ذلك عنوان سلطان لقوة أخرى عليه.

ثم قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[الأنعام: ٧٧] .

إنه يعمل عقله، ينظر فيما خلق الله نظرة التفكر الواعي والتدبر العميق، أما الآخرون: فقد منحوا عقولهم إذناً بالتعطل عن العمل، وظلوا هم مقيمين مقعدين على اتخاذ الأصنام آلهة من دون الله، ولم يرفعوا رؤوسهم مرة إلى الأعلى، ويا خيبة من لا يتفكرون ولا يتدبرون.

وفي نقلة أخرى: ينظر إبراهيم إلى الشمس نظرة زادته يقيناً بأنها على كبرها ليس أمرها بيدها بل هي خاضعة أيضاً للتغيُّر والتبدل ويعلن براءته مما يشرك قومه ذلكم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[الأنعام: ٧٨]. ولقد يكون ما صدر عن إبراهيم عليه السلام ـ كما يرى بعض المفسرين ـ أسلوباً من أساليب الحوار في إقناع أبيه وقومه بشكل غير مباشر؛ وعلى أية حال جاء بعد ذلك الموقف الذي أثمره النظر: ما يعني تجاوز البصر إلى البصيرة، والتفكر فيما أعطى هذا النظر المتدبر الواعي، الذي يستجيب للفطرة، ويتيح للعقل أن يعمل عمله دون تأثر بسلطان الهوى أو التفكير الأعمى.. الأمر الذي قاد إبراهيم إلى الخالق من خلال آياته في خلقه، ذلكم قوله عليه السلام فيما حكى عنه الكتاب العزيز:﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[الأنعام: ٧٩].

وكما أشرت من قبل؛ كان إبراهيم هو المستهدف في هذه المرحلة، حيث كان قومه يطمعون ـ ويا للغباوة ـ في أن يشاركهم ما هم متسربلون به من الغفلة والضلال. ويسكت عما هم غارقون فيه من تعطيل عمل العقل وأهلية الإنسان.

وكان منهم الحجاج المتهالك الذي لا تقوم له حجة ولا ينهض به دليل.

وأين هذا مما كان عليه إبراهيم المتدبر لآيات الله في الكون وفي نفسه: من وضوح الرؤية واليقين الذي لا يتزعزع؛ بل أين الحطام العفن: من تلك البنية الفكرية التي نبعت من الفطرة ورافقها عمل عقلي مستنير، واستخدامٌ واعٍ لما أعطى الله العبد من وسائل المعرفة والقدرة على النظر في ملكوت السماوات والأرض؟!

وهاكم الآيات التي حملت هذه النتيجة: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾[الأنعام: ٨٠-٨١].

وهكذا كانت لإبراهيم الحجة ـ بعون الله ـ على قومه، وكان ذلك مؤشراً على طريق الإنسانية الطويل﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾[الأنعام: ٨٣] وتخطى إبراهيم هذه المرحلة حيث كان هو المستهدف، ليبدأ برحلة الصراع التي أوجزت القول فيها من قبل.

ولقد يكون من الخير أن ننظر إلى أي حد كان تأثير البناء في ماهية معركة الصراع بين الحق والباطل، وإلى أي حدٍ تنامى عند إبراهيم الاعتزاز بما هو عليه من الحق، والإرادة الحازمة في الثبات عليه. يتضح ذلك بصورة أدق وأعمق إذا وضعنا كل الظروف المحيطة نُصبَ أعيننا؛ فهذا الرسول الكريم لم يقطع رحلته على أرض هينة لينة آمنة، ولكن كانت أرضاً شائكة أوصلته ـ بضلال أهل الضلالة واستغلال سدنتها المنتفعين ـ إلى الإلقاء في النار.

واليوم: يبدو أبسط وجوه المسؤولية عن الانتفاع بصنيع إبراهيم وأمثاله في تاريخ الفكر الإنساني، أن يُحْسَنَ البناء المتكامل للإنسان وتنمية الاعتزاز بالحق، وأن تُسقى إرادة العمل والتغيير المطلوب باليقين، فإبراهيم لم ينتقل من المرحلة التي كان فيها مستهدفاً، إلى مرحلة الفاعلية ـ والتأثير بل لمواجهة الباطل والتحدي ـ أقول: إن إبراهيم لم ينتقل هذه النقلة، إلا وقد استكمل شرائط البناء، ونمت في نفسه كل المشاعر التي تقود إلى التفاني في هدم الباطل الذي هو ركام يعوق مسيرة الإنسان.

ولقد كنت حـريصاً على تأخيـر الحـديث عن هذه المرحلة لعل ذلك يكون أبلغ في النفس، وأدعى للإفادة من العبرة، خصوصاً والحرب مع اليهودية والصليبية اليهودية والوثنية وما هو في حكمها: دائرة، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.



من شذرات الضياء.. على طريق البناء
سلامة المنطلقات.. في فقه إبراهيم
«٢»

ماذا عليَّ بعد تلك الرحلة القصيرة مع بعض الوقائع في قصة إبراهيم عليه السلام المتدبر المتفكِّر، تلك التي أشرقت بها زمرة من آي الكتاب الكريم، والتي خطت لنا واحداً من المعالم القرآنية الهادية في حياة الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين اصطفاهم الله لحمل رسالة الهدى والخير.. أن أشير إلى واحدة من شذرات الضياء التي كانت من عطاء ذلك المعلم، تبدو نقطة الارتكاز في منهج أولئك الرسل عليهم السلام وإبراهيم صلى الله وبارك عليه وعلى آله واحد من أولي العزم فيهم.

تلكم هي: سلامة المنطلقات الأولى للحركة والبناء، والحرص كل الحرص على أن يكون ذلك منذ البداية.

ذلك بأنه إذا سلمت تلك المنطلقات منذ الخطوة الأولى في انتسابها إلى الحقيقة، وصلتِها بأرومة الخير على طريق التنمية والبناء والحركة: أمكن لنا أن نضمن مقدمات نيِّرة صحيحة تؤدي إلى نتائج نيرة صحيحة..

ولكن إذا ساءت المنطلقات: كان معنى ذلك بناء النتائج على السيئ من المقدمات؛ وطبائع الأشياء تقتضي أن تكون ثمرات المقدمات على غرارها حسناً أو سوءً، فثمرات المقدمات السيئة الملتوية: هي نتائج على غرارها ومن فصيلتها، والعكس صحيح.

فإبراهيم عليه السلام ـ وهو ينشد الخير، ويعمل على أن يرفع له قواعده، وينمي وجوده الذاتي ـ أعرض عما كان عليه قومه منكراً له ودعا ـ في بيئته الجاهلية التي ترفع راية الوثنية المضللة ـ بدعوة الإنقاذ من الهلكة حين نادى بعقيدة التوحيد

المباركة.. العقيدة التي تتواءم مع الفطرة، وتفسح للعقل والقلب، بل لكل واحد من مصادر المعرفة أن يعمل عمله، فيكون التدبر، ويكون الفكر المنهجي، وتخرج الإنسان من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان والمعرفة والتحويل إلى ما هو الأفضل والأقوم في حياة الفرد والمجتمع.

وهكذا تميَّز عمل إبراهيم ـ أول ما تميَّز ـ بسلامة المنطلق والباعث؛ فكانت البداية بداية مشرقة قائمة على وضوح الرؤية، والاتساق مع الفطرة، وسنن اللَّه وما يقضي به العقل السليم، ثم على اقتران القضية المطروحة بالدليل.

وكان من وراء ذلك: نظرات لا يحدُّها مطمع شخصي، أو غرض هابط من الأغراض التي يلهث وراءها أصحاب الدعوات الفارغة، التي هي على النقيض من الفطرة، وإنسانية الإنسان.

ولذلك استطاع أن يخوض معركة الهدم والبناء ـ كما رآها من خلال عقيدته ـ بثبات وطمأنينة، وكنت ترى كل يوم نماءً في عزيمته وقدرةً على تحدي الباطل وأهله.

وكم كان في ذلك من العطاء على طريق أولئك الذين ينشدون لأمتهم إحكام البناء على كل صعيد!

لقد كانت نقطة البدء: أن رمى ببصره في آفاق النفس الإنسانية وفي أرجاء هذا الكون العريض، ونظر إلى ذلك كله نظرةً واعيةً متدبرة، وخرج من ذلك باليقين بوجود اللَّه تعالى ووحدانيته، ووجوب التبرؤ مما يعبد أبوه وقومه من تماثيل هم لها عاكفون. قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾[الزخرف: ٢٦-٢٧] .

وطبيعة النظرة البعيدة في البناء المرتبط بكلمة التوحيد: أملت عليه رجاءه أن يكون ذلك في عَقِبِه من بعده ذلكم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[الزخرف: ٢٨] وفي سورة الأنعام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[الأنعام: ٧٩] وكل أولئك يؤكد عظمة البداية، وسلامة ارتباطها بالغاية.

لقد كانت بداية إبراهيم بداية أنعم بها من بداية، سلمت من بعدها خطواته المتتابعة طوال عمره المديد على ساحة البناء، وتنمية مشاعر الخير عند الولد والذرية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، والتمكين لعقيدة الفطرة والفسح لآثارها في النفوس والقلوب.

وكل ثمرة من الثمرات التي جناها إبراهيم على صعيد إنقاذ الإنسان من وهدة الوثنية والضياع تذكِّر بسلامة المنطلق وإشراق البداية. وإنه لمعلم عظيم أن نحسن البدء على صعيدي الفرد والجماعة؛ كي نضمن سلامة النتائج والثمرات!



من شذرات الضياء.. على طريق التنمية والبناء
إبراهيم وقومه
«٣»

كان مما أشرت إليه في سالف من القول: إلى أن بداية إبراهيم عليه السلام كانت نعم البداية التي خلّفت آثارها في كل الخطوات التي تلتها، بل وفي النتائج التي أثمرتها دعوته على صعيد البناء، حيث دعا بدعوة الفطرة، والاستخدام الأمين الواعي لما أعطى اللّه الإنسان من وسائل المعرفة والتفكر والتدبر.

وتأتي مرحلة المواجهة الجادّة بينه وبين أبيه وقومه، ويتبدى الاتساق بينها وبين تلك البداية المشرقة التي كانت عنواناً أمثل لنقاء القلب وسلامة الفكر التي عبرت عن سلامة المنطلق على طريق صاعدة محفوفة بالمخاطر تبدت في هذه المرحلة وما وليها.

لقد كانت هذه المرحلة ـ مع الذي فاضت به من العطاء ـ امتداداً طبيعياً لنقطة البدء؛ فبعد أن يئس من استجابة قومه لدعوته، لجأ إلى المعاناة العملية في إزالته الأذى وإزاحة الركام، فانهال على الأصنام ضرباً باليمين حتى قطع أوصالها وجعلها جذاذاً، وكان ذلك صورة تعلن للملأ أن الوثن وعابد الوثن من الباطل المزري وإليه.

وهكذا لم يَحِدْ إبراهيم عن الذي أشرقت به البداية، فصارت الحوادث على صعيد البناء: تحمل كل سمات المواءمة معها على صعيدي التصور والتطبيق؛ فلا الرغَبُ ولا الرهَبُ بمحوّل إبراهيم عن مساره الأصلي، والمحورِ الذي تحرك عليه بدءاً من الخطوة الأولى.

وهكذا كانت سلامة المنطلق: ضمانة لامتداد البناء سليماً معافىً من عوادي الخوف، أو الاستخذاء أمام ما يفرض الواجب. ذلكم قوله تعالى:﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات:٩١-٩٦].

ويزداد الأمر وضوحاً، فيبرز تلاقي النتائج مع المقدمات، حين يظل إبراهيم ثابتاً كالطود لا يتزعزع؛ فما دام على الحق الصراح فيما صنع، فلا عليه أن تزهق روحه ثمناً لما أقدم عليه من هدم الأوثان وحراسة العقيدة التي تنادي بعبادة الله وحده لا شريك له، وإسلام الوجه له في كل حال. وكان الله معه بالعناية والتأييد ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾[الصافات:٩٧] .

ويهبه الله إسماعيل وإسحاق على الكبر، وتأخذه نواصي الأقدار بإرادة الله تعالى إلى أن يسكن وذريته ـ على ضعفها وحاجتها للمعيل ـ بالحجاز بواد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام.

ويستعلن ضياء طريقه توحيداً خالصاً، وتوجهاً بالقلب والعقل والنفس إلى الله، في حسن توكل عليه، واعتماد على عطائه، ورضى مطمئنة بقضائه ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[إبراهيم: ٣٧] .

وما أحسبني بحاجة إلى الكشف عن صادق النسب بين هذا الموقف وبين ما سبقه، حتى نصل إلى تلك البداية التي كانت منطلق الحديث: دائماً مرحلة تسلم إلى مرحلة، وكل واحدة تشهد بخصائصها ومقوماتها وما حملت من وقائع في ذات إبراهيم الأوّاه المنيب وعلاقته المكينة بربه الناصحة في علاقته بالآخرين؛ إنها صادقة النسب إلى نقطة البدء وثيقة الصلة بها.

وهكذا فليفعل الرواد المؤتمنون على التطوير إلى ما هو الأفضل على ساحة البناء والتنمية، والإفادة الموضوعية من كل المواهب البشرية والطاقات المادية.

هكذا فليفعلوا تحريراً لنقطة البدء المتَصوَّرة، والحرص على سلامتها قصداً وعملاً وتطبيقاً.

وكم جنت أمتنا من مصاعب ولاقت من متاعب نتيجة الخلخلة في البداية، وعدم التحري لسلامة المنطلق، فترى الأحكام تتلون بلون المنطلق، والنتائج تنحرف تبعاً لانحراف المقدمات.

فعلى صعيد الفكر وعلى صعيد العمل والتنفيذ: تبدو ملحةً ضرورة الحيطة في المنطلق، وأن تكون البداية سليمة مشرقة، لما لذلك من انعكاس على مسيرة الأمة فيما تهدف إليه من بناء وما تقصد إليه من تنمية تسهم في الوصول إلى الغاية المرتجاة. وطريق الأنبياء عليهم السلام نعمت الطريق. وصلى الله وسلم وبارك على إمامهم سيد العالمين وعلى آله وصحابته أجمعين.



ترابط المراحل.. والبناء في حياة إبراهيم

«٤»

تطلعات المجتمعات في الأمة الإسلامية اليوم من خلال واقع له صوره ومميزاته هنا وهناك، تبدو وهي أقوى في الدعوة لأن نتابع الرحلة مع الانسجام الواضح بين البداية والنهاية وما كان بينهما من التواصل عند إبراهيم عليه السلام، فلكم توفّر الدقة في البداية والوعي لآثارها فيما بعد، من جهد، وكم تحفظ من فُرص، سواء أكان ذلك على صعيد بناء الإنسان تعليماً وتربية وإعلاماً، أم كان على صعيد التحرك مع الطاقات المادية والإفادة من العلم التقني لترشيد ما يتوافر من وسائل التنمية ووضع الكفاءة المناسبة في المكان المناسب.

أجل كم يوفر علينا ذلك من جهد ويحفظ من فرص وطاقات، وعلى العكس من ذلك حين يميل بالبداية الجهلُ أو الهوى، فيوضع الخط المعوج بدل الخط المستقيم، وتضطرب الزوايا، وتختلف المقاييس، وهنالك تجد على صعيد بناء الإنسان شباباً تنحرف نظراتهم مثلاً إلى مبادئ الإسلام وأخلاق الإسلام، نتيجة الجهل في إحكام المنطلق والانحراف في البداية.

وينعكس ذلك على السلوك والتصرف، وكل ذلك عائد على هؤلاء الشباب ـ الذين هم عُدّة المستقبل ـ بالخسران على أنفسهم وعلى الأمة.

ولو سلمت لهم تصوراتهم عن الإسلام من بدء الطريق، ووُضعوا في عقولهم وقلوبهم ومشاعرهم، على الساحة بعناية من أول الأمر، لكان من وراء ذلك الخير الكثير.

وقل مثل ذلك في الأمور الأخرى: عندما تهدر الطاقات المادية والعملية امتداداً للاستهانة وعدم المبالاة، أو الجهل عند البداية.

واليقظةُ لهذا الأمر أو ذاك واجب لا مندوحة عنه، حين نكون جادِّين مخلصين في كل الذي نصبو إليه من أن تعود هذه الأمة مسيرتها الأولى في علاقتها بالإسلام، وخصوصاً على صعيد الجيل الناشئ فتياناً وشباباً، وأن توظف طاقاتها الروحية والمادية عن طريق الخير والنماء بما يعود عليها وعلى الإنسانية بسعادة الدنيا والآخرة.

وفي عود على بدء: تمضي الأيام، ويبلغ إسماعيل مع أبيه السعي، في مرحلة الشباب، ويُطلّ على الأب الشيخ والولد الشاب، ومعهما الأم الرؤوم: الامتحان الصعب، والبلاء الذي كفاؤه ـ بعد عناية الله ـ عزمات أهل الإيمان.

ويتضح التساوق ـ كما أشرنا من قبل ـ بين البداية التي خطها إبراهيم على أرض التاريخ في توحيد الله والدعوة إلى ذلك وإخلاص الوجه لبارئ السماوات والأرض، الذي بيده العطاء والمنع، وإليه يرجع الأمر كله. وبين عزمه على ذبح ولده تنفيذاً لأمر الله عندما رأى في المنام أنه يذبحه ـ ورؤيا الأنبياء حق ـ.

لقد نطق سلوك إبراهيم عليه السلام ـ فضلاً عن موقف إسماعيل ـ بأن الرضى بالقضاء، والصبر على الابتلاء: ثمرة طبيعية للإيمان الصادق بالله عز وجل، وكان ذلك ـ في الواقع ـ صورة عن سلامة البنية الفكرية والشعورية عند هذا الإنسان الذي لم يَحِدْ بواحد من تصرفاته عن المحور الممتد إلى هنا بدءاً من الكلمة الأولى «لا إله إلا الله».

وعلى هذا المحور ـ وبعد عقود كريمة من عمر إبراهيم عليه السلام ـ يقف مع ولده الشاب إسماعيل ليرفعا قواعد البيت الحرام بيت الله الذي جعله ربنا تبارك وتعالى مثابة للناس وأمناً: البيت الذي قال الله بشأنه: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[آل عمران: ٩٦-٩٧] .

سبحان من له الخلق والأمر.. إن اليد التي سُعِدَت بتحطيم الأصنام، وإن اليد التي حملت السكين وتلَّت إسماعيل للجبين إنفاذاً لأمر الله في ذبح إسماعيل قبل أن يجيئ النداء، وإن اليد التي رفعت قواعد البيت مع يد إسماعيل هي هي يد إبراهيم، تهدم الأصنام وتبني الكعبة.

انظر إلى رفع البيت هنا، وإلى جذاذ الأصنام هناك، لتجد دلالة الارتباط بين النتائج والمقدمات، ودلالة تلك النتائج الباهرة على سلامة المقدمات، وكيف أن كل مرحلة من المراحل التي أملاها خليل الله عليه الصلاة والسلام على التاريخ: كانت وثيقة الصلة بأختها، تتحرك بمنهجية على غرارها، وفق منهج غاية في الدقة والعمق يشمل الجميع، وأن إبراهيم لو لم يكن موصول القلب بالله الذي بيده مقاليد السماوات والأرض وهو القوي العزيز، الأمر الذي جعله ـ بعون الله ـ أقوى من الصوارف والمعوقات ما كان من داخل النفس وما كان من خارجها.. لو لم يكن عليه السلام متبوئاً هذه المرتبة العظيمة، لما قدر على ما قدر عليه من تحلٍّ بالعزيمة على ذبح ولده وهو في غاية الرضا والطمأنينة بحكم الله وإنفاذ مراده، وهو ـ سبحانه ـ المستعان.

ولئن كانت الصلاة على الأنبياء دعاء بمزيد من رفعة أقدارهم ومكانتهم عند الله في منازل القرب: إن ذلك يشعر ببعض من حكمة الصلوات الإبراهيمية التي علمها رسول الله ﷺ الأمة من خلال توقيف أصحابه عليها ليعملوا بها، وكانت من شعائر الصلاة في شرعة الإسلام؛ حيث يؤديها المسلم في صلاته مستشعراً صدق الوجهة عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام في استقامته على المنهج الأقوم منذ البداية وحتى فاضت روحه إلى بارئها.

ومستشعراً كذلك عظمة سيد الأنبياء والمرسلين بنبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام، عندما هدى الأمة إلى ذلك.

روى الإمام البخاري عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك: فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ قال: **«قولوا اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»** .

فاللَّهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.



إبراهيم.. وأصالة البناء في منهج الرسل عليهم السلام لا التجربة

ضرورة الحرص على سلامة الباعث المنطلق، ضماناً للبداية المشرقة على ساحة البناء وتجويد العمل لتحسن الثمرات والنتائج.. هذه الضرورة التي قدمها لنا واحد من معالم القرآن في منهج رسول من أولي العزم هو إبراهيم عليه السلام، ذات نسب موضوعي بنقطة أخرى لا تقل عنها أهمية في ميدان الفكر والتطبيق.

تلك هي أن منهج النبوة كما بدا لنا من الآيات التي حملت إلينا منهج أبي الأنبياء إبراهيم: لا يحمل عنصر التجربة التي تحتمل الخطأ والصواب، حيث تكون التجربة لأمر من الأمور، ثم يستبين عند التجربة خطأ ما حصل، فيتحتم التحول عنه إلى غيره مثلاً.

أجل ليس ما يصنعه الأنبياء في أمر الدعوة وبناء الفرد والمجتمع ـ على معطياتها ـ تجربة يمكن التحول عنها إلى غيرها؛ لما أن هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام على اتصال بالملأ الأعلى بلا ريب؛ فهم مؤيدون بالوحي من عند الحكيم الخبير، ولو حصلت هناة أو خطأ يسير في الاجتهاد: فإن الوحي يقومه ويعود الأمر إلى صراطه السوي.

إن إبراهيم عليه السلام لم يُقْدِمْ على شأن من شؤون الدعوة، في إعلان عقيدة التوحيد في الناس، ومقارعة الوثنية والأوثان، وتراجعَ عنه لما أنه تجربة وافقت أو خالفت، لا، بل رأينا سلامة المنطلق وإحكام الترابط بين المقدمات والنتائج، بدءاً من عصر فتوته على عتبة الشباب، وحتى لفّته الشيخوخة بجلالها ونضجها. بل بلغ من

وثوقه ويقينه بما يعتقده ويدعو إليه: أن كان من دعائه دعاءً يتجاوز عصره بأن تكون كلمة الإسلام هي الآمرة الناهية، وأن يبعث الله في أعقاب الأعقاب رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[البقرة: ١٢٧-١٢٩] .

ولقد ردّنا القرآن بعد هذا إلى المحور الأول الذي انطلقت منه البداية العميقة العظيمة، البداية التي كان ما بعدها استمراراً لها دونما تجارب أو انتكاسات.

ذلكم قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾[البقرة: ١٣٠-١٣١] .

وهكذا كان الثبات وكانت الأصالة. ولست الآن بسبيل أن أوسع القول في تطبيق هذه القضية على دعوة رسولنا ﷺ وانتقاء التجربة التي تحتمل الخطأ والصواب، وإيضاح أن الثبات والأصالة هما الأصل، فذاك أمر واضح المعالم مثقل بالنصوص والوقائعِ التي تدل على ذلك أعظم دلالة.

والمتبصِّر في الوقائع والنصوص: يجد أن العتاب لرسول الله ﷺ أو له ولأصحابه، على بعض ما حدث خلال ثلاثة وعشرين عاماً ـ كما نرى في عدد من آيات الكتاب الكريم ـ كان دليلاً على صدق هذا الذي نقول، فرسول الله لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وإذا حصل أن وقع اليسير اليسير من المخالفة في الاجتهاد، يتنزل الوحي، فيصوِّب ما حصل، ويكون العدول إلى ما هو الصواب أو الأصوب من أمثلة ذلك: العتاب على أخذ الأسرى في بدر، العتاب على الإذن للمنافقين الراغبين في القعود عن الجهاد .. إلخ.

هذا: ولم يعد خافياً أن كل الاتجاهات والمذاهب التي قامت في هذا العصر بعيداً عن الإسلام ولها دول وجيوش تحميها كانت تتسم ـ وما تزال ـ بعنصر التجربة، والشعوب هي وسائل الإيضاح في هذه التجربة، وعلى حسابها تكون البعثرة والتقلبات.

وبعض الأفكار تحميها القوة والبطش والتجسّس، ولولا ذلك لما استمرت شهوراً ولا أياماً. وإذا كان الأمر كذلك، بهذا الوضوح على ساحة الواقع، فما أحرانا بأن نعمق أصالة الانتماء، ونزيد من تنمية الشعور بأنه لا طريق للأمة في استئناف بنائها الذاتي إلا طريق الإسلام من منابعه الصافية، دون أن يحجبنا عن ذلك ـ مهما كان الثمن ـ أوهام وتخرصات هي في حقيقتها من صنع أعداء اللّه وأعداء الإسلام، فضلاً عن أن يكون مرد بعضها نفثات مرضى القلوب من بني جلدتنا، أو جهالة فئات من المسلمين بحقيقة الإسلام. وبلاءُ أمتنا بأميَّة نفر من أبنائها حيال هذا الدين القويم ـ حتى من أهل التخصصات الأخرى، أو زاعمي الثقافة والتنوُّر ـ بلاء عظيم، ولَّد ـ ويوَلِّد ـ الكثير من الأحكام الجائرة على الدين الذي أكمله اللّه وأتم به النعمة ورضيه ـ بفضله ـ لهذه الأمة.

وقلة الحياء ـ على هذه الساحة ـ مهلكة أي مهلكة. وصدق رسول اللّه ﷺ إذ يقول كما جاء في الحديث الصحيح من رواية أبي مسعود الأنصاري البدري عقبة بن عمرو رضي اللّه عنه: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت**» رواه البخاري وغيره.

إن منهج إبراهيم عليه السلام ـ كما رأينا من خلال المعلم القرآني ـ يلتقي مع مناهج الرسل عليهم السلام، في سلامة الأساس والمنطلق، واستبعاد أن تكون شؤون الرسالة السماوية تجربة تخضع للخطأ والصواب لما أنها من لدن ربنا العليم الحكيم؛ وهو في الرسالة الخاتمة رسالة الإسلام أشد وضوحاً؛ لما اقتضته طبيعة كونها الرسالة الخاتمة، وأنها للناس جميعاً في كل زمان ومكان ﴿قُلْ أَيُّ

شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾[الأنعام: ١٩] وما أكرم وأعظم ما تجد من الذاتية والثبات في الأصول، وإمكان الاجتهاد في قضايا طارئة بناءً على تلك الأصول؛ ذلك بأن النصوص ـ كما يقول المحققون ـ تتناهى والوقائع لا تتناهى.

وبعيداً عن التعميم غير المحدود والتجريد؛ لا بد أن يتحوَّل يقيننا بسلامة المنهج الإسلامي إلى أن يكون أساساً لاستئناف مسيرتنا الحضارية ـ مهما تكاثفت ظلمات الصوارف ـ لإيماننا بالإسلام ولما نرى ونشهد من تجارب المذاهب الأخرى وانتكاساتها، وقلق الإنسان، بل ضياعه في ظلها..

أجل: لا بد أن يتحول ذلك اليقين إلى تنهيج موضوعي دقيق، ينعكس على بناء الإنسان المؤهَّل لاستئناف المسيرة، كما ينعكس على بناء المجتمع ضمن الظروف والمعطيات، وعلى كل ما ينمي حوافز العمل في ميادين التربية والتعليم والإعلام والتقنية وغيرها، على نور من هدى الله فيما أنزل من كتابه وائتمن رسوله ﷺ على تبليغه وبيانه. ولا تسل عن جهود أئمة الهدى جزاهم الله خيراً في هذا السبيل.

صحيح أن الوحي قد انقطع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ولكن الموحى به قائم بين ظهراني الأمة في الكتاب والسنة، ثم في آثار العلماء العاملين.

والاجتهاد على أساس من ذينك الأصلين العظيمين بعيداً عن الهوى والأغراض الهابطة: غير موصد الأبواب بل هو مشروع لأهله ومطلوب لا محالة.



تفسير التاريخ.. والبناء وسورة الفيل

«١»

إن اتساق حوافز البناء، ومنطلقات الحركة في المجتمع، مع الحقائق التي يكشف عنها تفسير التاريخ، وتعليل وقائعه وأحداثه: يجعل من الضرورة بمكان: أن تكون النظرة إلى تلك الوقائع والأحداث، وما قد تجرُّ من ذيول، وتخلِّف من آثار: متوائمة مع القاعدة الفكرية العريضة التي تقوم عليها الصياغة المتميزة للفرد، والأطر التي يتحرك ضمن حدودها المجتمع عند البناء.

من أجل هذا: نجد أن تفسير التاريخ الإسلامي، لا بد أن يكون تفسيراً ذاتياً، ينبثق ـ مع مراعاة الظروف والملابسات ـ: من عطاء الرسالة الإسلامية نفسها!

فمن وجهة النظر الإسلامية ـ المرتبطة بالنصوص أولاً وقبل كل شيء دون إغفال للواقع والاجتهاد عند الحاجة ـ: يفسَّر التاريخ وتعلَّل وقائعه وارتباط النتائج بالمقدمات، وعلاقة الجزئيات بالكليات فيه: من خلال العقيدة الصحيحة والمفهومات التي تقوم عليها، وتتصل بدلالتها وأبعادها، وقوة تأثيرها في حياة الفرد والجماعة والأمة في ضوء سنن الله في الكون والخليقة، وهي سنن تسير بمشيئة الله تعالى وقدرته وحكمته البالغة، سيراً سببياً غاية في الدقة والانتظام، يرتب المسببات على الأسباب دونما اعتباط أو تخلخل، ولا يعتريها تحويل أو تبديل.

وهذا لا يعني إهمال العوامل الاقتصادية والجغرافية والاجتماعية والسياسية، ولكنها لا تأتي في المقام الأول عند التفسير؛ لما أنها ليست البواعث الجوهرية في صنع تاريخنا، ولا المنطلقات التي تلد حتمية الانصباغ بها كما يحلو افتراض ذلك للآخرين!!

ولعلنا لا نبعد النجعة ـ رغبة في تقديم واحد من النماذج الكثيرة لما نقول ـ إذا نحن عرضنا ـ ولو بإيجاز شديد ـ لقصة أبرهة وجيشه وما كان من عزمه أخزاه الله على هدم الكعبة المشرفة، ثم ما باء به من الخسران والهلاك ـ والقصة التي أشرنا إليها إشارة سريعة تناسب ما كنا بسبيله من الكشف عن بعض من عطاء سورة (الفيل) في معرض العناية التي أولاها القرآن الكريم لاستخدام الواقع وتفسيره على طريق الهداية العظيم. والسورة هي قوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾[الفيل: ١].

وبين يدي ذلك، لا بد أن نلحظ كيف أن الله تعالى بدأ السورة بهذا الاستفهام التعجبي، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ والخطاب للنبي ﷺ أو لكل من هو أهل للخطاب ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾؟! فهو ـ سبحانه ـ الذي صنع ـ بقدرته وحكمته البالغة وغيرته على بيته الحرام ـ بأصحاب الفيل ما صنع، حيث جعل كيدهم فيما بيتوا ـ ويا لسوء ما بيتوا أو مكروا ـ من إزالة هذا البيت من الوجود، وبدّل غايتهم الهابطة المرجوَّة من قبلهم خسارة وهلاكاً.

وقد نسب ـ جل شأنه ـ إلى نفسه أنه أرسل عليهم طيراً أبابيل ـ جماعات ـ ترميهم بحجارة من سجيل ـ الطين المطبوخ وهو المدر ـ وجعلهم بهذا السلاح من الطين الذي أرسله عليهم بواسطة صنف ضعيف من خلقه ـ هو الطير ـ إذا قيس بما أعدَّه الطاغية أبرهة، وما ربى عليه فيله المرعب المخيف الذي أريد له أن يتقدم العدد الهائل من الفيلة وراءه..

أجل هو الذي جعل أبرهة وجيشه كعصف مأكول: كورق زرع يبس وأكلته الدوابُّ وداسته وأفنته، وبهذا كان هلاكهم الذي كان واقعاً يقينياً سيظل ـ على مدى التاريخ ـ عنوان أخذ الله للظالم غيرَة على بيته الحرام والعقيدة التي يعنيها وجود هذا البيت.

وعلى هذا: فكل تفسير لما حصل لأبرهة وجيشه بغير ما نصَّت عليه هذه الآيات الكريمات في هذه السورة: عدوان على الحقيقة، وتزييف للواقعة التاريخية التي حصلت يومذاك، وتعطيل لما لها من أبعاد ودلالات!!

وحين ننظر إلى الواقعة من زاوية اعتقادنا بقدرة اللَّه تعالى، وأن من سننه التي لا تتخلف: غيرته على بيته العتيق الذي هو أول بيت وضع للناس مباركاً وهدىً للعالمين ـ نجد أن اللَّه تعالى ـ وهو العليم بما بيَّت أبرهة وأعوانه ـ قد غار على بيته الحرام، فباعد بينه وبين الأذى، وأهلك الطاغية أبرهة ومن كان معه على خط التنفيذ المقيت: بأمر خارق للعادة غير مألوف في دنيا الأسباب الأرضية والمسببات، ولكن اللَّه تعالى الذي خلق الكون وأقام حركته على نظام في الأسباب والمسببات: هو القادر على تغيير الوجهة فيما رتّب ونظّم سبحانه!!

وكم كان لتعليل هذه الواقعة من خلال عقيدة التوحيد، وتفسيرها من هذه الزاوية المشرقة التي هي من الحق وإليه.. من أثر في تكوين القدرة الذاتية عند الجماعة المؤمنة، وتنمية فاعليتها في مواجهة طغيان قريش... ومشيئتُه ـ جلَّت قدرته ـ هي الأصل في هذا وغيره بلا ريب!

فاللَّه الذي أرسل الطير الأبابيل تحمل تلك الحجارة القاتلة الممزقة لأبرهة وجيشه الذي لم يكن لقريش قبل بمواجهته: قادر على نصرة المؤمنين ـ إن هم نصروه ـ وتبديل قوتهم ضعفاً، وخوفهم أمناً..

وهذا لا يتنافى مع وجوب إعداد العدَّة التي تثمر إرهاب عدو اللَّه وعدو المسلمين؛ فالمحور الذي لا يجوز تجاهله: أن اللَّه قادر على نصر الأمة إن هي نصرته باتباع شرعه وإعداد العدّة المستطاعة. وما حصل في واقعة أبرهة الحبشي قبل ما يقارب خمسمائة وألف عام من أنصع الأدلة على هذا الذي نقول ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠].

البناء.. وتفسير التاريخ
المنطلقات والحوافز
«٢»

لم تشهد الإنسانية دعوة أحكمت أسس البناء، ولم تهمل في منهج هذا الإحكام، جانباً في الحياة لحساب جانب آخر: كالذي شهدته في دعوة الإسلام؛ فالتكامل الذي صنعه العهد المكي والعهد المدني كلاهما: ينفي بشكل قاطع وجود أي لون من ألوان الافتراق بين العهدين.

ولئن كان العهد المدني الذي تنزلت فيه الآيات المدنية: هو الذي برز فيه بناء المجتمع، وحكمت كلَّ جوانب الحياة فيه شريعةُ الإسلام دونما استثناء، وظهرت الدولة ببنيتها المسلمة على الصعيدين الداخلي والخارجي.. إن العهد المكي ـ وهو يحمل طابع التمكين لعقيدة التوحيد، وإزالة العوائق النفسية والاجتماعية من طريقها: كان يتسم بإعطاء مؤشرات معبرة تُحكم العلاقة بين قاعدة البناء على العقيدة، وبين ما يراد أن يكون عليه الفرد والمجتمع في قادمات الأيام!

ويزيد الأمر وضوحاً: أنك لا تكاد تمر بسورة من السور المكية في الكتاب الكريم، مهما قلَّ عدد آيها، إلا وتشهد زمرة من هذه المؤشرات في البناء الثقافي والاقتصادي والاجتماعي، الأمر الذي جعل الطاقات والإمكانات تنمو مع نمو الطاقة الإيمانية في النفوس..

فكان المسلم المضطهد في عقيدته يكبر بإيمانه الصادق، وتكبرُ معه قدرته على وضع مبادئ الرسالة التي آمن بها، ويتحمل ما يتحمَّل من الأعباء في سبيلها: موضع التطبيق في المجتمع الذي يجب أن تحكمه الكلمة الطيبة «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه» بكل دلالاتها وما تزخر به من أبعاد إيمانية وتشريعية وفكرية وسياسية!

والعهد قريب باصطحاب واحد من وجوه العطاء في واحدة من قصار السور المكية، هي سورة «الفيل» وهو وجه يصلنا بوجه آخر مثله في الإطار الذي يجري الإيماء إليه.

فلقد كانت منَّة عظيمة، تلك التي منَّ اللّه بها على قريش وهي تشرف بجوار البيت الحرام وسدانته وحجابته وسقاية حجيجه: بأن حفظ هذا البيت من العادين المغيرين، فجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم جماعات من الطير، ترميهم بحجارة هيأتها القدرة الإلهية لإيقاعهم في شر هُلك، فما لبثوا أن صاروا كالعصف المأكول.

غير أن واحداً من المعالم القرآنية تشرق به هذه السورة المباركة، يهدي الأمة إلى جانب من جوانب الانتفاع بوقائع التاريخ وسلامة المنهج في تفسيرها، كيما تكون الفئة المؤمنة ـ وهي في موقع الذود عن حياض التوحيد وإنسانية الإنسان ـ على بينة من أمرها في تعليل الوقائع تعليلاً يكشف عن مناط بروزها في حركة الحياة التي تُظِل معاصريها، وفي إحكام الربط بين العقيدة التي يتساقط الشهداء تحت رايتها المتصلة بوحي السماء، وبين مسيرة التاريخ!

فحين يُذكر بناء الإنسان على المعتقدات الفطرية السليمة، وتنمية طاقاته في ضوء قيمها وأبعادها، والمبادئ القائمة عليها: يكون لزاماً أن يأخذ ذلك كله موقعه من قلبه وعقله وبواعث الحركة عنده، كيما يكون كدحه وتحركه: ضمن إطار فكري سليم، وعلى طريقة ذاتية في التفكير.. يفسِّر من خلالها أحداث التاريخ الذي هو سلسلة متكاملة الحلقات، ويحمل الناظم الذي ينتظم الوقائع ـ تباعدت أو تقاربت، مع إعطاء الفارق الزمني ـ إذا كان حاصلاً ـ حقه بمقدار، دون وكس ولا شطط؛ لأن العبرة بجوهر القضية ومنطلقها في الأصل؛ الأمر الذي يحدد موقع الماضي من الحاضر، وأثر ذلك في سير الوقائع.

وبذلك يكون بناء الإنسان وفق هذا المنهج الذي لا يغفل ما لا يجوز إغفاله، ولا ينمي جانباً على حساب جانب آخر، ويعنى أشد العناية بنقطة البدء.. يكون بناء الإنسان على هذه الشاكلة، عنوان الإحسان في صناعة التاريخ، وسلامة الوجهة في تفسيره يوم تقوم الحاجة إلى ذلك!!

فحوافز العمل، ومنطلقات الحركة والبناء: إنما تنمو دون تشوُّه، على وضع متناسب مع الحقيقة التي تبرز من خلال تفسير التاريخ ذي العلاقة بما يقع..

وشتان بين منطلقات تحكمها الضوابط المادية فحسب ـ دون مُثُلٍ رفيعة أو قيم ـ وبين منطلقات لا تنقطع عن السماء، وتحمل طابع التكامل الذي تمليه فطرة الإنسان وأهليته لحمل رسالة الخير لنفسه وللآخرين، إذ تحركه من أعماقه عقيدة التوحيد التي ترفع صاحبها من الوهدة، وتسمو به إلى مستوى التضحية والبذل في سبيل اللّه، طلباً لمرضاته سبحانه.. ولا تسل عما يحدث ذلك من طيب الآثار وعظيم النتائج!



تفسير التاريخ والبناء.. وقصة أبرهة!

«٣»

بالماحة عجلى وقفتنا الرحلة مع الكلمة القرآنية الهادية على طرف من مدلول الآيات التي دلَّت ـ فيما دلَّت ـ على ما أهلك اللَّه به أولئك الذين دبَّروا المكيدة لبيته الحرام زاده اللَّه تشريفاً ورفعة. وما تزال بوادر العطاء متوافرة على هذه الساحة من الهدي القرآني، وسبحان من أنزل الكتاب ولم يجعل له عوجاً، فلا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد.

ومما يزيد الأمر وضوحاً من الزاوية التي أردناها من شجون هذا العطاء، فيما ينبغي أن يكون عليه المنهج في تفسير وقائع التاريخ، لكيلا تفوت الحكمة، ويستبدل التيه بوضوح الرؤية: أن يقترن هذا الذي نومئ إليه بواقعة الإهلاك التي كان من الحكمة تأخير عرضها بالتفصيل الذي لا بد من إيجازه هنا.

وإنها لواقعة عظيمة مذكورة عند العرب ـ بعامة ـ وعند قريش ـ بخاصة ـ واستذكارها بالقدر المناسب، يسعف في القدرة على استنطاقها بموضوعية، في طريق الوصول إلى ما يعطيه هذا المعلم القويم، من تعليل لما حدث، تعليلاً يقفنا ـ في النهاية ـ على مكان النظرة الإسلامية إلى تاريخنا من مسيرة البناء التي كانت منظورة من أول يوم تحت راية الصراع بين الحق تعلنه دعوة الإسلام وتدعو إليه، وبين الباطل تكابر في مظاهرته الجاهلية بكل أوضارها وعوامل الهدم فيها.

ولقد شاء اللَّه الحكيم الخبير، أن تنمو في نفوس المقبلين على الدعوة، في مواجهة العناد والأذى: مشاعر الصدق في صلتهم به سبحانه، فكان لهم من خبر الطاغية أبرهة وجيشه، وما كان من إهلاك اللَّه لهم على الصورة التي أعلنها القرآن الكريم: حافز جديد على متابعة الطريق الشائكة، والاستمرار في نصرة الحق الذي نزل به الكتاب، مهما كلفهم ذلك من ثمن!

وأبرهة هذا قد حكم اليمن وكانت تابعة للحبشة يومذاك، بعد أن خلا له الجو بمقتل منافس له. وأقره النجاشي على عمله!

وبنى أبرهة ـ بدافع ديني بالغ الاعوجاج ـ كنيسة هائلة، أعلى فناءها، وزخرف أرجاءها، وعزم أن يصرف حج العرب إليها، كما يُحج إلى الكعبة المشرفة بمكة، ونادى في مملكته بذلك.

والغرض السياسي الهابط، من وراء الغرض الديني الحاقد في هذا المبتغى: واضح في إرادة استقطاب حجيج العرب إلى كنيسته، والفوز بما تحظى به قريش من المكانة الدينية والسياسية والثقافية في ظل البيت الحرام.

وكرهت قريش ذلك شديد الكراهة، وغضبت العدنانية والقحطانية، حتى قيل: إن بعض الرجال الناقمين، تمكنوا من دخول الكنيسة وإحداث أذىً مرموق فيها، الأمر الذي زاد من غضب الطاغية أبرهة الأشرم وحقده، فما كان منه إلا أن أقسم ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجراً حجراً!!

لقد أقسم هذا القسم، وهو غارق في بحران الوهم والغرور الذي زيّن له أن القضية قضية أرضية مقطوعة الصلة بالسماء، وما درى أن البيت الذي أقسم على هدمه وإزالته من الوجود: هو بيت الله القادر القاهر يسمع ويرى ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء..

وقد أنفذ ما بيَّت من الشر والكيد، بالمسير إلى مكة المكرمة، بجيش عرمرم، مستصحباً عدداً من الفيلة المدَرَّبة.

وفي الطريق أسَرَ وقَتَلَ، واستصحب بعض من أسَرَ من الزعماء، ومرَّ بثقيف فداهنته، خوفاً على وثنها اللات أن يهدم، وأرسلت معه «أبا رغال» دليلاً على الطريق.

وكان لا بد من التفاوض مع قريش، واجتمع حناطة الحميري رسولُ أبرهة إلى هذا التفاوض بعبد المطَّلب جدِّ نبينا عليه الصلاة والسلام، وقال له: إن أبرهة لم يجئ لقتالكم إلا أن تصدُّوه عن البيت! فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه،

وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم؛ فإن يمنعْه منه: فهو بيته وحرمه، وإن يخلِّ بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفعٌ عنه. فقال له حناطة: فاذهب معي إليه...

وبين يدي استكمال هذا الخبر فيما يأتي من القول إن شاء الله، أود الإشارة إلى العبء الجسيم الذي حمله الرعيل الأول بنفوس رضية، وقلوب مبتغاها ــ في نصرة الحق ــ مرضاة الله عز وجل.. في بناء الكيان القوي المتميز لهذه الأمة، وصنع تاريخها الحضاري المجيد.. يوم أعادوا الحق إلى نصابه ـ على كل صعيد ـ فحرروا النفوس من رجس الأوثان، فانطلقت تصلح ما فسد، وتبني بسواعد الإيمان الرجال مجتمع الفضيلة والخير نواة الدولة الإسلامية نصيرة الحق والإنسان!

وكأن كلمة عبد المطلب التي رأينا، وما سيطالعنا ــ فيما بعد ــ من صنيعه: واحد من الالتماعات الأخيرة، فيما كان عليه العرب من الحنيفية ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام!

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة.. أجل ما أشد الشبه بينهما على صعيد تنقية الطريق من الشوائب، تمهيداً للبذر الطيب الذي يؤتي أكله في نفوس من أراد الله إسعادهم بأن يكونوا جنده المكرمين على طريق تبدأ بالإيمان والعمل في اتقاء الله في كل صغيرة وكبيرة... وتنتهي بجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للأوفياء بعقودهم مع الله، صابرين على لأواء الطريق، لا يخافون لومة لائم، همُّهم نصرة الدين، والذود عن حياضه مجاهدين صابرين.



واقعة أبرهة.. والبناء الفكري

«٤»

في حديث موصول بالكلام على موقف عبد المطلب ساعة حواره مع أبرهة بعد أن استجاب لدعوة رسوله بالذهاب إليه: تجدر الإشارة إلى أن عبد المطلب كان رجلاً جسيماً، حسن المنظر، تعلوه المهابة، فأجلَّه أبرهة، ونزل عن سريره، وجلس معه على البساط، ثم عرف من ترجمانه أن عبد المطلب يريد منه أن يرد إليه مائتي بعير أصابها له، ودهش القائد المتغطرس لهذا، وقال لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلمتني؛ أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك وأجدادك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟!

فقال له عبد المطلب ـ بنفس مطمئنة كل الاطمئنان إلى ما عند اللّه، هازئة بجبروت هذا الطاغية ـ: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه.

والحق أن كلمة «سيمنعه» لا بد أن تستوقف الناقد المتبصر، لينظر كم هي عميقة الدلالة في موضوعها والخطر محدق بالكعبة وما حولها!

ولكن أبرهة ـ وقد فكَّر وقدر فقتل كيف قدَّر ـ تمادى في غيه وقال: ما كان ليمتنع مني!!

قال عبد المطلب: أنت وذاك. ويروي أصحاب السير ونفر من المفسرين أن أبرهة ردَّ عليه إبله.

ورجع الرجل الأول الشجاع إلى قريش، فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رؤوس الجبال، خوفاً عليهم من معرة الجيش الغازي الذي غشيه الحقد والرغبة في التدمير.

وتوكيداً لما جابه به أبرهة ساعة الحوار الحاسم الذي جرى بينهما: قام فأخذ بحلقة باب الكعبة ـ كما تذكر الأخبار ـ وقام معه نفر من قريش يدعون رب هذه البنية ويستنصرونه على أبرهة وجنده.

وقال عبد المطلب ـ وكله أمل في أن يأخذ الله الطاغية وجيشه ـ:

لا هـمَّ إن المـرء يمـنع رحله فـامنع رحـالك
لا يغلبنَّ صليبُـهم ومحـالهم أبداً مِحـالَك

المحال: القوة أو الأخذ.

وفي الصباح: تهيأ أبرهة لدخول مكة، وهيأ الفيل العظيم الذي كان يعده لهذا اليوم، وجعله في المقدمة، وعبأ الجيش التعبئة المناسبة..

ولكن حدث بعد هذا كله ما لم يكن في الحسبان؛ ذلك أن الفيل حين وجهوه شطر أم القرى، برك بعناد ولم يتزحزح. وجعلوا لا يصرفونه إلى جهة من الجهات إلا ذهب فيها، فإذا وجهوه إلى الحرم ربض وصاح.. وهكذا وجهوه إلى اليمن، فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، كما وجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك أيضاً.

حتى إذا وجهوه إلى مكة أبى عليهم كل الإباء، وانتزع نفسه منهم بأقصى ما يستطيع!

وضاقت بأبرهة وجنده الحيلة، واشتد عليهم الكرب، وحاصرتهم المفاجأة المذهلة من كل مكان!

وبينما هم على هذه الحال من الضيق والشدة الشادَّة: أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ـ قطعاً قطعاً وجماعات جماعات ـ ومع كل طائر ثلاثة أحجار ـ فيها القوة والصلابة ـ من سجيل، وقد حملتها بمناقيرها وأظافيرها، وشرعت ترميهم بها، فما يقع حجر على رأس رجل إلا هلك ولو بعد حين. ذلكم قول الله جلت قدرته: س﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾[الفيل: ٣-٥].

وهكذا أصبح الجيش المتمِّر المتغطرس ـ بما فيه ومن فيه ـ كالتبن المسحوق بأرجل البهائم!! وانظر إلى هذه الصورة بعد أن تحملق بسابقتها!! وقل: سبحان من يمهل ولا يهمل وهو على كل شيء قدير!!

لتد أهلك اللّه جند الباطل والتعصب المنحرف الذميم ـ بما بيتوا وعزموا ـ على هدم بيته العتيق، وجعل كيدهم في تضليل، فردَّهم بغيظهم لم ينالوا خيراً، وباؤوا على رؤوس الأشهاد بالخزي والعار والشنار، ولم يرجع منهم مخبر. إلا أن يكون جريحاً يصارعه الموت.

وانصدع صدر أبرهة عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء مسودّ الوجه خائباً تغشاه الحسرة، وأخبر القوم ـ وهو في أسوأ حالاته ـ بما جرى، ثم مات شر ميتة جزاء ما صنع، وبات هو وجيشه عبرة من عبر التاريخ!

ولنا عودة ـ إن شاء اللّه ـ إلى رحلة عجلى لا يتسع لأكثر منها المقام، مع الذي توحي به الواقعة على صعيد البناء الفكري، حيث ينمي الإسلام عمق النظرة إلى الواقعة التاريخية، وسلامة استنطاقها، كيما يكون تفسيرها ـ وهي على ساحة تتصل بالعقيدة ـ على تلاؤم مع عطاء هذه العقيدة واتساق مع حقيقة أنه لا راد لقضاء اللّه، وأنه ـ سبحانه ـ يقدِّر ما يشاء ويفعل ما يريد، وهو الحكيم الخبير.



واقعة أبرهة.. والبناء الفكري

«٥»

لا يخفى أن الأمر عندما يتعلق بالثقافة والبناء الفكري، في حرص منهجي على تنمية قدرة الفرد ــ ومن ورائه الجماعة ـ على الحركة في إطار القاعدة الفكرية التي يضعها هذا البناء القائم على أصول ثابتة مكينة.. يكون من الواجب ـ كما دلت على ذلك المعالم القرآنية ـ أن يكون تتبع كليات القضايا، وجزئياتها بحسبان، كيما يتبيَّن مقدار انسجامها مع البنية التي يوجه إليها منهج التفكير، وإلى أي حد يجري التوافق بينها وبين تفسير الوقائع التاريخية..

ذلك بأن الانحراف عن ذلك: لا يعدو أن يكون صورة من صور التخالف بين المعتقد والفكر، وبين طبيعة الحكم على أحداث التاريخ حكماً تتحقق معه العبرة، ولا يكون ناشزاً عن المنطلقات الأولى التي تسهم في صناعة التاريخ.

وهذا ما لا يرتضيه الإسلام لمجتمع العقيدة الذي يتحرك في ظل الرسالة الإسلامية التي حمَّلت الفرد والجماعة من أول يوم: أمانة العمل على منهج معيَّن في التفكير، ينتظم ـ فيما ينتظم ـ أواصر الارتباط بين الماضي والحاضر والتهيج للمستقبل في إطار الإيمان بقضاء الله وقدره، وهو إيمان لا ينافي الأخذ بالأسباب كما وجَّه إلى ذلك الدين القويم.

وفي واقعة أبرهة مع عبد المطلب، وما آلت إليه الأمور بعد ذلك ـ كما أسلفنا من قبل ـ مما لم يكن في حسبان المغيرين المعتدين: يشهد الناظر المتأمل، أن ما حدث للطاغية وجيشه: كان بقضاء الله وقدره بلا ريب، وأن قدرة الله القاهر فوق عباده قد تدخلت، فأهلكت من أرادوا بالبيت الحرام الدمار والسوء.

وأنت واجد أنه لم تنقص أبرهة الحركة النفسية الحاقدة الناقمة، التي تدفع الظالم إلى البطش والتدمير، كما لم ينقصه شيء من الإعداد الظاهر لإنفاذ ما عزم عليه من إزالة الكعبة ـ لو قدر أخزاه الله ـ من الوجود.

وفي المقابل: استطاع بسرعة أن يقضي على كل مقاومة لقيها في الطريق، فقتل وأسر دون عائق يذكر. ومما زاده عتواً واستكباراً، وإصراراً على ما ائتمر به، وأعدّ ما أعدّ لتحقيقه: أنه لم يلق أية مقاومة من أهل الحرم أنفسهم يحسب لها حساب!

ففي حمى الحرم المعظم نفسه، لم يكن لدى قريش قوة تذكر في مقابل جيش أبرهة، وكل ما صنعته ـ كما أشرنا فيما سبق ـ اعتصام برؤوس الجبال، لكيلا تنالها معرَّة الجيش الغازي..

وإذن لم يكن على طريق هذا الضال المعتدي ـ في ظاهر الأمر ـ أي عائق يعوق وصوله إلى الغاية التخريبية التي كان يطمح إليها، وبخاصة بعد الذي جرى للكنيسة في صنعاء!!

غير أن خيطاً واحداً من خيوط الرجاء نلمحه في الحوار الذي حصل بين عبد المطلب وأبرهة، حين قال عبد المطلب بلغة الواثق المطمئن ـ وقد ضاقت عليه السبل ـ: (إن للبيت رباً يحميه) وحين لم يعبأ بتهديد أبرهة ووعيده، بل كان حديثه ـ على هدوئه وقلة كلماته ـ يحمل في باطنه تهديداً لعدو الله وعدو بيته، هو انعكاس لإيمانه بقدرة الله، وأنه ـ جل وعلا ـ قادر على رد كيد أبرهة في نحره.

وقد تجلى ذلك بقوله حين أمسك بحلقة باب الكعبة:

لا يغلبنَّ صليبهم ومِحالهم أبداً مِحالك

ولا ريب في أن الله يمهل ولا يهمل، فهو ـ سبحانه ـ شديد المِحال، آخذ من ظلم بما هو جزاء ظلمه واستكباره وعتوِّه!!

وماذا علينا بعد هذا في ضوء المتابعة الدقيقة للأحداث: أن نذكر مرةً أخرى: ما يلاحظ من حقيقة أن الأسباب الأرضية كانت كلها متوافرة لأبرهة من أجل تنفيذ وعيده الذي أوعد...

ولكن الذي وقع ـ في خاتمة المطاف ـ كان على العكس من ذلك جملة وتفصيلاً...

صحيح أنه كان يملك العدة والعدد، واستطاع سحق المقاومة ـ على ضآلتها ـ في الطريق إلى مكة، وصحيح أن قريشاً لم تبد أية مقاومة لأنها لا تملك القدرة على أن تقاوم! ولكن قدرة اللَّه كانت للغزاة الحاقدين بالمرصاد؛ وكذلك أخذُ ربك إذا أخذ من يريدون ببيته ومعقلِ توحيده بالسوء، أهلك القوم بجند من جنده ـ وما يعلم جنود ربك إلا هو ـ وأهلكهم بطير أبابيل رمتهم بحجارة من سجيل... بعد أن حصل من عظيم الفيلة ومقدَّمهم ما حصل!!

ولك أن تقارن بين الإنذار والزمجرة والوعيد بهدم الكعبة المشرَّفة استعلاءً وحقداً واستكباراً في الأرض، ومشهد الجيش الذي مزقته أحجار سجيل بعد أن شاء اللَّه للفيل العظيم أن يتأبى على التوجه شطر مكة والبيت المعظم، ثم صورة أبرهة يتلوى مما عصف به من الذلة والألم والحسرة، حيث مات سبعين ميتة قبل أن يوافيه الأجل في صنعاء.

وصلى اللَّه على رسولنا المصطفى يوم قال ـ كما روى البخاري وغيره ـ في شأن ناقته القصواء ـ وقد تأبت على المسلمين التوجه شطر مكة عام الحديبية وقال بعضهم: خلأت القصواء ـ يعني حرنت ـ: «**ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل**».



واقعة أبرهة.. والبناء الفكري للمسلم

«٦»

هكذا كـان من عطاء المعلم القـرآني الذي سـبق أن تابعنا في ضـوئه الوقـائع التاريخيـة لقصـة أبرهة الأشـرم، فيمـا أنذر وتوعَّد، وأرغى وأزبد، وفيمـا باء به من الهـلاك والخسـران المبين.. أن المؤمن حين يواجه وقـائع التاريخ وأحداثه، ويحـاول أن يجد لها التـعليل المناسب فيما كان من مقدمات، وفيمـا حصل من نتائج.. وعلى أي شكل كان الارتباط بين النتائج والمقدمات، وفي أي إطار ارتسمت الـصورة التي تبدت من خلالها علاقة المسببات بالأسباب، وأبعاد هذه الصورة..

هذا المؤمن حين يفعل ذلك بذاتيـة الانتمـاء الصادق إلى رسـالته المشـرقـة بوحي السـمـاء! لا يصح أن يكون تناوله لـتعليل الوقـائع وتفسيـرهـا، تناولاً يعـوزه حـضـور العقيدة، والإيمان بقضاء اللَّه وقدره، وأنه ـ تبارك وتعالى ـ يحكم مـا يشاء ويفعل ما يريد، لا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه، وهو ـ جل شأنه ـ خالق الأسباب والمسببات!

وغني عن البيـان: أن كل المقدمـات كانت تدل ـ في ظاهر الحـال ـ على أن الغازي المعـتدي واصل إلى مـا أراده لا مـحـالة، ولكن سنةَ اللَّه مـاضيـةٌ في عـاقبـة من بغى وطغى، كما أن غيـرته ـ سبحـانه ـ على بيتـه ـ وهو القـاهر فوق عبـاده ـ لم يكن بدٌّ من أن تعمل عملها في أصحاب الفيل!!

من هنـا يمكن القـول بـأن السـورة المبـاركـة المعنيـة بهـذا الحـديث ـ وهي «سـورة الفيل» ـ كشفت بوضوح عن أن ما حصل للطاغيـة الأشـرم: كان بفعل اللَّه وقـدرته التي لا تجارى، وأن ذلك كـان متسقـاً كل الاتسـاق مع سنته المـاضيـة في الكون؛ أخذاً للظالمين بما يصنعون، وإهلاكهم من حيث لا يحتسبون.

وكما كشفت بوضوح عن ذلك: علمتنا من أين نبدأ تفسير التاريخ، وما هي وسيلتنا لحسن تعليل الوقائع والأحداث.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى في مفتتح السورة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾[الفيل: ١] إذ الرؤية المقصودة هنا: هي رؤية العلم والوعي والتدبر.. لأن النبي ﷺ وِلداته من جيله الزمني، لم يروا رؤية العين واقعة أصحاب الفيل، ولكنهم علموها من طريق التواتر.

غير أن الجيل السابق، جيلَ عبد المطلب وعصرييه، قد شاهدوها بأم أعينهم، وعاشوا مقدماتها.. أجل شاهدوها، ولم ينسوا أنهم صعدوا إلى الجبال، وخلّوا بين الغزاة وبين البيت لأنهم كانوا ـ من حيث الأسباب الأرضية ـ أعجز من أن يدفعوا الأذى أو يقاوموا أصحابه.. ولكن تلهفهم إلى ما يمكن أن يحصل: كان شديداً جداً شديد.

وقد رأوا ـ وهم على هذه الحال من اللَّهفة والترقب ـ كيف أن الطير الأبابيل جاءت تحمل الموت الزؤام لأبرهة بل رأوا ما صنعته الحجارة التي تحملها هذه الجماعات من الطيور.. وهو أمر خارق للعادة بالتأكيد!

وإذا كان الأمر كذلك: فليعمل العقل عمله، ولتنزع القدرة الفكرية إلى سلامة استنتاج الحقيقة، وأن ما حصل من الأمر الخارق، لم يكن بأسباب أرضية، عمل لها وأعدّها فريق من البشر، ولكن وراءه قدرةٌ خارقة هي قدرة الله رب البيت المستهدف بالتدمير والخراب، وكلمةٌ بالغة هي حكمته جل وعلا.

وكل ذلك يدل ـ صورة هي حق اليقين ـ على أن الكون بكلياته وجزئياته ـ مهما دقت أو جلَّت ـ على نظام رباني لا ينفك عن القضاء والقدر، وأن الله ـ وهو موجد هذا الكون ومسيِّره على ذاك النظام الذي ارتضاه بإرادته وحكمته ـ لا يعزب عن علمه ذرة في الأرض ولا في السماء، وهو صاحب السلطان والأخذ الأليم الشديد، وكل شيء عنده بمقدار!!

إنا ـ ونحن نتطلع إلى المستقبل المزدان بالخير والتمكين ـ: تصحبنا شكوى العنت ورواسب التأثر بالفكر المجافي للرسالة التي يفترض أن نتحرك في ظلها، ومن ذلك ما يؤمن به البعض من سلامة التفسير المادي للتاريخ، أو فهم المنهج التاريخي فهماً هو أبعد ما يكون عن نشدان الحق المرتبط بوحي السماء، ومفهوم أئمة الهوى من نصوص هذا الوحي..

إنا ـ ونحن نتطلع إلى هذا المستقبل ـ: نرجي أن نضع أقدامنا على الطريق بثقة وطمأنينة؛ الأمر الذي يوجب تنقية هذه الطريق من الشوائب التي تعوق خطا الجيل المعدّ للتغيير إلى ما هو الأفضل، وتذليل العقبات التي خلّفها الغزو الفكري وتقليد الأقوياء ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون..

ومن البداهة بمكان: وجوب أن يصحب ذلك بناء على العقيدة التي تسلمنا إلى الحقيقة بدليلها، وتنمي سلامة التعليل للوقائع، وإحكام الربط بين النتائج والمقدمات، وسبحان من يوفق من شاء لما شاء، والعاقبة للمتقين.



عبد المطلب.. والجواب عن تساؤل!

«٧»

جواباً عن تساؤل مقبول حول موقف عبد المطلب من أبرهة وجيشه من عدم المقاومة، والاعتصام برؤوس الجبال طلباً للنجاء ومقدار انعكاس ذلك على ما يكون من خطة المسلم في مواجهة التحديات.. أود أن أنوه هنا، وأعيد التذكير بما نطقت به الوقائع من فحوى تصرف عبد المطلب من أنه كان لا يملك من القوة ما يواجه به جيش أبرهة الذي تؤكد الروايات ضخامة عدده وعدته يومذاك، ولذلك وجد الرجل الأول في بني هاشم أن محالاً عليهم أن يزودوا عن الكعبة ويدفعوا عنها فليتركوا ذلك مكرهين لرب الكعبة سبحانه: فربٌّ العباد قادر على أن يمنع بيته من أذى المغيرين، بل أن يهلكهم، وكان ذلك ـ والحمد لله ـ وجعلهم كعصف مأكول.

هذه واحدة، والثانية: أنه من الممكن القول بأن عبد المطلب كان على يقين لا يتزعزع من أن الله مانع بيته المحرَّم من العدوان مهما كانت قوة من أراد به السوء.

لذا فإن من العبث محاولة الدخول مع الطاغية الغازي في معركة غير متكافئة على الإطلاق. وما قاله لأبرهة المغرور، المتغطرس في الحوار الذي دار بينهما، وما أنشد من الشعر عندما أمسك بحلقة باب الكعبة؛ دليل واضح على ما نقول.

والتجاءُ عبد المطلب إلى الله بصدق في هذه الشدة الشادة، والخطرِ المحدق.. التجاءٌ إلى القوة التي لا تقهر، واعتماد كليٌّ على رب الأسباب والمسببات سبحانه!

وبهذا يتبين أن الأمر لم يكن إهمالاً أو تهاوناً من عبد المطلب ـ مع قدرته على المدافعة أو المناوشة على الأقل ـ، بل كان أخذاً بالسبيل الأقوم الذي لا سبيل غيره عندما لا يملك العبد شيئاً من الأسباب الأرضية، أو يملك ما لا يعبأ به فيها،

خصوصاً وأن ما كانت عليه قريش ليس كياناً تحميه دولة لها نظامها وجيشها، ولو كان قليل العدد والعدّة، ولكن الأمر متروك لحصافة الرجل المتميز فيهم، ومن يمكن أن يعاونوه في المشورة والرأي! ومن هنا كان من حق عبد المطلب تقدير موقفه الذي كان سداه ولحمته الاعتماد على الله والتوكل عليه، لما يحمل صدره من اليقين بأن الله لا بد مانع بيته.

ولكن هذا كلُّه موضعُه وجوب التنبه إلى أن المعلم القرآني في السورة يهدي إلى أن تكون حقيقة وجود الله وقدرته وعلمه ماثلة في قلوب المسلمين وعقولهم عندما يريدون تفسير التاريخ وتعليل وقائعه، لا أن يهملوا أسباب القوة، والعوامل التي تبني الفرد والمجتمع على خير القواعد وأكرم الأسس، فهذه قضية وتلك قضية أخرى. صحيح كل الصحة أن الله تعالى أهلك ـ بقدرته ـ أبرهة وجيشه وأحبط كيدهم، وصحيح أيضاً أنه تعالى هو الذي شاء وقف الأمة على سننه التي لا تتخلف في أن الهلاك لمن كفر وأساء وظلم، وأن العاقبة الحسنى لمن آمن وعمل الصالحات ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾[الكهف: ٨٧-٨٨] وقد أخذ من أرادوا بالبيت الحرام سوءاً بجريرة ما صنعوا.

كما أن من الغفلة بمكان أن تختلط الأوراق، فتخالف أمتنا عن أمر الله بإعداد القوة، والجهاد حق الجهاد في سبيله والدعوة إلى الأخذ بأسباب الهداية والتمكين، وتجنب كل ما من شأنه الانزلاق في مهاوي الضلالة والضعف. نقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾[غافر: ٢١-٢٢] وقوله جل وعلا: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا

عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾[الحج: ٧٨] ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[الأنفال: ٦٠] ناهيك عن البيان القولي والعملي لذلك في هدي النبي عليه الصلاة والسلام.

أجل إن اللَّه الذي شرع للأمة الجهاد، وأمر أمراً جازماً بإعداد القوة التي ترهب عدو اللَّه وعدوها: هو الذي دلهم على أن من سننه أن ينصر أولياؤه إن هم نصروه وأن يخذل أعداءه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠] وقد تهدد المشركين بذلك فقال عزل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾[محمد: ١٠] وجاء التعليل بعد ذلك بقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾[محمد: ١١] .

إنها حوافز العقيدة التي تنبعث من أعمال النفس فتنعكس على ميادين الحياة بناءً ونماءً.



من وقائع أحد.. على طريق البناء
فلن يضرَّ الله شيئاً

«١»

في سورة آل عمران واحد من المعالم القرآنية، يبدو في عطائه المتجدِّد ذا نسب إلى ما كنا بسبيله في كلمات سبقت مما يتعلَّق بالأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه حركة المسلم في الحياة؛ وهو أن المبادئ التي تمليها عقيدة التوحيد الخالص: هي التي يجب أن تحكم منطلقاته وتصوراته وما يتبع ذلك من ممارسات لا بد منها لإدارة حركة الحياة؛ كل أولئك كيما يقود عملية البناء ـ وهو ينتمي إلى رسالة تبني للدنيا وللآخرة ـ أجل كيما يقود هذه العملية في كل حلْقة من حلقات مسيرته؛ بدءاً بالفرد ومروراً بالمجتمع في الطريق إلى الأمة، وكيما تكون علاقته بالكون والحياة، علاقة طبيعية منتجة كما أراد الله.

فهو لا يعاني ولو أثارةً من الانفصام بين العقيدة والسلوك، وهو يخوض معارك بناء الواقع الأمثل، ويحرِّك دفة الحياة، ولا يتواكل ـ وهو يدير عجلة العلم والتغيير إلى ما هو الأفضل ـ بل يعمل متوكلاً على الله توكلاً مقترناً بالأخذ النيِّر الواعي بالأسباب المطلوبة لإعمار الأرض وبناء الحضارة التي يقيمها مبتغياً في كل ما آتاه الله ـ من مقومات الوجود المثمر ـ الدار الآخرة، غير ناسٍ نصيبه من الدنيا؛ ذلك بأنه ـ وقد آمن إيماناً تتزلزل الجبال الرواسي ولا يتزلزل ـ لا يترقب بعثة رسول جديد، ولكن يعيش للرسالة التي بلغها محمد صلوات الله وسلامه عليه، وتناقلتها الأجيال المؤمنة بالتواتر والمعاناة العملية جيلاً بعد جيل، ورجاؤه عند الله تعالى أن يموت على ذلك عملاً بقول الله جلَّ ثناؤه: وما كان من بيان النبي ﷺ قولاً وعملاً وتربيةً لأصحابه على ذلك.

وإذن: فالقضية ـ كما توحي معالم الكتاب العزيز وبيانها من السنة المطهَّرة ـ قضية نهوض بالعبء بعزيمة وإخلاص، وأخذٍ بأسباب البناء المتكامل الشامل الذي دعت إليه الرسالة الخاتمة أخذاً لا تعوزه المنهجية، ولا يفتقد سُلَّم الأولويات، وتنميةٍ لكل الطاقات الفكرية والاقتصادية وغيرها، من أجل أن يتعالى البناء ثقافةً وحضارةً وتطلعاً إلى حسن العاقبة يوم الدين.

والأمر في هذا كله منوط بالإنسان المكرَّم عند الله، وحُسنِ الانتفاع بما سخر الله له في هذا الكون، بصرف النظر عن وجود صاحب الرسالة ـ بشخصه الكريم صلوات الله وسلامه عليه ـ وعدم وجوده، لأنه إذا انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى: فما عاش لأجله، وبلغه، وجاهد في سبيله: قائم موجود في الكتاب والسنة، ثم ما فهمه أئمة الهدى عليهم الرحمة والرضوان! والله بكل شيء عليم.

وعندما يسلَم لكل من الفرد والجماعة هذا التصور لتلك الحقيقة بكل أبعادها وما لها من سلطان في عالم الحركة والإنجاز: يكون الإنسان ـ بحقٍ ـ عنصر فعالية وتأثير، يبني وينمي، نافعاً ومنتفعاً، ويدفع بعجلة التاريخ على المنهج الذي يجب أن يكون.

وليس من مكرور القول أن نذكّر بعد هذا بقول الله تبارك وتعالى في السورة التي ألمحنا إليها في صدر هذا الحديث سورة آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤-١٤٨] .

هذه الآيات وأخرى غيرها: مما نزل بشأن وقائع حصلت في غزوة أحد، ورائحة المعركة التي تذكِّر بالجهاد والمجاهدين: تنعش القلب، وتُذكي روح الأمل، وتضاعف الثقة بأحقية ما يشرق به المنهج القرآني من مثاليَّة في عرض الوقائع وصلتها بالنفس الإنسانية، والكشف عن الطاقات الإيمانية وأهليتها لسدِّ الثغرة وتقويم ما يجب تقويمه من الاجتهاد ورحى المعركة تدور.

ولسوف نرى ـ إن شاء اللّه ـ أن هذه الكلمات الطيبات المباركات: عنوان قضية كبرى في الإسلام: هي أن الخلية الإسلامية لا يصح أن تتوقف عن العمل.. عن ممارسة بناء الحياة الأفضل في ميادينها كافَّةً على تنوُّع وجوه العطاء والتأثُّر والتأثير، مهما غلت التكاليف وتعاظم الثمن؛ لأن الأمر أمر رسالة هي لخير الإنسانية وسعادة الإنسان في الدنيا ويوم يقوم الناس لرب العالمين، وقِيَم منبثقة عن هذه الرسالة تتميَّز أول ما تتميَّز بالإحاطة والشمول، لا أمرُ رغبات شخصية تثور هنا وتخمد هناك، بعيداً عما يُرجِّي العبدُ من ثواب الدنيا وحسنِ ثواب الآخرة، وأن يتدرّج على سُلَّم الصلة باللّه إيماناً وعملاً حتى يبلغ أن يكون ممن يقول اللّه فيهم: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.



من وقائع أحد.. على طريق البناء

«٢»

ما أشاعته ألسنة السوء ـ في توجيه إعلامي ماكر ـ عن مقتل رسول الله ﷺ في «أُحد» بعد أن صاح ابن قمئة إن محمداً قد قُتل وكان له ما له من الآثار السيئة، لم يكن لهذه الآثار من سلطان يتبدَّى في الضعف والقعود عن متابعة المعركة بعد الذي حصل من خطأ أكثر الرماة وعدم امتثالهم لقائدهم بالبقاء رضي الله عنهم أجمعين.. لم يكن لهذه الآثار من سلطان على جميع المقاتلين، وإنما كان على البعض؛ وفي الساعة الحرجة والشدة الشادَّة برزت ظاهرة قوة الإيمان والوعي ـ كغافٍ غفوة قصيرة جاءه ما أيقظه ـ وأن مقتل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ـ وهم يحبونه أكثر مما يحبون أنفسهم ـ ولو وقع، فليس بمنج من المسؤولية في الجهاد الصادق الصابر، وقتال أعداء الله المشركين؛ فهؤلاء الضالُّون المضلُّون لا يبتغون بهذا الحرص الشديد الآثم على قتله ـ فداه أبي وأمي ـ شخصه الكريم فحسب، ولكن يبتغون القضاء على دعوته ـ لو أمكنهم ذلك ـ وعلى أهل دعوته. ومن أجل ذلك استماتوا في التركيز عليه صلى الله وسلم وبارك عليه، وهو صابر لا يتزحزح عن موقعه رغم كل ما أصابه، وبدا هو ومن باعوا أنفسهم لله دون حياته ـ وكأنه رجل الدنيا كلها في الثبات والتضحية والاستهانة بالصعاب ـ مهما اشتدت ـ في سبيل الله.

روى الحافظ البيهقي في «دلائل النبوة» عن ابن أبي نجيح عن أبيه أن رجلاً من المهاجرين مرَّ على رجل من الأنصار ـ وهو يتشحَّط في دمه ـ فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً ﷺ قد قتل؟ فقال الأنصاري: «إن كان محمد قد قتل؛ فقد بلَّغ، فقاتلوا عن دينكم».

ويبدو أن هذه الواقعة التي ترجمت الصحوة الإيمانية السريعة قد تكررت؛ فقد ثبت أيضاً أن بعض المقاتلين مرَّ على نفر من إخوانه ـ وقد أرهقهم النبأ المزعج ـ فقال لهم: إن كان حقاً ما يقال من أن محمداً ﷺ قد قتل، فقوموا للقتال، وموتوا على ما مات عليه!

الحق أنه الإيمان العميق بما عند الله للمجاهدين في سبيله، والوعي الدقيق العميق لرسالة هذه الأمة التي شاء الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس، والحرصُ على العمل بهداية المعالم التي رسمها الكتاب الكريم، وبيَّنها بالقول والفعل والأسوة خير بيان رسول الله المجتبى صلوات الله وسلامه عليه: فالقتال في سبيل الله: لا في سبيل مغنم أو عرَض من أعراض الدنيا الفانية! والله الذي شرع الجهاد في سبيله وحضَّ عليه وبشَّر القائمين به خير البشريات: حيٌّ باقٍ لا يموت لا يضيع عنده عمل عامل ولا يخفى عليه جهاد مجاهد ولا صبر صابر على تكاليف هذا الجهاد؛ والقيم التي طرحتها دعوة الإسلام الموحى بها إلى النبي محمد عليه الصلاة والسلام: ليست محدودة بزمان ولا مكان ولا قوم، بل ولا عرق أو جنس، ولكنها ـ كما دلت النصوص القطعية ثبوتاً ودلالة ـ للناس كافةً؛ فهي متسعة بشمولها للزمان والمكان، وكل بني الإنسان حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولكن هذا الذي تجري الإيماءة إليه من اليقظة السريعة بعد الغفلة العابرة من جراء الشائعة المرهقة: لم يمنع في الواقع ـ وهذا من الحكمة البالغة في المنهج الرباني ـ أن تنصبَّ الآيات الكريمات على نقطة الضعف تقتلعها من جذورها؛ لأن هذه الأمة منوط بها أن تبني حضارة الإنسان التي تحمل إلى البشر سعادة الدنيا والآخرة، وأول خطوة على هذه الطريق الطويلة المملوءة بالمكاره التي حفّت بها الجنة: بناء الإنسان بناءً إيمانياً يحمل على العمل بما تقتضيه عقيدة التوحيد في كل مجال من مجالات الحياة ومن عيونها: بذل المال والنفس تحت رايتها راية الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وهذا يقتضي تنقية الطريق من الشوائب، وتقديم ما يطرأ من عوج على أي جانب من جوانب التصور، أو العمل.

وعلى هذا: فكيف يحق لهؤلاء البررة الذين خاضوا معركة أحد ذوداً عن تلكم العقيدة ورغبة في الشهادة في سبيل الله: أن يلقوا السيوف عن عواتقهم استجابة لشائعة مقتل رسول الله ﷺ؛ فهو ﷺ خاتم المرسلين مبلِّغ رسالة هذا الدين، والرسالة باقية إلى يوم يبعثون.

كيف يحق لهم أن يقعدوا عن متابعة القتال فينقلبوا على أعقابهم.. وسيوف الكفر مشرعة تريد القضاء على الإسلام وأهله مستهدفة البدء بقتل المصطفى عليه الصلاة والسلام! وكل أذىً يصيب دعوة الإسلام فإنما هو أذى للإنسانية جمعاء ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[آل عمران: ١٤٤].

أما بعد: فصحيح أن الآيات تنزلت في شأن الجهاد يوم أحد، ولكن دلالة المعلم القرآني تتسع وتتسع، وتنذر وتحذِّر من أن القعود المتولِّد عن التماس المعاذير المتعجلة، عن أي خطوة من خطوات الإحكام للبناء الأمثل في ظل شريعة الإسلام بأصولها وفروعها ومقاصدها العظيمة؛ مرفوض بحكم العقيدة والدين ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ ذلك بأن النهاية سنة من سنن الله ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾[الزمر: ٣٠] وإن كان الله ـ كما ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وأبو داود وغيرهما ـ قد حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء.

ألا إن هذا المعلم القرآني بما ـ يدعو إلى التحرك المنهجي المنضبط في ضوء الإيمان بما عند الله، وفي ظل قيم الإسلام ومبادئه التي تستعلي على محدودية الزمان والمكان والأشخاص ـ: يحمل قضية كبرى مصحوبة ببرهانها المتمثل في أن على كل مكلف في دنيا المسلمين ـ ذكراً كان أو أنثى ـ تبعة الإسهام في بناء القوة الذاتية للأمة من حيث الطاقات البشرية والاقتصادية والفكرية؛ لأن الرسالة هي

الرسالة، ولأن الأمانة هي الأمانة؛ وحين تتفتح البصائر: يتبدى للناظر المتدبر كأن هذا المعلم القرآني تتنزل كلماته غضة طرية اليوم لتشدّ على يد الأمة في معتركها ضدَّ التخلف وسلطان المعتدين.

وطوبى لمن همُّه أن يكون أبداً على سواء الصراط، ويدور مع الحق حيث دار.



من وقائع أحد..
على طريق البناء فلن يضرَّ اللّه شيئاً
«٣»

لقد عودنا القرآن الكريم في معالمه الخيِّرة البنَّاءة ـ ويا نعم ما تبني ـ وضوح الغرض المرتبط بسبب ـ أو أسباب ـ نزول الآية أو الآيات؛ فترى نور الهداية يصحب العبارة في الآية كما يصحب الآية أو الآيات جميعاً، وكثيراً ما يكشف عن المناسبة بين آية وأخرى، أو مقطع من مقاطع الآيات ومقطع آخر.

ولقد كان من حكمة اللّه تبارك وتعالى حيث صنع أمة الإسلام بكتابه وهدي نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام، وجعلها خير أمة أخرجت للناس: أن جعل من إعجاز هذا الكتاب استعلاءه على حدود الزمان والمكان، وبذلك ترى سلطان الآية أو الآيات الكريمات في هدايتها وما تشرق به من إعداد المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ بعقله وبقلبه، لا يحدٌّ ما ترمي إليه زمان ولا مكان، إلا أن نقع على نص يعطي هذا التحديد كما اقتضته الحكمة الإلهية.

ولعل ما قرَّره جمهور العلماء من أن «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» بمعنى أن خصوص السبب لا يحول دون أن يعمل العموم في النص عمله شمولاً لكل ما ينطوي تحته من أفراد: بعضٌ من تلك الحقيقة التي نلمح إليها في هذه الكلمات!

وفي حديث موصول بكلام حول بعض وقائع «أُحُد» سبق من قريب، نحاول من خلاله أن نكشف عما يؤديه خط الهداية في المعلم الذي حوله ندندن من وصْل حاضرنا بذلك الماضي المستنير الذي من سماته حسن الإفادة حتى من الخطأ إذا وقع، وكيف يكون التذكير من خلال الوقائع والحركة، بما هو الأصوب من ناحيتي

العقيدة والسلوك المنسجم معها، طاعةً لله ولرسوله ﷺ بإخلاص نية وصدق عزيمة... في حديث موصول بذلك: نطالع من قصة المعلم القرآني في تلكم الآيات من سورة آل عمران، والمبدوءة بقول الله جل ثناؤه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[آل عمران: ١٤٤] الآيات أنه لما انهزم من انهزم من المسلمين في الجولة الثانية يوم «أحد» بعد أن كانت لهم الغلبة في الجولة الأولى، وقتل من قتل منهم، وثبت رسول الله ﷺ ونفر معه ذلك الثبات المنقطع النظير، حتى شجَّ رأسه عليه الصلاة والأم، وكسرت رباعيته، ودخلت حلقتا المغفر وجنتيه: نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل.. ورجع ابن قميئة إلى المشركين صارخاً بأعلى صوته صراخ الجزِع الفرِح؛ قتلت محمداً!! وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ فشجَّه ـ فداه أبي وأمي ـ في رأسه، وفي لحظة من لحظات الضعف البشري: وقعت هذه الشائعة في قلوب عدد من الناس موقع التصديق، واعتقدوا أن نبيهم ﷺ وقائدهم قد قُتل، وجوَّزوا ذلك عليه، كما قد قصَّ الله عن كثير من الأنبياء.

وكان لذلك ما له من الأثر السيئ في حركة المعركة وما كان من الشدة الشادَّة، لما أنه قد حملهم على ترك القتال، والقعود عن متابعة المواجهة مع أعداء الله، وفي ذلك نزل قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[آل عمران: ١٤٤].

إنها سنة من سنن الله الماضية التي لا تتحوَّل ولا تتبدَّل، ينبه القرآن المجيد المسلمين عليها؛ فما محمد صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو خاتم النبيين والرحمة المهداة ـ إلا رسول له أسوة بمن خلا قبله من الرسل عليهم الصلاة والسلام في الرسالة، وفي جواز القتل عليه، ولكل أجل كتاب. والحقيقة التي يجب أن يكون المسلمون على ذُكْرٍ منها: أنهم يقاتلون في سبيل الله، وتحت الراية التي دعا إلى حملها ـ عملاً بما أوحي إليه ـ رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وإذن: فالأمر ليس مرتبطاً بوجوده ـ ﷺ ـ بنفسه بين ظهرانيهم، بل الأمر مرتبط تمام الارتباط بدعوته ومنهجه والتفاني على ساحة العمل لإعلاء كلمة الله في الأرض، وأن تكون شريعة الله هي المحكَّمة!

وعلى هذا: فالتقاعس عن عملية البناء الذي يراد له أن يتنامى على ساحات الفرد والمجتمع المسلم والدولة المسلمة ـ وهي العملية التي أفاض في بيان معالمها وحدَّد أبعادها هو صلوات الله وسلامه عليه ـ مرفوض رفضاً قاطعاً من وجهة النظر الإسلامية؛ وإذا كان الأمر كذلك: فالمطلوب أن تكون مشاعر المتابعة والتأسي، وإحكام الرباط بين سيرته التي كان عليها وبين سلوك المسلمين: على حال من النماء المستمر ساعة فساعة، ويوماً بعد يوم، وما من عاقل متبصِّر بنصوص الكتاب والسنة يزعم أن رسالة محمد ﷺ محدودة بعمره على هذه الأرض.

ومن هنا جاء النص الذي هزَّ قلوب المؤمنين، وصحا عليه من انتابهم شيء من الغفوة ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.

إنه التوجيه المنهجي الحاسم، وقيادة الأمة بعقيدتها التي تخالط العقول والقلوب، ولا بد أن تنعكس على الجوارح والتصرفات، كيما تكون هذه الأمة ـ بحق ـ خير أمة أخرجت للناس، تبني الحياة بدعوة الحياة، ولا تدع أن تخوض معارك المبادئ والقيم في شتى الميادين لخير الإنسانية كلها ولله الأمر من قبل ومن بعد.



من وقائع أحد.. على طريق البناء
وسنجزي الشاكرين
«٤»

هذا الأسلوب المعجز في التربية والإعداد، لتحقيق بناء الإنسان المسلم من خلال المعرفة وتفسير الوقائع، وترجمة تلك المعرفة إلى معاناة وحركة.. هذا الأسلوب الفريد لا يكاد يبارح واحداً من المعالم القرآنية في كتاب الله على هذا الصعيد!

ولا بدع في ذلك؛ فهو مصدر الهداية الأول، والنور المبين، والكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وهل ننسى أن الله تعالى جعله باعث الطمأنينة، والاستعلاء على القلق والاضطراب النفسي الذي كثيراً ما يحصل بسبب المعوقات التي تحتاج إلى الرضا والصبر على قضاء الله تحت راية نصرة الحق؛ فهو الهدى والرحمة والشفاء لما في الصدور.

أقول هذا بعد الذي سبق من القول في رحلة مباركة ـ على قصرها ـ مع واحد من تلك المعالم في سورة آل عمران، حيث الآيات التي تنزلت في شأن ما حصل يوم «أحد» والتي كان منها قول الله تباركت أسماؤه:﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾**﴾.

فما من ريب في أن هذه الآية وما تلاها: قد ردَّت الأمور إلى نصابها ـ كما أسلفنا من قبل ـ وعملت عملها من خلال العتاب ـ ترغيباً وترهيباً ـ على ما حصل من وقوف البعض عن متابعة المعركة بحجة أن رسول الله ﷺ قد قتل: في استئصالِ

هذه الهفوة التي كانت انعكاس الشائعة الخبيثة من جذورها، وردٌ المسلمين إلى الأصل الذي يجب أن يظلَّ منطلقهم، مهما تلونت الظروف وتنوعت المفاجآت. ألا وهو الثبات على الحق الذي جاء به محمد ﷺ، بصرف النظر عن حياته بين ظهراني المسلمين أو انتقاله ـ صلوات الله وسلامه ـ إلى الرفيق الأعلى؛ وذلك بإسلام الوجه إلى الله بالكلية، واستذكار أن قتال الأعداء تحت راية الحق الذي نزل به الروح الأمين على رسول الله، إنما هو جهاد في سبيل الله وحده، وكل عدول عن ذلك: تحوُّل إلى ساحة أخرى ليست من الجهاد المشروع في شيء، وأن الأمر أمر عقيدة ربانية تبنى عليها أحكام الشريعة وقيم الأخلاق والسلوك طلباً لمرضاة الله عز وجل، وليس ارتباطاً بحياة صاحب الرسالة أو موته. وسرعان ما كانت الاستجابة لهذا التوجيه، وكانت التضحيات التي تعز على النظير!!

غير أن الذي يستوقف الناقد البصير في ظل هذا العنوان العام: أنك من خلال العتاب الصارم لهؤلاء المجاهدين الصادقين وما لهم من المكانة والقدر عند الله: ﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ تبصر أسلوب الإعداد والتكوين الفريد عند ربط التحرك تحت راية الجهاد في سبيل الله بالعقيدة والمنطلق الإيماني في طاعة الله تعالى.

وفي الوقت نفسه ترى الإيجابية في عدم الاقتصار على الزجر والتهديد والوعيد.. ولكن معها الكشفُ عن إعطاء كل ذي حق حقه ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾اتساقاً مع واحدة من سنن الله الحكيمة في وضع الأمور مواضعها بحكمة بالغة.

وذلكم هو البناء المستنير المحكم، بناء الإنسان المسلم على الأسلوب الذي يجعل منه كفاء التغيير على المستوى الحضاري الذي يأخذ الطابع الإنساني، حيث تبدو الأقوال والأفعال ـ ومنها جهاد النفس وجهاد العدو ـ روافد خير على طريق الإنسانية. لما أنها لا تنحرف عن مسار العقيدة، ولا تترنح تحت سلطان الأهواء ورغبات المتسلطين. وكل أولئك يتسق تمام الاتساق ـ في الواقع ـ مع حقيقة إنسانية رسالة الإسلام التي تستعلي على كل الفوارق وتكون هي واسطة العقد بين الناس.

﴿فَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾أفائن مات محمد ﷺ أو قتل، رجعتم القهقهرى؟! وفي هذا تحديد للمفهوم الذي يجب أن يكون ملء القلب والعقل.. ومن يرجع القهقرى، فقد ظلم نفسه، وجنى على وجوده الذاتي ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾ فالمطلوب العمل بالرسالة والتأسي بصاحبها في حياته وبعد موته.

وبعد هذا التنبيه الحازم الحكيم، تطل علينا يد الرحمة التي لا تفتأ ـ كما سلفت الإشارة من قبل ـ تنمي بواعث الخير، وتجزي على صالح العمل من أوسع أبواب المثوبة والفضل؛ وفي ذلك ما فيه من استكمال البناء في شخصية المسلم المنوط به أن يكون الصورة الحية الصادقة لرسالة الإسلام، ودفعه إلى أن يكون عنصر بناء وطاقة نماء، حتى في أشد الحالات كرباً وهولاً؛ فالذين يقومون بطاعة الله تعالى، ويقاتلون في سبيله، ويذودون عن حمى دينه، ويتبعون رسوله النبي الأمي في حياته، ويظلون على ذلك بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى: هم الشاكرون لنعمة الله عليهم بالإسلام، وسوف تكون لهم ـ بهذا الشكر ـ عقبى الدار والأجر العظيم ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ وجيء بالسين في﴿وَسَنَجْزِي﴾التي تدل على القرب توكيداً لصدق الوقوع.

وبعد: فما أحرى المؤتمنين على تربية الأجيال في هذه الأمة المحمدية أن يستضيئوا بهذا القبس المنتمي إلى المنهج الرباني في بناء الإنسان القادر على البناء المنشود في الأسرة والمجتمع والأمة، في حالات العسر واليسر، والشدة والرخاء. وسبحان العليم الحكيم.



أحد.. والتكامل
في منهج الإعداد والبناء
والواقع المعاصر

«١»

حاجتنا اليوم ـ وكلَّ يوم ـ إلى أن نضع مفهومات الكتاب العزيز في بناء الإنسان وتنمية قدراته على الثبات: بإيمان ومنهجية في وجه الظروف المتغيرة والمتباينة، وأن يكون مع العقيدة الصحيحة، وأبعادها الخيِّرة في بناء الإنسان وصنع الحضارة المثلى، أياً كانت ساحات هذا البناء وميادين تلك الصناعة الحضارية المتوازنة التي يحصل التحرك في أرجائها بفاعلية حازمة وجهة صادقة.. هذه الحاجة تبدو في الواقع المعاصر ملحَّة أكثر من أي وقت مضى، لما يثقل الأيام والليالي من صعاب المهمات التي تنتظر العاملين، ولما يتضاعف من صوارف الخير ـ نتيجة العدوان الشرس على الإسلام في أرضه وفكره وثقافته وتشريعه. ويعين على شدة تأثيره السيئ ضعفُ النفوس وخواء القلوب من نور الهداية عند الكثيرين.. وبخاصة صنَّاع القرار.

وإذن فلا بد من الاعتصام بتلك القوة البانية التي تعدُّ بعمق لا يدع جانباً من جوانب النفس الإنسانية إلا ولجه؛ إصلاحاً لخطأ بحكمة تجلِّيه وتكشف عن المقدرة على ما يحقق النائدة من وقوعه على طريق الجهاد في المستقبل القريب والبعيد أو تثبيتاً لصواب يرفع راية الحق ويجدِّد العزيمة الإيمانية والأمل العريض بنصر الله العزيز الحميد.

وكانت الاستنارة بقبس من تلك القوة من خلال ما سبق من نظرة عجلى في واحد من المعالم القرآنية طالعتنا بها تلكم الآيات التي تنزلت على النبي المصطفى في شأن ما حصل في معركة «أُحد» من سورة آل عمران.

ولقد رأينا هنالك التذكير بضرورة الدأب على التحرك في ضوء العقيدة، واستئصال الهفوة من أعماق النفس المؤمنة التي تهفو أبداً إلى الشهادة في سبيل اللَّه، لكيلا تتحوَّل هذه الهفوة إلى ظاهرة مَرَضيَّة تتسبب ـ لا قدر اللَّه ـ في إنهاك المجتمع المسلم، بدلاً من أن تتنامى وتتجدَّد فيه ـ أبداً روح الثبات على نصرة الحق، ومقارعة الباطل مهما كانت الظروف، ومن وراء ذلك مرضاة اللَّه وحسن العاقبة في الدنيا ويوم الدين!

ويحسن أن نعيد إلى الذاكرة أن مما أشرق به المعلم القرآني في آيات «أُحد» عظمة التوازن في منهج الإعداد الرباني؛ ففي غمرة العتب الشديد والتهديد والوعيد: لا يضيع عمل عامل ولا ينتقص حق ذي حق.

والحق أن هذا التوازن من أكرم لبنات البناء في شخصية المسلم، لما أن ذلك يشعره ـ على أكمل وجه ـ بعدل اللَّه ولطفه في الأحوال جميعاً، وأن الكلمة المؤدِّبة لا تعني ـ بحال من الأحوال ـ انحسار اليد الحانية الكريمة عن العطاء؛ الأمر الذي ينمي في هذا الجندي من جند اللَّه القدرة على الاستجابة لما يكون من التصويب، واتخاذ المواقف التي تقدّم مراد اللَّه ورسوله على مراد الإنسان واجتهاده. وهذه قضية لا يحدها زمان أو سبب نزول؛ فحاجة كل مسلم ومسلمة متجددة إلى ذلك مع كتاب اللَّه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، فيما يأخذ المؤمن أو يذر في هذه الحياة!

من أجل هذا كان ما نقوله على هذه الساحة برمتها هنا وهناك ـ واللَّه أعلم ـ ضرورة ملحة اليوم في إعداد الأجيال لمواجهة متطلبات البناء في ظروف قد لا تبدو مشجعة لمن يستسلمون لليأس، ويفتحون للتشاؤم منافذ وأبواباً، قوامها تعلُّلات قد يكون منها حب العافية المبطِّن، الذي ينمو ويترعرع في محاضن الكسل والتواني والضعف!

واستجلاء الصورة بكاملها استجلاءً يمليه الحرص على الانتفاع بالوقائع، بعد التدبر التام للكلمة القرآنية الهادية.. هذا المطلب: يقتضينا متابعة العطاء القرآني فيما تلا من الآيات؛ فبعد ذلك التوجيه الحكيم الجازم الحازم من خلال العتاب على ما حصل يوم أحد، بدءاً من مغادرة جبل الرماة، نجد دعوة إلى الاعتبار بالماضين من أولئك الذين صبروا على تبعات البناء، عملاً وجهاداً في طاعة لمن تجب طاعته؛ فلم يهنوا لما أصابهم في سبيل الله ولم يضعفوا ولم يستكينوا، وكان الله معهم؛ فهو سبحانه يحب الصابرين؛ ذلكم قوله جل ثناؤه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

والعظيم العظيم أنهم كانوا ـ وهم يكدون في سبيل الله ويعملون بثبات وشموخ إيمانيين ـ يشعرون ـ وقد اطمأنت قلوبهم وصفت من أكدار الرغبات الزائلة والمتاع القليل نفوسهم ـ بكريم فضل الله أن ندبهم لتلك المهمة العظيمة مهمة تحرير الإنسان من عبودية العباد وإخراجه منها إلى عبودية الخالق جل وعلا، وأنهم مفتقرون دائماً لمغفرته سبحانه ورحمته، داعين بذلك متضرعين يخافون أن يكونوا مفرطين في جنب الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾[آل عمران: ١٤٧] .

وهذه الفقرة من الدرس العميق الذي يجب أن نعيه في حاضرنا كما وعاه السلف الصالح ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ مدعاة لكثير من التأمل والاعتبار، خصوصاً ممن أقامهم الله على ثغور التربية والإعداد ومواقع التنفيذ!!

إن هؤلاء الذين ذكر الله ما ذكر من أوصافهم: همُّهم أن يثبت الله أقدامهم، بعد غفران ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم، فلا يتزعزعوا عن الغاية التي من أجلها نذروا أنفسهم لله، ولا تعبث بهم الأهواء، ويربط على قلوبهم فلا يحيدوا عن الطريق رغبة أو رهبةً، وفي خاتمة المطاف: أن ينصرهم الله على القوم الكافرين.

وهذا الوضوح في الغاية ضمانة أي ضمانة لاستمرار عملية البناء كما يريدها المنهج الرباني، وتنمية إمكانات من اختيروا لهذا الاستمرار المبارك.

وحسنُ العاقبة في الدنيا والآخرة نعم الجزاء ممن لا يضيع عمل عامل منهم ذكراً كان أو أنثى ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾[آل عمران: ١٤٨].



أحد.. والإنسان والتعامل في منهج الإعداد والبناء

«٢»

ما لا غنى عنه للمربين والذين يرتادون للأمة طريقها في البناء وتنمية إمكانات الفرد ومؤهلاته ليكون قادراً على الإفادة من كل الإمكانات الروحية والمادية المتاحة على طريق العطاء المثمر المنتج.. ما لا غنى عنه لهؤلاء وأولئك: قراءة جديدة واعية للمنهج القرآني في بناء شخصية المسلم كيما تتوافر له أهلية أن يكون على المستوى اللائق للرسالة التي يحملها رسالة الإسلام، وكيما يكون سلوكه وهو يسهم في إدارة حركة الحياة عنوان صدق انتمائه إلى هذه الرسالة التي كانت بها أمتنا خير أمة أخرجت للناس.

وليس عجباً من العجب أن تكون النقلة طبيعية من بناء الفرد إلى بناء المجتمع، إذ نرى أن من ثمرات بناء شخصية الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى، بناء المجتمع المسلم المتفاعل مع الحياة في ضوء الشرعة المباركة، القادر على توجيه دفتها وجهة الخير. وإنه لمنهج يتسم ببالغ الحكمة في التعليل. بالغ الدقة في التحليل والتحويل، لما أنه لا يغفل الانتفاع بحجم الواقع، ولا ينحسر عن الإفادة من وقائع التاريخ، ولا عن العظة بما جاء به الخبر الصادق عما يكون يوم يقوم الناس لرب العالمين، من وضع الموازين بالقسط وأن كل نفس توفّى ما كسبت وهم لا يظلمون.

وهذه لمحة نضيفها إلى ما وقفنا عنده فيما سبق من القول استضاءة بهدي المعلم القرآني في سورة آل عمران ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[آل عمران: ١٤٦] الآيات،

في أعقاب الكلام على ما حصل يوم «أحد»؛ ذلك بأن الآيات تضع أيدينا على حقيقة سداها ولحمتها أن البشارة كانت مع النذارة، وأن الرحمة صحبت التهديد والوعيد، وذلكم عنوان التواؤم بين الطريق الهادية ومقومات النفس الإنسانية ـ كما فطر الله الإنسان عليها ـ وهو سبحانه الذي يعلم من خلق ولا أحد يعلم علمه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[الملك: ١٤] وسننه في الكون وعلاقة الإنسان به وبالحياة لا تتبدل ولا تتحول.

لقد طلعت علينا الآيات بحقيقة ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ وأشرقت بالكلمات المضيئات هداية ونفعاً ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[الزمر: ١٧] وها نحن نجد هذه الكلمات الطيبة الودودة من الله تبارك وتعالى ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨] ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] وسبحان المنعم المتفضل الذي يصطفي من عباده من يحبهم ويحبونه﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾الأمر الذي يذكر بأولئك الذين قال فيهم ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [المائدة: ٥٤].

الواقع أننا مهما تشعبت بنا سبل المعرفة ونحن نتطلع إلى استئناف طريق التمكين، وأن نكون صناع القرار الذي يعود على أمتنا بالخير، وأصعدنا في ميادين البناء على تنوعها في الثقافة والاقتصاد والسياسة وما إلى ذلك، وتوافر لدينا ثقل من الإمكانات التي لا بد منها لتحقيق الغايات الكبرى بوجه عام: يظل الإنسان هو المحور للانتفاع بذلك كله ووضعه مواضعه التي تؤدي إلى الإنتاج النافع المفيد...

أجل يظل هذا المخلوق الذي صنعه الله على الصورة التي يتمكن معها من الإفادة من قانون التسخير كما أراد الله ذلك التسخير والذي تكرر التصريح به بسعة وشمول في مواطن عدة من القرآن الكريم... خلقه على هذه الصورة وكرّمه وفطره على التوحيد ولكن النائدة تأتي من سوء التربية، وضلال الإعداد، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

على أية حال: يظل هذا المخلوق ـ كما جرت الإشارة ـ هو الأداة الفعالة بما فطره الله عليه، وأهّله، وأعطاه من الإمكانات العقلية والقلبية والبدنية وغيرها، الأداة الفعالة أيضاً في استثمار ما يتوافر للأمة من الإمكانات البشرية، والثروات الاقتصادية وغيرها ناهيك عن كونها أتحفت التاريخ ببناء الحضارة المثلى التي لا تشكو من المعوقات. وتسيير ذلك كله في مسالكه التي ترتفع بالأمة إلى مصاف الأقوياء الكرماء الذين لا يعوزهم الانضباط بضوابط الخير واحترام الإنسان، والتطلع إلى مرضاة الله والعقبى يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وعناية القرآن بالإنسان على صعيد التكامل المنشود في البناء: خير دليل لما نقول. أرأيت كيف اتجهت الآيات في العتب على من حصلت منهم الغفلة، وانتابهم شيء من الضعف عن تحقيق مقتضيات الطاعة الواجبة في ساحة الجهاد.. وجهة الإفادة من الواقعة لمزيد من الإعداد والتكوين! ومزيد من إلقاء الأضواء على بؤرة الضعف كي تجتنب، والغفلة كي يكون المجاهد عنها بمنجاة، ثم ربط ذلك كله بمحورية البناء السليم دون قيد المكان والتاريخ، وإنماء المشاعر الإيمانية الصادقة التي ينتفع بها حتى الذين يجيئون من بعد من حصلت منهم الواقعة، ولا تسل عما يلاحظ من إشراق الكلمات الهاديات بالتوجيه إلى توفير الحوافز التي تجدي جدواها حين تنطلق من العقيدة ومحبة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، وتنبعث انبعاثاً ذاتياً غير مرهون بتكلف، أو رغبة بمغنم مادي.

ثم أرأيت إلى تحويل الأنظار إلى الاعتبار والمقايسة، وسنة الله المناطية في عونه لمن صدقوا مع أنبيائهم، فلم يضعفوا تحت مطارق الشدة من داخل النفس أو من خارجها، ولم يستكينوا لوطأة الظروف المتقلبة، والمعوقات التي قد لا تكون في الحسبان!! ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[آل عمران: ١٤٦].

ألا ما أوضحه دليلاً على صدق الانتماء إلى رسالة خاتم الأنبياء الذي أخرجنا الله ببعثه من الظلمات إلى النور: أن تجعل الأمة ـ على صعيدي التنهيج والتطبيق ـ من معالم الكتاب العزيز خير نبراس في رحلتها عبر ميادين الحياة، وبخاصة ميدان بناء الإنسان المؤهل لتحقيق الغايات الكبار، كما يشاء ربنا تبارك وتعالى، وكما يتسق مع البيان النبوي قولاً وعملاً في السنة المطهرة والسيرة العطرة.. الإنسان الذي كرمه الله وأهلّه الخلافة في الأرض.

ومن أجدر من المسلم ـ أن لو أنصف وحزم أمره على طريق الخير والبناء السليم ـ في أن تقوم على يديه اليوم بنية حضارية لا ترهقها منطلقات الحضارة الحديثة، وما عليها من مؤاخذات، والله يحكم لا معقّب لحكمه وهو أسرع الحاسبين.



المثل القرآني.. والبناء

«١»

جرى القرآن الكريم على استخدام المثل في معرض بناء الإنسان على العقيدة وتمثُّل الحقائق التي جاءت بها رسالة الإسلام، ويقوم المثل على تقريب الأمر المعنوي إلى الإدراك: بأمر مادي يحسُّه القارئ أو السامع فيكون ذلك أعون على فهم المراد.

والناظر في معالم الكتاب العزيز يجد عدداً كبيراً من الأمثال التي يحسُّ من خلال عرضها وكيف تخرج بالمرء من ساحة الإبهام إلى ساحة الوضوح، صورة من صور الإعجاز في هذا الكتاب الذي قال اللَّه تعالى في شأنه: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[الإسراء: ١٤٦].

انظر إليه ـ على سبيل المثال ـ وهو يقرب عقيدة التوحيد إلى الأذهان وينفي عقيدة التثليث وألوهية عيسى عليه السلام، كيف يذهب بالإنسان إلى خلق آدم عليه السلام، وأن عيسى وآدم في ذلك سواء، فكيف يكون عيسى معبوداً وهو عبد مخلوق؟! وإذا كان قد ولد من غير أب فهي قدرة اللَّه تعالى التي خلقت آدم من طين ذلكم قوله تعالى في سورة آل عمران:﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[آل عمران: ٥٩].

وفي قضية اعتقادية لا بد أن تأخذ مكانها في البنية الفكرية للمسلم، وهي أن اللَّه نور السماوات والأرض، به قوامها وضياؤها، وصفة هذا النور في قلب المؤمن: نقرأ في سورة النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾[النور: ٣٥].

وفي تنمية لاعتزاز المؤمن بإيمانه، وأن ما هو عليه منتهى الفكر الصائب، وأن الذين اتخذوا من دون اللّه أصناماً يرجون نفعها: مثلُهم في ضعف العقل وتفاهة الفكر وانهدام النفع فيما يسلكون: كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً لنفسها تأوي إليه وهو بيت لا أضعف منه، فهو لا يدفع عنها حراً ولا برداً، وكذلك الأوثان لا تنفع عابديها.. في هذا المجال من تنمية هذا الاعتزاز الذي ينعكس على حركة المؤمن لنفسه وللمجتمع طمأنينة ومزيداً من الثقة: يقول اللّه تعالى في سورة العنكبوت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[العنكبوت: ٤١] .

أرأيت إلى قوله ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾كم اتخذ المعرضون عن الدين الصَّادون عن سبيل اللّه ـ ويتخذون في تقليد الأعداء ـ بيوتاً مثل بيت العنكبوت، فكان ذلك دليل الجهل والحيرة. إن ضرب المثل قصة كبرى على طريق التربية والإعداد وتنمية المعرفة والإدراك، ومعلم قرآني يضيء طريق العاملين البناة والعاقبة للمتقين.



البناء وبيت العنكبوت.. في المثل القرآني

«٢»

كانت لنا من قريب لماحة إلى بعض الأمثال في القرآن الكريم، تبينا من خلالها أن ضرب المثل في هذا الكتاب العزيز، واحد من المعالم النيرة على طريق الهداية، في إعداد المسلم، وبنائه على قاعدة من الرسوخ في عقيدته وفكره، وتنمية اعتزازه بدينه، وثقته بأن ما أكرمه الله به من الإيمان والالتزام بالمنهج: هو الحق الذي لا يعكر صفوه شيء من الباطل.

وما من ريب في أن هذه القضية ذات ارتباط بعملية البناء التي يجند الإسلام أبناءه لها، عملية البناء التي تتسم بالإحاطة وسلامة الهدف، والعناية بالوسائل والأخذ بالأسباب التي تتسق مع الهدف.

نقول ذلك لأن طمأنينة الفرد المسلم بعقيدته الربانية ومنهجه الذي يسلكه، يبعث في نفسه عوامل الاندفاع الذاتي، وينمي تلك الحوافز التي تفقدها الأمة عند أولئك القلقين المصابين بتمزق الفكر، واهتزاز الثقة بالغاية والوسيلة جميعاً.

وكلما تفاقمت مسؤولية التغيير إلى ما هو الأفضل، كان قطع المسافة بين الواقع وما يجب أن يكون بحاجة أكثر إلى الفرد الواثق المطمئن، والجماعة التي استقام عودها الطريق الموصل إلى الهدف بإذن الله.

وفي لمسة من لمسات الإعجاز القرآني يشهد المرء ـ دائماً ـ ويوماً بعد يوم ـ الوقائع التي تزيد المؤمن يقيناً بما دلت عليه معالم الكتاب العزيز. وقد أشرنا من قريب إلى صنيع أولئك المعرضين عن الدين كيف اتخذوا في تقليد أعداء الله وحسن الظن بهم وبفكرهم الغازي بيوتاً مثل بيت العنكبوت وإن أوهى البيوت لبيت

العنكبـوت. فكمـا أن بيت العنكبـوت لا يدفـع حـراً ولا برداً ولا يقي من أي عـارض، كذلك الفكر الغازي والمبادئ المستوردة تثبت الوقائع يوماً بعد يوم أنها ليست في مصلحة الإنسان، ولا في ساحة الحق، وأنها بمنأى عن كل القيم المدّعاة.

حقاً إن أوهى البيوت لبيت العنكبوت، وإن ما يجري اليوم على الساحة في العالم الإسلامي ـ بوجه عام ـ وفي بعض أقطاره ـ على وجه الخصوص ـ لأكد دليل على أن الإعراض عن حقائق الإسلام في عقيدته وما شرع للناس في فكرهم وسياستهم واقتصادهم روابطهم الاجتماعية والأخلاقية واستبداله مناهج الآخرين وأنظمتهم بهذه الحقائق: هو اتخاذ بيت مثل بيت العنكبوت.

ولكن أين أين الذين يعلمون فيصفون، ليدركوا بعد انتكاس التجارب ومرارة الواقع ما يجب أن يدركوه.

ومن هنا كان من الضرورة بمكان تعميق المفهومات الإسلامية على طريق البناء ورصد الوقائع التي تدل على أحقية تلك المفهومات، وأن الاجتهاد السليم لا يعجز عن تقديم البدائل عما يقلّد تقليداً لا هوادة فيه!



المثل القرآني.. والبناء «لو كانوا يعلمون» «٣»

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ما ختمت به الآية الحادية والأربعون من سورة «العنكبوت» حين مثّل القرآن لأولئك الذين يتخذون من دون اللّه أصناماً لا تضر ولا تنفع، بالعنكبوت التي اتخذت بيتاً، وإن أوهى البيوت لبيت العنكبوت، فهو لا يدفع حراً ولا يقي برداً ولا يحجز عن عارض أرضي أو سماوي.

إن هذا البيت وهو أوهى البيوت لا يدفع ولا ينفع، فكذلك الأصنام التي يتخذها هؤلاء المشركون لا تغني عنهم شيئاً فلا تجلب لهم منفعة ولا تدفع مضرة.

ويستوقفك قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فأي علم في أن يقيم الإنسان على عبادة صنم ربما صنعه بيده، وهو جماد لا يملك الإرادة فضلاً عن أن ينفع عابده أو يدفع عنه الأذى.

وعلى صعيد الواقع اليوم.. أي علم في أن يستمسك مستمسك بما دل الواقع ونطقت التجربة بفساده، فضلاً عن مخالفته في الأصل لما جاء عن اللّه وعن رسوله عليه الصلاة والسلام.

والحق أن عطاء المعلم القرآني على ساحة المثل، باب عريض من أبواب الخير، نشعر معه أن الآيات تتنزل اليوم غضة طرية، لتعطينا الجواب الشافي عن قضايانا، وتحل بمنتهى الوضوح مشكلاتنا. والأمة مدعوة اليوم ـ وفي العالم الإسلامي متغيرات، وعلى العديد من أقطاره عدوان ظاهر مستعلن شرس أو خفي ماكر مبرح ـ: أن تتخذ من الواقع ـ على مرارته ـ حافزاً جديداً إلى إحكام البناء في ثقافة الفرد وتكوينه، وتنمية قدرته على الحكم وفق سنن اللّه وإعطاء الوقائع أبعادها

وحجمها الطبيعي، كيما يدرك بثقافته الإسلامية والعامة ومعرفته بالواقع أن هذه المتغيرات في العالم الإسلامي لها نتائجها القريبة والمتوقعة، وأن العدوان على أي من بقاع الإسلام يخلف ـ فيما يخلف ـ ألواناً من التعويق للمسيرة الاقتصادية وتنمية قدرة الأمة على متابعة رحلة البناء من أجل التغيير، ناهيك عن الأمور الأخرى والعياذ بالله.

والآن والبناء الثقافي الذي نلمح إليه بما يجعل عند الفرد والجماعة من ملكة قادرة على تبين ما هو خطأ وما هو صواب، ويزيل الغشاوة ـ بإذن الله ـ عن تلك الأبصار التي عانى أصحابها من عقدة أعداء الحق في حضارتهم وثقافتهم: كم نتمنى أن يعود الجانحون، ويستيقظ الغافلون:

مرة أخرى: نريد ونحن نيمم الوجوه شطر البناء المتكامل في المجتمع، وتنمية استقلال الأمة الذاتي فيما تريد: وفيما لا تريد: أن نفيد من عطاء المعلم القرآني ونجنب الجيل ما نبّه إليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أجل لو كانوا يعلمون، وإذا علمنا بحق وأخلصنا: قضينا ـ بإذن الله ـ على عوامل التعويق والهدم، وأكرم بما يترتب على ذلك من عثرات!.



المثل القرآني.. والبناء

«وما يعقلها إلا العالمون»

«٤»

لم يقف الأمـر في المثل الذي عرضنا له من قريب عند ختم الآية بقوله تعـالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ولكنا نقرأ بعد هذا في ضوء المعلم القرآني على ساحة المثل قوله تعالى في الآيتين الحادية والأربعين والثانية والأربعين من سـورة العنكبوت نفسـها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[العنكبوت: ٤٢-٤٣].

إن أولئك المشـركين لا يعلمـون، ولكن الله يعلم مـا يدعون من دونـه من شيء، وهو الغـالب على أمره، الحكيم فيمـا رضـي لعبـاده وشـرع لهم، يضـع الأمور في مـواضعهـا دون وكس ولا شطط.

وفي الآية الأخيرة ـ كمـا يلاحظ ـ دعوة للتبصـر بالأمثـال القرآنيـة التي يضربهـا الله للناس كي تكون دليل العلم: أن يعقلها الناس ويدركوا مراميها القريبة والبعيدة.

ومن إعجاز القرآن: أنه يستعلي على حدود الزمان والمكان، فقبل أربعة عشر قرناً يضـرب الله مثل بيت العنكبوت ـ في ضعفـه وانتقـاء قدرته على مقاومـة أي شيء ـ لأولئك الذين يتخذون لله الأنـداد يتعبدون أصنامـاً لا تملك لهم ضـراً ولا نفعاً، وتنظر اليوم فترى كأن القـرآن يتنزل ـ مـذكـراً منذراً ـ علـى واقـع يتنافـى مع الوجود الذاتي للأمة في كثير من الأحيان.

وإذا كـان القـرآن في مـعـالمه الغـزيرة بـالعطاء غـيـر المحـدود بـالزمـان والمكان والأقـوام كـذلك، فـإن من حق القـرآن على الأمـة أن توظف هذا العطـاء بمنهـجـيـة وموضـوعيـة علـى سـاحـات البنـاء، وبخـاصـة في طريقـة التفكيـر ومحـاكمـة القضـايا

التي يطرحها الواقع. وأنت ترى أن التعبير القرآني جاء بالحصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ليشُدَّ أبناء الأمة وأجيالها إلى أن يعقلوا تلك الأمثال ولا يكون ذلك إلا بمزيد من المعرفة وصلة بالعلم.

وليس من المغالاة أن نقرر أن كل جوانب البناء في المجتمع، ما كان منها على صعيد الفكر أو التنمية الاقتصادية الاجتماعية والبشرية تفتقر إلى تبين الطريق، وأن لا يقع العاملون في تهلكة الجهالة أو اللامبالاة، أو ما يكون من وضع الأمور في غير مواضعها، والمخالفة عن سنن الله، الأمر الذي قد يوقع ـ لا سمح الله ـ فيما دلت عليه أبعاد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ألا وإن مقتضى النظرة العلمية الفاحصة أن يتحوَّل في النفوس معنى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ إلى إدراك بعيد المدى لقيمة المثل في بناء الفرد والمجتمع، والحجم الكبير الذي يعطيه المعلم القرآني للعلم الذي يمكِّن أصحابه من أن يعقلوا ما أراد الله لهم من الخير حين ضرب لهم الأمثال والله الموفق بيده الخير وهو على كل شيء قدير.



مثل الكلمة الطيبة.. والبناء الإنسان.. والتذكر

بناء الإنسان في عقله وقلبه وكل كيانه الروحي والمادي على العقيدة الصحيحة، والقدرة على سلامة التعامل مع أخيه الإنسان ومع الكون والحياة أداءً لرسالته في الوجود.. هذا البناء ميدان مشرق من ميادين الهداية في القرآن الكريم.

وكان من فضل الله تبارك وتعالى على الناس، أن يسَّر القرآن للتذكر، ودعا إلى هذا التذكر بوجوه وأساليب متنوعة، كيما تتحقق الهداية، وتعملَ معالم الكتاب العزيز عملها في بناء حياة أفضل يسلك العباد من خلالها سبيل السعادة في الدنيا والآخرة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[القمر: ١٧] وأعداد أخرى.

وعلى هدي هذه الحقيقة: كان من هذا التيسير الذي يقطع العذر، ويحول دون التخلف عن واجب التدبر والعمل ـ كما أسلفنا فيما سبق من القول ـ ما نجد من ضرب الأمثال في الكتاب الكريم، وبيان أن الله يضرب هذه الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ففي سورة إبراهيم: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥] وفي سورة النور: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[النور: ٣٥] ومن أجل هذا التذكر النافع الذي ينعكس على عملية التحويل في الفرد والمجتمع من الجاهلية إلى الإسلام، تجيء الدعوة إلى العلم لعقل هذه الأمثال. وذلك ما نجده في سورة العنكبوت ـ كما سلف ـ من قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[العنكبوت: ٤٣] وفي سورة الحشر نقرأ قوله جل وعز: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر: ٢١] والتفكر والتذكر توأمان.

وما من ريب في أن الدعوة إلى التذكر والتفكر وكل ما يعين عليهما. صورة من صور التكريم الذي خصّ الله به الإنسان، وأين من ذلك المخلوقات الأخرى في هذا الكون العريض.

كل أولئك بتقريب المعاني المرادة، وجلائها للفهم، وذلك بتصوير الأمر المعنوي بصورة محسَّة ملموسة، وتقريبه إلى الذهن تقريباً يسهل للعقلاء ملاحظته ورسوخه.. وهذه الأمثال: تقودنا ـ عبر معالم القرآن الكريم ـ إلى واحدٍ منها، ضربه الله سبحانه للكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» كلمة التوحيد، وللكلمة الخبيثة كلمة الكفر، ذلكم قوله جلت حكمته في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧]. وإلى أن نلتقي على الاستضاءة بنور هذا المثل إن شاء الله أود أن أنبه على ما يفعله التقريب لكلمة التوحيد إلى الذهن على هذه الصورة المعجزة: من تعميق لليقين وإيقاظ دائم للعقل والقلب وإنماء الحوافز. ناهيك عن وضوح الرؤية على طريق البناء والإنماء في كل ميدان يتحرك عليه صاحب هذه الكلمة الطيبة المؤمن بها، ولا تسل عن الوثوق بالمنهج الذي يضمن بعون الله الطمأنينة والاستمرار.



إعداد المؤمن.. والبناء والكلمة الطيبة «٢»

كما تؤتي الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء أكلها كل حين بإذن ربها، وتمنح الطيب من ثمرها.. كذلك تؤتي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» هدايتها للعالمين ونورها الذي يضيء دروب المؤمنين كل حين وعلى جميع الأصعدة في النفس الإنسانية وفي المجتمع، وتأخذ بيد من يتخذونها محور حياتهم إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسلوكية وغيرها في الدنيا، وما فيه منجاتهم في الآخرة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

إنها تعطي عطاءها كاملاً حسناً كثيراً طيباً تتبدَّى آثاره في بناء الفرد وصياغة المجتمع بل وصناعة التاريخ.

والإنسانية حين تتفيأ ظلال كلمة التوحيد وتلتزم بحقها في كل الشؤون؛ عقيدة وشريعة وعلماً وأخلاقاً، فتلكم الطمأنينة والحضارة التي تسعد الإنسان.. أما حين تتوجه غير هذه الوجهة: فذلكم الشقاء والفوضى وضياع الإنسان.. ولن يغني غناءها في هذه الحال علم مجرد أو انتصارات عقلية مبتورة عنها. والواقع العالمي اليوم في كثير من بقاع الدنيا خير شاهد لما نقول.

ولكن ما هي هذه الشجرة الطيبة التي كانت محور المثل؟ إن رسول الله ﷺ وهو يبني إنسان الرسالة ويقيم المجتمع القوي الفاضل بعد التعفية على رواسب الجاهلية وأوضارها، كان لا يفتأ يحرك أذهان أصحابه ـ وينمي قدرتهم على المحاكمة، ويزيد من صلة عقولهم وقلوبهم بمعالم الكتاب الذي أنزله الله هدىً وشفاء ورحمة: صلة حب وتدبر وتذكر، ومن خلال هذه الصورة من صور البناء كان التعريف بهذه الشجرة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «**أخبروني عن شجرة تشبه ـ أو ـ كالرجل المسلم لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاءً ـ أو قال: ولا ولا ولا، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها» قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا). وفي رواية مختصرة للبخاري ومسلم عن ابن عمر أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها مثل المؤمن» قال: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في قلبي أنها النخلة، فاستحييت حتى قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة» وفي رواية: «أخبروني بشجرة».**

الجديد في الموضوع أن رسول الله ﷺ انتقل بنا إلى تشبيه هذه الشجرة التي لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاءً وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها: بالمؤمن.. صلى الله وسلم على معلم الناس الخير، كلمة التوحيد منبع عطاء والمؤمن الذي يحصل له الوجود الذاتي بها حين يفسح لها لتكون ضياء قلبه وعقله يصبح منبع عطاء لنفسه ولمجتمعه وأمته.

أرأيتم: الشجرة الطيبة التي ضربها القرآن مثلاً لكلمة التوحيد، يشبهها الرسول ﷺ بالمؤمن، هل كثير بعد هذا أن نقول: إذا أردنا بناء الحياة على الوجه الأمثل فليكن في حسباننا من أول الطريق البناء المتكامل للمؤمن الذي استنار قلبه وعقله بعقيدة التوحيد وذاق حلاوة الإيمان الذي تخالط بشاشته قلوب الموفقين؟!



قيمة.. على طريق البناء
الكلمة الطيبة.. والمؤمن
«٣»

في كلام موصول بما عرضنا له فيما سلف من الإشارة إلى المثل الذي ضربه القرآن للكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» تحسن العودة إلى الإلماحة في تشبيه رسول الله ﷺ للشجرة الطيبة وهي النخلة بالمؤمن، لنرى صنيع إمام البناة بهذه النقلة كيف كانت.

فالله تبارك وتعالى يقول خطاباً له عليه الصلاة والسلام أو لكل من يعي الخطاب: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[إبراهيم: ٢٤-٢٥].

من هنا ـ والله أعلم ـ من قوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ انتقل رسول الله بالأمة من الكلمة الطيبة إلى من يحملها وينتمي إلى دلالاتها ومنهجها في بناء الحياة بصدق ـ حيث يصحب الإيمان عمل صالح في كل ميدان من ميادين البناء؛ فالإيمان يزداد وينمو، والعمل الصالح يزداد وينمو، حتى يكون من وراء ذلك استيعاب كل الأنشطة والجوانب، استيعاباً لا تعوزه عقيدة صحيحة تكون أساس الحركة، وعلم ينظم المسيرة، وإخلاص يحول دون الانحراف والتقاعس والثغرات.

فأنت واجد أن الله تبارك وتعالى قد قرَّب لعباده من طريق المثل ما تفيض به حكمة التوحيد بالعطاء والنماء والخير، لما أنها القاعدة التي يقوم عليها البناء تشريعاً وتنظيماً وعملاً وسلوكاً ضمن إطار ينتظم شؤون الحياة دونما استثناء، ولما أن العمل بمقتضاها طريق الفوز بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

ولما كان الإنسان هو المحور في ذلك: انتقل رسول الله ـ وهو يربي ويُعِدُّ للبناء والنماء ـ هذه النقلة من الكلمة إلى من يحملها ويؤمن بها؛ فالإنسان هو المخلوق الذي أنيط به أن يضع بإذن الله أبعاد كلمة التوحيد وما تقتضيه في حياة الفرد والجماعة: موضع التطبيق، فهو المخاطب بهذه الكلمة الطيبة، وهو المكلف بأداء الأمانة التي تنبثق منها؛ فشريعة الإسلام في بنائها للحياة، ونظام الإسلام في الأخلاق والسلوك؛ كل أولئك منوط بالإنسان؛ فإذا وجد الإنسان المسلم الذي يحسن تصور هذه الحقيقة، ويسلم له العمل بمقتضاها ـ كما ينبغي ـ كان من وراء ذلك الخير الكثير؛ ولقد شهد تاريخ الإنسانية كيف بنى أبناء هذه العقيدة حضارة الإنسان بعيداً عن الظلمات التي تغشى حضارة الآخرين اليوم.

هكذا بكل وضوح، بعثاً للعزائم، وإثارة للحوافز، وإنماء للاندفاع الذاتي بسلطان العقيدة يقول عليه الصلاة والسلام: **«أخبروني عن شجرة تشبه ـ أو كالرجل المسلم ـ لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاءً وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها».**

إن هذا الهدي النبوي في بيان لمعالم القرآن الكريم: جدير أن يقفنا بثبات وشموخ عند المنهج الذي يبني المؤمن بناء يجعل منه طاقة فاعلة تعطي عطاءها في كل ميدان، وقيمة أساسية من قيم التحول عن ساحة التخلف إلى وجه المنعة والرفعة. والآخرة عند ربك للمتقين.



الشجرة الطيبة.. ومثل المؤمن في ساحة البناء

«٤»

حين يجعل رسول الله ﷺ من المؤمن إنساناً دائم العطاء، ويجعل الشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها شبيهة به أو مثله، فتلك قضية كبرى يطرحها رسول الهداية على طريق الأمة التي خوطبت بالرسالة الخاتمة رسالة الإسلام.

وهي حقيقة جديرة بأن توظف في ميادين التربية والتعليم والإعداد بجميع صنوفه وأشكاله بشكل منهجي موضوعي، يحدث جديداً في عالم بناء الإنسان الذي نعده لعملية التحويل الكبرى، تلك التي نرجو الأمة من ورائها ـ عودة حميدة ـ إلى أن تمسك هي بعاتق الميزان في العالم، وأن تكون لها الكلمة النافذة بين أمم الأرض، كيما تنقذ نفسها وتنقذ البشرية من ويلات الأقوياء والمتغطرسين من أعداء الإنسان، الذين نعاني ويعاني غيرنا من ظلمهم وإعناتهم الكثير الكثير.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ هذه الكلمات النورانية التي جاءت في خاتمة الآية الثانية لمثل الكلمة الطيبة، علمنا رسول الله من خلالها كيف يكون التذكر هنا؛ فكشف عن أن الحقيقة تكمن في أن تُحمل أمانة العقيدة بحق، وأن يفي المسلمون بعهد الله في التزام مقتضاها بصدق.

والأسلوب الذي سلكه من طريق السؤال على الشكل الذي رأيناه، أسلوب يعمل عمله في إثارة الذهن وتثبيت المعلومات التي يريد المربي تثبيتها.

ورسول الله في هذا لم يكن معلماً يحرك الذهن للفكرة وكفى، ولكنه يثيرها في الأذهان، ويمد يده الصناع كيما يصوغ الإنسان، فيكون صورة حية لها ناطقة بوجودها.

وأود أن أنبه هنا على أن ضرب الصحابة في شجر البوادي وعدم تنبههم السريع إلى النخلة لم يكن من فتور ذهني أو غيبة عن الموضوع، ولكنه لم يخطر ـ ببالهم ـ والله أعلم أن يكون السؤال من رسول الله عن هذه الشجرة التي تعيش معهم ويستمتعون بخيراتها صباح مساء.

وهذا ـ كما أشرت ـ كان أدعى لتثبيت الحقيقة التي أثارها رسول الله في الأذهان حين طرح السؤال.

هذه واحدة، أما الثانية: فهي موقف الأدب والحياء من الفتى عبد الله بن عمر، الذي قابله موقف أبيه بأن النطق بكلمة المعرفة إجابة عن سؤال رسول الله كان أغلى عنده من حياء عبد الله في هذه القضية؛ الأمة الأمية، يربي رسول الله أبناءها على عقيدة التوحيد، فيصبح العلم غاية من أعظم غاياتها، فكانت كلمة عمر لابنه عبد الله رضي الله عنهما حين اعتذر بالحياء أن يتكلم وكبار الصحابة لم يتكلموا (**لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا وفي رواية أحب إلي من حمر النعم**).



العقيدة.. ورحلة البناء وحق الكلمة الطيبة

«٥»

رحلة الأمة إلى غدها المرتقب، عبر مناخ أثرت في نسيجه عوامل من داخل الصف ومن خارجه، وزادت في وضوح ملامحه ـ ضعفاً ـ وقوة، متغيرات وظروف من الواقع هنا وهناك.

هذه الرحلة ـ وهي رحلة على دروب البناء بكل ما تعنيه أبعاد البناء، وما يجب أن يرافقها من تنمية للطاقات الفاعلة المنتجة.. مؤشراتُ نجاحها في الاستمرار والوصول إلى الأهداف المرسومة، أن يظلل خطواتها إحكام الارتباط بالكلمة الطيبة، كلمة التوحيد «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه» التزاماً بحقها في حياة الفرد والمجتمع، وصدقاً في متابعة السير على هداها، دون وقوف عند المعوقات والصوارف مهما كان شأنها، لأن مما تقتضيه طبائع الأشياء: أن يقيم الباطل عقبات على طريق الحق وأهله.

وهذا الذي نشير إليه بشأن رحلة البناء الحقيقي والنماء، حقيقة هدانا إليها واحد من المعالم القرآنية في سورة إبراهيم ـ كما رأينا في كلام سلف من قريب ـ حيث بيّن اللّه تبارك وتعالى في هذه السورة المكية للجماعة المسلمة وهي ما تزال في مكة قبل الهجرة، والمشركون يستضعفون المؤمنين ـ وهم قلة في العدد ـ ويعملون على محاصرتهم، وإغلاق منافذ الحياة دونهم، ولا يألونهم إرهاقاً وظلماً وعسفاً... بين اللّه جلت حكمته أن عقيدة التوحيد لا بد أن تكون المنطلق في هدم الباطل بكل شعبه ومظاهره، وبناء صروح الحق على أنقاض هذا الباطل، ولا بد أن تكون نور

الهداية عند مزاولة الهدم والبناء، لما أنها هي النبع الخيِّر الذي لا ينفد عطاؤه بإذن الله، فهي تعطي وتعطي في شمول للإنسان والزمان والمكان... إنها تبني الإنسان والحياة دون انحسار عند زمان أو مكان.

وتقريباً لهذه الحقيقة في عمقها وسعة ميادينها والجوانب التي ترعاها، ضرب الله المثل لكلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. ذلكم قوله تبارك وتعالى في هذه السورة سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[إبراهيم: ٢٤-٢٥].

وفي دعوة إلى فهم الأمثال بنفاذ ـ ومنها هذا المثل العظيم ـ كيما يكون من وراء ذلك: التذكرُ النافع قال سبحانه في ختام الآية الثانية من الآيتين: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

والتذكر النافع هنا هو الذي يحمل على العمل بحق «لا إله إلا الله محمد رسول الله» في استقصاء لجميع الشؤون اعتقاداً، وعلماً، وعبادة، وتعاملاً، أداء للواجبات، وحفاظاً على الحقوق، وتنمية لكل الحوافز التي تجعل من الفرد لبنة قوية في مجتمع مؤمن قوي.. وتلكم مؤشرات نجاح المرحلة إلى الغد المرتقب بإذن الله.

وطوبى لأهل الاستقامة العاملين بحق الكلمة الطيبة في كلِّ الميادين!



منعطف.. على طريق البناء

إن الضميمة التي هي توأم الحديث عن الكلمة الطيبة في المثل المضروب في سورة إبراهيم، هي ما كنا أشرنا إليه فيما سلف من القول من أن الإنسان هو المؤهل لأن يضع حق «لا إله إلا الله محمد رسول الله» بكل مقتضياته وأبعاده موضع التنفيذ في نفسه وفي مجتمعه وأمته.

ومن أجل ذلك ـ والله أعلم ـ شبه رسول الله ﷺ الشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وهي النخلة ـ كما صحت الرواية عنه ـ بالمؤمن، وكان ما كان من سؤاله الصحابة عن ذلك.

وإذا توافر لدينا الحرص على أن نتمرد على واقع التخلف والضعف، وأن نحسن الانطلاق في ساحات البناء المتكامل المتوازن، والإفادة من خيرات وإمكانات مادية وبشرية أعطاها الله لهذه الأمة.. إذا توافر لدينا هذا الحرص كان لزماً أن نصوغ الفرد والجماعة على الكلمة الطيبة والقيام لكل ما هو حق الإسلام في لا إله إلا الله. محمد رسول الله وكان ذلك أخذاً من قوله عليه الصلاة والسلام كما روى البخاري: **«فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»**. والكلمة التي ألقاها إمام المعلمين والمربين عليه الصلاة والسلام سؤالاً عن الشجرة الطيبة التي تشبه المؤمن، كانت صورة من صور عنايته ببناء أولئك الذين يؤهلهم لحمل رسالة البناء في ظل كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله». تلك الكلمة التي كانت تعني تحولاً جذرياً في حياتهم وتصوراتهم. نعم ولقد أراد صلوات الله وسلامه عليه أن تكون هذه الكلمة عنوان تحول جذري لا في أعماق الإنسان فحسب، ولكن في منهج الحياة بكامله ـ كما هي طبيعة الرسالة ـ فالمعبود بحق هو الله، وهو جل وعلا

قد تعبّد عباده بما شرع لهم ونظم حياتهم بما يسعد في الدنيا والآخرة.. وذلكم هو حق» لا إله إلا الله.. أن تكون شرعة الله الذي لا معبود بحق سواه: هي منهج حياة الناس.

ولقد كان من آثار ذلك ما رأينا من بناء المجتمع الإسلامي اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وسلوكياً على أكمل الوجوه، وما شهد التاريخ من حركة إيمانية أيقظت الغافلين، وجدّدت العزائم، وعملت على تنمية كل الناعليات والقدرات، وكان ذلك كله روافد خيّرة على طريق البناء الحضاري الذي أراده الإسلام.

ومن النماذج التي كانت منعطفاً نيِّر الدلالة في تاريخنا بالغ الأثر في أن تكون للأمة استقلاليتها وذاتيتها على دروب البناء الذي يمتد إلى هنا وهناك ولا تستثن: موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه من مانعي الزكاة، حيث أبان وهو يتولى مسؤولية الأمة في مواجهة تحديات المرتدين، واحتمالات الانقضاض في الصرح الشامخ العظيم.. أبان أن حق «لا إله إلا الله ـ وهو حق الإسلام ـ ليس كلمات لا تتجاوز اللسان، واقتصاراً على أداء الصلاة، ولكن التزام بكل ما أمر الله: فمن حق «لا إله إلا الله»: أن تؤدي الزكاة التي هي أهم ركيزة من ركائز التكامل الاجتماعي وضمان المجتمع المسلم.

وفي ضوء هذه الحقيقة: قال رضي الله عنه: **«والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول لله ﷺ لقاتلتهم عليه»** .



العلاقة بين مثل الكلمة الطيبة.. وآية البر

ما هدانا إليه المعلم القرآني في ظل المثل القرآني للكلمة الطيبة كلمة التوحيد، وأن حقها هو حق الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده منهج حياة يضمن لهم خير الدنيا والسعادة يوم الدين.

ما هدانا إليه هذا المعلم الكريم يقفنا على بعض من وجوه الحكمة من إيراد القرآن الكريم ـ وهو يبين حقيقة البر ـ لأمور تتعلق بالإيمان، وأخرى بأركان الإسلام، مضموماً إليها نماذج من الأخلاق، ومظاهر السلوك، على صعيد الفرد، والجماعة، وما ينبغي أن يكون سمة المجتمع الذي ينشد الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي.

كالذي نرى في الآية السابعة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾[البقرة: ١٧٧].

ومعلوم أن البر هو الإيمان، بل هو الكلمة الجامعة لكل صنوف الخير. ولقد كان من سبب نزول هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه في صلاتهم إلى بيت المقدس، ثم حوّلهم إلى الكعبة يتوجهون شطرها عند أداء هذه العبادة ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[البقرة: ١٥٠] لما حصل ذلك شق الأمر على بعض المسلمين وأثار استغلال اليهود لهذه القضية في محاولة التشكيك وزعزعة القلوب وذلك ما أشارت إليه آية أخرى من

سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٢].

وكان نزول آية البر بياناً لحكمة اللَّه تبارك وتعالى فيما يشرع لعباده، وأن المراد طاعة اللَّه عز وجل، وامتثال أمره، والتوجه حيثما وجّه، واتباع ما شرع، فهؤلاء العباد المكلفون: عباده والكون بجهاته وكل ما فيه: ملكه سبحانه وتعالى؛ وذلكم هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليست القضية قضية توجهٍ إلى جهة من الجهات مبتورٍ عن أمر اللَّه تعالى.

والذي يستوقف الناقد البصير: أن الآية تجاوزت ظاهر التوجه إلى جهة من الجهات، لتعطي التعريف الكامل للبر بسعته وشموله ـ كما أسلفنا ـ ميادين حركة الإنسان وبناء المجتمع. وكان هذا التعريف من الوضوح بحيث أُبعد التوجه الذي لا يرتبط بأمر اللَّه عن أن يكون هو البر وذلكم ما أعلنه قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] ثم جاء البيان الواضح الشافي للبر وكثير من ميادينه فقال جل وعلا: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية. فالبرُّ برٌّ من استوفى هذه الكلمات في العقيدة والأخلاق والسلوك.

وإلى لقاء قريب نسعد فيه بدلالة المعلم القرآني من خلال إعطاء هذه الآية الجامعة إن شاء اللَّه.

البناء.. وسبب نزول آية البر

تشبيه رسول الله ﷺ المؤمن بالنخلة من حيث تعدد وجوه العطاء وكونُه العطاء الخير النافع ـ كما أسلفنا من قريب ـ هذا التشبيه نقلنا في ظلِّ المعلم القرآني الذي مثَّل الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة.. إلى آية البر وهي الآية السابعة والسبعون بعد المائة من سورة البقرة. وقد علمنا أن هذه الآية الجامعة نزلت بياناً لحكمة الله تعالى في أمر المسلمين بالتحول عن التوجه إلى بيت المقدس في الصلاة والتوجه شطر المسجد الحرام، بعد أن ظل رسول الله والمسلمون يتوجهون إلى بيت المقدس ـ بأمر الله ـ بضعة عشر شهراً.

والإجمال الذي ألمحنا إليه في معنى الآية خلال كلمات سلفت: لا يغني عن التنبيه على ما يزيدنا صلة بها، ولا سيما إذا نظرنا إليها من خلال الواقع، تصحبنا واحدة من البدهيات عند المنصفين، عمادها أن تبين الطريق في ضوء معالم الكتاب العزيز، هو ما ينبغي أن يكون نقطة البدء، والمنطلق الحقيقي لسلامة البناء الذي تتطلّع إليه الأمة على صعيد الفرد والمجتمع.

فطائفة من أهل الكتاب ـ واليهود منهم بخاصة ـ بحكم وجودهم في المدينة المنورة، وما شاعت نفوسهم من الغل، وأصاب قلوبهم من الحقد على رسول الله ﷺ والمسلمين: لما رأوا من انتصارات الدعوة الجديدة، في كل الميادين.. هؤلاء الأناسي شرعوا يقولون: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، والمهم أن يتوجه المصلي إلى جهة من الجهات ووجدوها فرصة سانحة للدّس ومحاولة إدخال الريبة على ضعفاء النفوس.

والتعرف إلى هذه النقطة التي كانت سبب نزول الآية وحجمها على مسيرة البناء، حين كان رسول الله ﷺ ينشئ مجتمع المدينة إنشاءً يستوعب ـ في ظل دعوة الإسلام ـ كل مقومات المجتمع القوي النظيف.. أقول: التعرف إلى هذه النقطة يزيد

من وضوح الرؤية اليوم في علاقة أمتنا باليهود؛ فما يشاهد من استخدامهم الدس والاصطياد في الماء العكر، سلاحاً من أسلحة المعركة في مواجهة الإسلام والمسلمين، وما يلاحظ أنهم ـ في الغالب ـ وراء جراثيم الفكر القاتل من الشرق أو الغرب، ووراء الفتن العمياء هنا وهناك.. ما يلاحظ من ذلك كله ـ وغيره كثير ـ هو امتداد طبيعي كما يعطي المعلم القرآني لما كانوا يصنعونه في عصر النبوة يومذاك، ومهمة البناء اليوم ـ وهي تهدف إلى إرساء القواعد التي تمكن المجتمعات الإسلامية من الوقوف في وجه التحديات بقدرة ثقافية واجتماعية واقتصادية، وتعين على تنمية القدرة الذاتية للأمة كيما تحرر النفوس وما اغتصب من الأرض.. هذه المهمة الصعبة لا بد أن يصحبها وضوح الرؤية الذي ألمحنا إليه بشأن اليهود ومن هم على شاكلتهم، وذلك قليل من كثير مما تعطيه آية البر من حيث سبب النزول والملابسات المحيطة بما حدث. ولله الأمر من قبل ومن بعد.



رحلة البناء.. ووضوح الرؤية

فيما رأينا من قريب من عطاء المعلم القرآني على هدي سبب النزول في آية البر من سورة البقرة، حقيقة من الضرورة بمكان أن نحسن التعامل معها، وهي أن أعداء هذه الأمة لها دائماً بالمرصاد؛ فهم لا يفوتون فرصة تمكنهم من الدس والافتراء من أجل خلخلة الصف وبعثرة الجهود، إلا اغتنموها بحقد وخبث بالغين.

ففي عدوان على هدي النبوة، وخلايا المجتمع تعمل عملها على كل صعيد، تعفيةً على آثار الجاهلية، وبناءً سليم القواعد متين الأسس في كل ميدان: يدس اليهود أنوفهم بمسألة تحويل القبلة ويقولون لبعضٍ من أهل الكتاب الآخرين: ما ولّى المسلمين عن قبلتهم التي كانوا عليها، فالمهم تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب وذلك هو البر وكفى. ونزل فيما نزل وضعاً للحق في نصابه وتثبيتاً للمؤمنين على الحق الذي يقوم على حسن الامتثال لرب العالمين الذي له جل وعلا المشرق والمغرب ونواصي العباد بيده سبحانه.. نزل فيما نزل على رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقد عملت الكلمة القرآنية عملها في إيضاح الرؤية كيما تسلم للمسلمين رحلة البناء التي من بعض متطلباتها: طمأنينة المسلم بالحق واستقراره النفسي، ووثوقه العميق بأن ما يأتي به الله هو الخير، وأن حكمة الله بالغة، بالغة حين أمر المسلمين بالتوجه إلى بيت المقدس، وبالغة حين أمرهم بالتحول إلى الكعبة كما جاء في قوله تعالى في سورة البقرة نفسها خطاباً للنبي ﷺ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)﴾[البقرة: ١٤٤].

والجديد هنا ما تكشف عنه هذه الآية من أن اليهود الذين أنكروا استقبال المسلمين الكعبة وانصرافهم عن بيت المقدس: يعلمون من كتبهم عن أنبيائهم أن الله تعالى سيوجه نبيه محمداً ﷺ إلى المسجد الحرام بعد بضعة عشر شهراً من توجهه إلى بيت المقدس في المدينة وكل ذلك بأمره وحكمته سبحانه.

هكذا يكتمون الحقيقة، ويخترعون الأباطيل ويعملون على خلخلة الصفوف، والتمزيق الفكري للشمل. وذلك ديدنهم مع الأمة المحمدية منذ البعثة وحتى يوم الناس هذا. وكل أولئك بعض صنيعهم على هذا الخط العفن، وإذا ذكرنا من خلال الواقع كم لصنيعهم هذا من انعكاسات على الواقع الاقتصادي، والواقع السياسي والعسكري في دنيا المسلمين ناهيك عن واقع الفكر والثقافة.. إذا ذكرنا ذلك أدركنا ضرورة التبين والحذر البالغين عندما يكون وراء الأكمة ما وراءها، كيما يكون حملة الأمانة في رحلة البناء والنماء على بينة من أمرهم يتابعون الرحلة واثقين مطمئنين. قادرين على توظيف الهداية القرآنية حيث يجب أن تكون، خصوصاً وأن معاركنا مع اليهود وكل من هم على شاكلة اليهود: معارك متعددة الوجوه متشيعة الميادين. وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.



الشباب.. والبناء
فتية الكهف.. الفاروق وابن عباس

«١»

الحديث عن الشباب وإلى الشباب محبب إلى النفس، ينشرح له الصدر؛ لا لأنه يذكِّر من غبر السنين الطوال من عمره بالشباب فحسب، ولكن لأن الشباب كان ـ وما يزال ـ أولية فاعلة من دعائم البناء في صرح الإسلام العظيم ـ وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شباباً ـ؟

ولأن الشباب ـ مع طاقته الفاعلة بذاته ـ عليه المعول ـ بعد الله وبإذنه ـ في الإفادة من الرأي الحكيم، والتجربة الغنية بالعبر والدروس، عند الكهول والشباب، ووضع ذلك على ساحة العطاء في تنمية الحوافز المنتجة وإزاحة العقبات، ومواجهة المعضلات بإيمان وصبر دائبين، الأمر الذي يسعف في متابعة الطريق الصاعدة، ويحول دون التراخي والانهزام!

ولقد كان للكلمات النورانية في القرآن الكريم عند التعريف بأصحاب الكهف في سورة «الكهف» موقع بالغ التأثير عند أئمة الهدى والرواد؛ فقد تخذوا من قوله تبارك وتعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣] معلماً من المعالم الخيِّرة الهادية على طريق الريادة في بناء الفرد والجماعة، هداهم ـ بجانب ما تلد الأيام من أدلة ووقائع ـ إلى أن الاضطلاع بعبء التحويل الجذري في حياة الأمة: لا بدَّ له من شباب نشؤوا في طاعة الله على العلم النافع والإخلاص في الدين، يندفعون بقوة الإيمان والثقافة الأصيلة، ويستضيئون على طريق المصاعب والابتلاء بنور الهداية الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، فتنمو طاقاته الإيمانية، وقدرته على المواجهة مع النفس من الداخل، ومع العدو من الخارج وتزداد؛ لما أنه ـ بذلك ـ يأوي أبداً إلى ركن شديد!

من هنا كان حرص الإسلام على التربية المتكاملة، وبناء شخصية الشباب على العلم النافع والخير والهدى، وتنمية طاقاتهم الفكرية والجسمية، وحب الجدِّية في العلم والجهاد، وإحاطتهم بسياج من سيرة السلف في الماضي، والمعرفة بالواقع ـ كما هو ـ في الحاضر.

ومن ثمرات ذلك ـ كما دلت الوقائع ـ: حفظ الطاقات من التبدد والضياع، ووضعها في إطارها الطبيعي المناسب، كيما تكون عنوان فلاح لأصحابها وللأمة، لا عوامل هدم وتيه ـ لا سمح الله ـ كما يُرى في الأجواء التي تهتك فيها الموازين وتصادر الحريات، وتضطرب المعايير، فتنقلب الأمور رأساً على عقب، حيث يطغى سلطان المقولة الفرعونية: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[القصص:٣٨] .

وعلى هذا الدرب المستنير في تعظيم الحق وأهله، ووضع الأمور مواضعها على كل صعيد: تأسياً بالرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام: كان عمر رضي الله عنه يعامل الشباب معاملة هي كفاء قدرتهم ـ عندما تتوافر لهم التربية الحقة ـ على البناء والعطاء.

روى الإمام البخاري «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ قال عمر: إنه من حيث علمتم. فدعاني ذات يوم، فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليُريَهم. قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلتُ: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلَمَهُ له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ وذلك علامة أجل ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول».

هكذا فعل الخليفة الثاني رضوان الله عليه، وهو يتابع مسيرة البناء التي أرسى قواعدها رسول الله ﷺ، وسار على طريقه الميمونة خليفته الصديق أبو بكر رضي الله عنه فلم يَحُل دون ابن عباس ودون الدخول عليه مع أشياخ بدر ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ وهو في سن أبنائهم. إذ رشحه لهذا ـ وهو ما يزال فتىً على عتبة الشباب ـ علمه وفقهه في الدين، وحسن تأويله للقرآن ـ كما دعا له رسول الله ﷺ بذلك ـ وهو في هذه السن المبكرة، وكان الجميع ـ بعد هذا ـ راضين كل الرضا عن نهج عمر رضي الله عنه في ذلك؛ فحرام أن تنحسر عن عملية البناء الكبرى التي يضطلع بها المسلمون على كل صعيد: طاقة فاعلة مؤثرة كتلك التي أعطيها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. وتلكم هي الركيزة المتوخاة ـ دائماً ـ لرحلة التحويل إلى ما هو خير وأقوم لهذه الأمة.. شباب تزينهم كفايات في كل مجالٍ مفيد، وتخصصٍ نافع، وقدر كافٍ من المعرفة المؤصلة بالإسلام، وحرص على الانتفاع بتجارب من سبقهم، وتوقيرهم وإنزالهم منازلهم كما توجب أخلاق الإسلام، ويقتضيه الإخلاص في عملية البناء والنماء.

ومن وراء ذلك كله: عقيدة سليمة، ضياؤها التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة رياء أو تلفُّت، عقيدة يشرق بها القلب، وتنعكس آثارها على حركة الجوارح، وأخلاق هي أخلاق خير أمة أخرجت للناس، لا تفقد واحداً منها في أي وجه من وجوه التأسي بالرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام الذي حمّل أمانة الوحي على رأس الأربعين.

* * *

الشباب.. وطموحات الأمة في البناء وأصحاب الكهف

«٢»

حين نكون صادقين مع أنفسنا في صياغة الشباب ـ وهم الأمل بعد الله ـ صياغة متكاملة عليهم من أن ينهضوا بعبء البناء، ويزيدوا بطاقاتهم إمكانات الأمة نمواً على طريق صراعها مع التخلف والضعف: يكون من الضرورة بمكان أن نعيد قراءة منطلقاتنا في الكتاب والسنة والسيرة وتاريخ الرجال، بوعي وإدراك، كيما تسلم لنا الخطوة الأولى في هذا المنهج، ونعيدَ مرحلة بعد مرحلة، من كل مقومات الإعداد والبناء، غير غافلين من واقعنا، ولا عن الواقع العالمي في دنيا الناس.

ففي كلمات قريبة جدٌّ قريبة على هذه المساحة من القول: كان لنا من بعض الآيات الكريمة التي عرَّفت بالبُنية الفكرية والسلوكية لأصحاب الكهف في سورة الكهف: وَاحدٌ من معالم الهدى، وضعنا أمام القاعدة التي قامت عليها هذه البُنية، وأشرقت بسناها مقوماتهم الشخصية، الأمر الذي جعلهم جديرين بمكرمة أن يذكروا في القرآن هذا الذكر الحسن. كان ذلك في قوله ـ جلت حكمته ـ في هذه السورة، خطاباً للنبي ﷺ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ فهم مؤمنون يزيدهم الله هدى على طريق صراعهم مع الباطل.

ومن حق هذه المرحلة التي يمرُّ بها الجيل المعاصر، وهي مرحلة تَتَّشح بواقع لا يُرضي، ويُثقلها ما يَرى الجيلُ وما يسمع ويقرأ مما يبعده أو يقربه من ساحة الولاء لأصوله الأولى وأمته صاحبة الرسالة الخاتمة وخيرِ أمة أخرجت للناس.. أقول: من حق هذه المرحلة أن تُتبَعَ الإشارة الماضيةُ القريبةُ بشيء من الإيضاح، يتيح تَبيُّنَ حجر الزاوية في الموضوع، والكشفِ عن أن العناصر والمقومات التي عُرِفَ بها أصحابُ

الكهف: تتمثل في أنهم ـ وقد أكرموا بالإيمان وزيادة الهدى ـ فتية في مقتبل العمر، يتسمون الحياة من خلال أردان الشباب، وحيوية الشباب.

ويمكن أن نقدرَ الأمر قدرَه إذا علمنا أن هؤلاء الفتية كانوا على بسطة في الرزق، ويُسرٍ يمكنهم من كل ما يرغبونه من متع الحياة الدنيا لو أرادوا ذلك؛ فهم أبناء ثراء وسلطان ووجاهة في قومهم.

وهؤلاء الشباب الناعمون المترفون الذين الآن يغدون ويروحون وكل ما حولهم ظلماتٌ من ظلمات الدنيا بعضها فوق بعض! عبادةٌ لغير الله، وظلماً، وعدواناً على الأخلاق والحرمات.. هؤلاء الشباب آمنوا بربهم الواحد لا شريك له، آمنوا به وأسلموا وجوههم إليه، وكلٌّ من حولهم من القوم يدين ـ خاضعاً ذليلاً ـ بما هو حرب على عقيدة التوحيد. والسلطةُ الباغيةُ العاتيةُ لكل من يقول لا إله إلا الله بالمرصاد. ولقد شاء الله أن يكون هؤلاء الفتية الشبابُ محطةً من محطات البناء الذي تسعد به الإنسانية في التاريخ، وأسوةُ طاهرةُ نقيَّةُ تُغني على طريق الريادة والعمل: مشاعرَ الصدق والاستعلاء على المعوقات، فزادهم الله على هدايتهم هدىً ونوراً، وأكرمهم بأن ثبتهم على الحق وربط على قلوبهم في مواجهة المحن، يوم هدّدهم الطاغية بالويل والثبور إذا لم يعودوا إلى عبادة الأوثان، بل وفي مواجهة تحديات المجتمع الجانح عن طريق الهدى، الوالغ في الضلالة، والصدٌ عن سبيل الله ـ وبخاصة أهل الأمر والنهي فيه ـ.

إنَّ موطن العبرة في هؤلاء الشباب.. أن هذه المرحلة من مراحل العمر إذا خصت بالإعداد المتكامل، ووجهت طاقاتها بعناية، ووضعت كل طاقة بمكانها: أن تغني طموحات الأمة على طريق البناء وما تتطلع إليه من تنمية القوة الخيِّرة الفاعلة عند أبنائها، وهو ما يطمح إليه الصادقون المخلصون، ويناوئه أعداء الأمة أجمعون.

* * *

الشباب.. والبناء وأصحاب الكهف

«٣»

لم يكن كثيراً على الفتية أصحاب الكهف والرقيم الذين آمنوا بربهم وزادهم هدىً وربط على قلوبهم: أن يطمئنوا ـ في مهب العواصف ـ بما أكرمهم الله به من عقيدة التوحيد، وأن يكونوا رسل بناء محكم القواعد في مرضاة الله عز وجل، ورواد تنمية للحوافز الإيمانية تتناول الفرد والجماعة على حد سواء.

وكما تضيء الجزيرة النيرة في بحر من الظلمات.. قاموا فأعلنوا ـ والسلطان القاهر على الحياة وأهلها مُطْبِقٌ في ديارهم ـ أن خالق السماوات والأرض هو الجدير بالربوبية والإفراد بالعبودية ـ ولن يتحولوا عن ذلك أو يركبوا متن الشطط فيقولوا على الله غير الحق..

أما ما عليه قومهم من الشرك وعبادة الأوثان: فهو الضلال المبين بعينه، وهو طريق يسلكونه عمياً وصماً لا تنهض له حجة، ولا يقوم على صلاحه دليل.

وذلكم هو الظلم الذي لا ظلم يدانيه في هذا الباب، وحسبك أنه افتراء على الله الكذب، بأن له أنداداً يعدلونه بها عبادة واستعانة، وهي لا تضر ولا تنفع ولا تغني عنهم شيئاً؛ فلا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً!!

نقرأ في ذلك قول الله تبارك وتعالى في شأن أولئك الفتية الأبرار: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: ١٣-١٥] .

إن أمتنا ـ وهي تصارع الركام المتعدد الأسباب، وألوان المصاعب الداخلية والخارجية على طريق البناء الطموح الذي يمهِّد ـ بعون الله وفضله ـ لأن تأخذ ـ من جديد ـ موقعها الرائد في العالمين، ولأن يتحقق لها ما يطمح إليه الأمناء فيها

على أن يكون لها ـ مع ذاتية القرار ـ إمكاناتها الفاعلة المؤثرة في ميادين الفكر والسياسة والاقتصاد والعلم والاجتماع، والتي لا تعوزها مقومات النمو كما تقتضيه سنن العلم وتخطي العقبات.

إن أمتنا ـ وهي تحاول أن تقطع هذه المرحلة ـ مدعوة أكثر من أي وقت مضى إلى أن تتفاعل عقولاً وقلوباً مع الذي تزخر به معالم الكتاب الكريم من عطاء خيِّر، ونور يبصِّر مسالك الطريق، وشعاب الحركة النافعة المتجددة، ومن ثمرات ذلك: ما تجنيه من مضاعفة القدرة على بناء شخصية الإنسان نبراس هداها ومحور سلوكها والمرشح دائماً لوضع كل أمر موضعه المنتج المثمر في مختلف الميادين؛ لأن انحساره عن مسيرة الحياة ـ كما يحلو للطغاة أن يكون ـ خسران مبين للأمة. ولكن الظالمين لا يعقلون.

وفي المقومات الخيِّرة القوية التي ذكرها القرآن الكريم عند التعريف بأصحاب الكهف والرقيم ـ وهو يوجه إلى أن لا تكون أمتنا مغيبةً عن التاريخ ـ: درس واضح ـ بل دروس ـ تتخطى العنصر التاريخي إلى منهج بناء الإنسان المسلم الذي تريد الأمة أن تواجه به الملمات، الإنسان الذي لا يجوز أن يغيب عن ساحة العطاء المتنوعة أبعاده ومراميه، نعم، الإنسان الذي تلقى على عاتقه مهمة الإعداد لما يجب أن يكون في ظل رسالة الإسلام، وأن يكون على مستوى استخدام منجزات العلم لتنمية كل من شأنه دفع الأمة في مجتمعاتها لأن تتجاوز بإيمان وبصيرة مرحلة الرواد والحيرة، وتتخطى ـ وهي تعاني من حدة المواجهة ـ ما نبت على طريقها عبر السنين من صعاب، والله المستعان في كل حال.

ألا إن كل ميدان من الميادين التي تكتنف حياة أمتنا الماجدة، بحاجة إلى الشباب الذين زين الله في قلوبهم الإيمان، وزادهم هدىً، وربط على قلوبهم، وهم في قلب معركة الحق..

أجل بحاجة إلى الشباب، علماً، وثقافةً، وجهاداً، واقتصاداً، وقدرة على تفسير التاريخ والنفاذ في اكتشاف النسب بين حلقاته في الماضي والحاضر، وكل أولئك في إخلاص لله تبارك وتعالى يتحقق معه بناؤهم، وتنمية قواهم، ومؤهلاتهم، على هدي ما امتدح الله به الفتية المؤمنين أصحاب الكهف، وعرَّف بهم حين قال سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾[الكهف: ١٣-١٤] .

وعلى هذا الدرب الموصول بمنبع الهدى في المنهج القرآني، كان أكثر الذين حملوا عبء الرسالة، مستجيبين بصادق الوجهة لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام: من الشباب.. وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شباباً، ضربوا أروع الأمثلة على صدق إيمانهم وحبهم له عليه الصلاة والسلام، ورغبتهم في الفوز بالشهادة في سبيل الله، في حين أن المشايخ من قريش، بقي عامتهم على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل ـ وهو قليل خيِّر مبارك والحمد لله ـــ. وتوالت قوافل الأبرار الأتقياء الأنقياء من الشباب عبر السنين، تبذل في سبيل الله وتقتحم الصعاب، غير غافلة عن الانتفاع بتجارب الشيوخ ووضع كل أمر موضعه في طاعة الله.

*   *   *

مرة أخرى.. مع الشباب.. وأصحاب الكهف

«٤»

بين يدي ما أعمد إلى سوقه من الكلام في هذه العجالة، أود التنبيه على ما قد يسبق إلى بعض الأذهان عند الحديث عن أصحاب الكهف والرقيم: أن المسألة كلها سَداها ولحمتُها نومتهم الكبرى فحسب، الأمر الذي يجيز بعض الناس لأنفسهم ـ من خلاله ـ إطلاق هذا العنوان على من يكون بعيداً عن نبض الحياة، وإدراك الواقع بأبعاده المتشعبة في تصرفاته!!

والذي ينبغي أن لا يغرب عن البال، ولا يغيب عن خاطر المؤمن: أن ما لبثه أهل الكهف في كهفهم ـ وهم نائمون نومتهم الكبرى ـ من السنين التي أربت على الثلاث مئة ـ كما جاء في القرآن الكريم ـ كان آية من الآيات البينات التي دلَّت على قدرته تعالى ـ وما أكثر الدلائل على ذلك ـ وأنه هو المدبر الحكيم لهذا الكون بما فيه ومن فيه، على سُنَنٍ له أن يجريها أو يتجاوزها في بعض الوقائع ـ إذا شاء ـ لحكمة يعلمها، ويضعها موضعها على طريق الهداية لعباده، وهو ـ جل شأنه ـ يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. ولا يسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾[الكهف: ٢٥-٢٦] .

فمن أجل أن يكون منهج التفكير في هذه القضية على سواء الصراط من الواجب أن لا يحملنا شيء على نسيان الهدف الكبير المرتبط ببناء الإنسان على النهج الذي يرضى عنه خالق الإنسان، وهو ما يُوحي به إبراز ما تحلَّى به أولئك الفتية البررة من الإيمان بربهم، والفوز بما زادهم من الهدى، وأنهم وقفوا تلك الوقفة الإيمانية التي تستعلي على رغبات الدنيا وشهواتها وهم في ميعة الصبا وعنفوان الشباب!

فعلى كل ما لدى الشباب من مطالب الغريزة والهوى، والرغبة في متع الحياة من هنا وهناك، وما لحب العافية وخوف البلاء من سلطان: كانوا أقوى من ذلك كله بما ذاقوا من حلاوة الإيمان، وبما ربط الله على قلوبهم وثبت منهم الأقدام!

وتتبدى إضاءة هذا الموقف أكثر وأكثر: إذا وضعنا ما كان عليه المجتمع من الانحراف عن الحق، وطاعة لأعداء التوحيد، في إطاره الطبيعي من المسألة برمتها!

وهذا العنصر من عناصر التكوين الحقيقي للفرد والجماعة والأمة، هو الذي تبدو الحاجة إليه أشد وأشد، عندما يصطلح الجيل بمهمة التغيير بدءاً من الذات، دون فوضى تستحكم أو ردود فعل تأخذ بالعاملين ذات اليمين وذات الشمال، وتلك هي سمة البُناة الواعين المخلصين عبر التاريخ.

فهؤلاء الفتية الذين انشرحت صدورهم للإيمان، وزادهم الله هدىً، وربط على قلوبهم ــ على كل ما يتوقعون من بطش الطاغية الوثني، وممالأته الرأي العام الجاهل في مظاهرة الوثنية والعدوان على التوحيد ــ ظلت أقدامهم ثابتة على درب الشجاعة الإيمانية الفاعلة، وترجموا ذلك بالبيان الواضح لما هم عليه، ولما عليه قومهم، الأمر الذي يتبدى معه الفارق الأساسي بين طريق الشرك وعبادة الطاغوت، وبين التوحيد الخالص الذي هو عقيدة الفطرة، وبه تتحقق إنسانية الإنسان﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾[الكهف:١٥]

إنه الوعي وعمق الإدراك؛ فليست القضية قضية عاطفية جامحة، أو رغبة جانحة، ولكنها قضية الإيمان الذي وقر في الصدر بالحجة والدليل، فكان الثبات والطمأنينة، وليقض الطاغية ما هو قاضٍ، فإنما يقضي هذه الحياة الدنيا، والصابرون طوبى لهم وحسن مآب.

أرأيت إلى الشباب حين تتوافر لشخصيتهم سلامة البناء، فتكون بواعث العمل ذاتية تنبع من قلب متصل بالله، والحوافز تسقيها وتنميها العقيدة التي لا يغني غناءها شيء! كيف يكونون على حال من القدرة على التزام الحق، والاضطلاع

بالمسؤوليات الكبار، بشجاعة وفهم وإدراك، متوكلين على الله، جديرين بالارتقاء فوق الجهالة والصغائر التي تبعث على التماوت والاسترخاء والتلهي بمحقرات الأمور.. إلى حيث العزائم المعقودة، والهمم العالية الغالية في مرضاة الله والجهاد في سبيله.

مرة أخرى: إن من النصيحة للشباب ـ والأمة تنشد من خلالهم بعون الله تغييراً إلى ما هو الأفضل ـ أن يحسن أهل القدرة الاختيار، اختيار البذر والوقت والمناخ، لتكون لنا ـ بفضله تعالى ـ الثمرة المرتجاة، كما دل على ذلك المعلم القرآني الكريم، والله غالب على أمره، وهو المحمود على كل حال.

* * *

مع الشباب.. والبناء.. وطبيعة المرحلة فتية آمنوا بربهم.. وزادهم هدى

«٥»

حين نمكن للشباب ـ من طريق البناء الذاتي ـ وتهيئة الفرص المؤاتية لذلك، وإزالة العوائق المتكئة على حظوظ النفس والهوى، وبواعث الدعة والخمول، وما يكون من نزعات تشل الأيدي عن الحركة، تجدهم ـ وقد انتصروا في هذا الميدان من ميادين الجهاد ـ أقدر على الغلبة عند جهاد الأعداء، موفين بما عاهدوا الله عليه، صادقين في الإنابة إليه.

ولعل ما يقال على هذه الساحة، وما يمكن أن يقال: بعض مما يوحي به قوله تعالى في شأن من وقفوا وقفة الصدق المؤمنة في مواجهة الطغيان الوثني الظالم: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾. وما هو من نظائر ذلك في كتاب الله وسنة نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام وسِيَر أهل الصدق المجاهدين.

وفي مواجهة الحياة وشؤونها اليوم ـ على ما هو معلوم من تعدد ألوان الانتماء والثقافة والتطور العلمي وما إلى ذلك ـ تظهر آثار البناء الذي يحكم الجيل أو الأجيال، وما تفعله تنمية مشاعر الخير التي لا تفتقد الذاتية والأصالة، وما يُحدثه الحسُّ الجماعيُّ والرغبة فيما يوجبه الإيمان من الإسهام في مظاهرة الصالح العام الذي يعود على المجتمع بالنفع الجزيل والخير العميم.

إن عناية القرآن بتحديد مرحلة العمر التي كان يمر بها أصحاب الكهف والرقيم، عندما استعلت كلمة الإيمان على ألسنتهم، وانعكست آثارها على سلوكهم، بأنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى.. شاهد صدق على ضرورة أن يُنظر إلى مهمة إعداد الشباب في ضوء هذا المنطلق من العقيدة والثبات على الحق، وتجاوز الأنا إلى

مصلحة الجماعة.. على أنه أمر جوهري يتعلق بكيان الأمة، بدءاً من الفرد ومروراً بالجماعة، كما يتعلق بالاهتمام بالمنهج الذي يراد له أن يكون قاعدة البناء الفكري والعملي عند الشباب، دون إغفال ما هو المناسب للفتية وما هو المناسب للفتيات في الأسلوب. وإن كان المنطلق واحداً للجميع.

وفي تاريخنا الإسلامي: معالم ومؤشرات تؤكد ذلك، على مستوى الوقائع في كل ميدان طرقت أبوابه حضارة الإسلام التي لم يبارحها المنهج الهادي في كل سبيل.

فخلايا البناء والنماء في ميادين الثقافة والجهاد والاقتصاد وغيرها، كان الذي يغطي مساحاتها ـ في الأعم ـ على تعقيدها وتلافيفها بعض الأحيان.. الشباب؛ ذلك بأنهم ـ بجانب قدرتهم الذاتية التي تقتضيها طبيعة السن ـ كما سبق أن أسلفت ـ هم المؤتمنون على أن يوظفوا حصاد التجارب عند الكبار، وما يكون من الحكمة والتدبر عبر السنين وتلوُّن الوقائع، على طريق تغني فاعلية الأمة، وتحول دون التفكك وفقدان الذاكرة أو استرخائها وانقطاع حبائل التاريخ، وتزيد من قدرتها على الخطوة المناسبة في الوقت المناسب، سيما وأن آباء هؤلاء الشباب الذين غبروا ما غبروا من السنين في معترك الحياة، كانوا شباباً أمثالهم..

إن بمقدور التربية ـ في أساليبها الحديثة ووسائل الإعداد النفسي والعقلي والجسمي ـ أن تتحسّس ذاتية الأمة ورسالتها المرتبطة بوحي السماء دون تجاهل للواقع، فتبدأ انطلاقتها من القاعدة التي دل عليها واحد من معالم الكتاب العزيز ـ وما أوفر تلك المعالم في الكلام المعجز وأعظم سناها ـ في سورة الكهف ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾.

والتعبير المعجز في قوله جل شأنه ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ واضح الدلالة في أن التربية الإيمانية، تتيح الصعود الدائم إلى ما هو أسمى وأعلى، وتُظفر صاحبها بزيادة هدى الله الذي يفتح المغاليق ويذلل الصعاب، ويحدث في النفس ما يحدث من الرغبة في الاستزادة من الخير والعطاء دون مبالاة بما يعترض من العوائق ما دام ذلك في مرضاة الله!

وما أعظم أن تتفتح البصائر، ويعطي المربون ما يجب من الأهمية لبذر تلك البذور الخيرة التي تحتضنها التربة الصالحة المهيأة لذلك، الأمر الذي يعود على الأسرة والمجتمع والأمة بالنماء والعطاء، خصوصاً وأن الإسلام منهج حياة، وطريق سعادة في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

إن كل كلمة تزجى في هذه السبيل ـ مسموعة كانت أو مقروءة أو مرئية ـ وكل نفقة صغيرة أو كبيرة على هذه الساحة ـ مما يضمن سلامة القاعدة الإيمانية، وتكامل الإعداد في القلب والعقل والجسم والفكر: هو في صالح الشباب ـ ذكوراً وأناثاً ـ وصالح الأمة؛ لأن المهم أن يتربى الشباب على ما يسعدهم ويحقق وجودهم الذاتي بالإسلام في الدنيا، ويقيهم عذاب الله في الآخرة، وأن يُحسن إعدادهم للمهمة الصعبة مهمة البناء المتكامل، والتوعية على المشاركة في عملية النماء والتغيير إلى ما هو الأفضل بصدق وإخلاص.

وإنها لمهمة مباركة ضخمة، كفاؤها فتية مؤمنون ـ وهذا على التغليب ـ يتطلعون إلى ما عند الله ويحسنون الإفادة ـ بعلمهم ـ من الوسائل المتاحة في مواجهة الحياة، فيحسنون حاكمين ومحكومين، ويحسنون علماء متخصصين، ومجاهدين مقارعين، وأصحاب أعمال وأموال منتجين، وسبحان من يوفق من شاء لما شاء وله ـ جل شأنه ـ عاقبة الأمور.

* * *

نبأ الفتية المؤمنين.. التدبر والبناء

«٦»

كلما طالت صحبتك لكتاب الله في معالمه ونور هداه وجدت نفسك لهجاً ـ أكثر وأكثر ـ بذكر من أنزله رحمةً وشفاء لما في الصدور، مسوقاً إلى حمده ـ جل وعلا ـ بمحامده كلِّها، أن يسَّر القرآن للذكر، فأعطى المؤمنين ـ بفضله ـ أسباب الاتصال بمنبع الهداية، وفتح لهم مغاليق المعرفة، فسعدوا بأنوار الكلام الأزلي، وكان لهم بذلك خير الدنيا والآخرة.

رأيتني وهذه الكلمات يجري بها قلمي الضعيف، بعد أن تأملت ـ في ضوء ما ألمحت إليه من حديث أصحاب الكهف والرقيم ـ فواتح سورة الكهف وخواتمها، والآيات التي كانت واسطة العقد بين الفواتح والقصة!

فالذي يبدو من خلال التصور الإيماني الدقيق لعملية البناء الجذري الذي تحكمه ضوابط الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» في المجتمع.. البناء الذي ما بدَّ من أن يسبقه التعفية على عقابيل الضلال إزالةً للعوائق، حين تكون جولة الباطل هي المستحكمة ـ: أن عناية القرآن بإبراز المقومات الأولى لوجود أولئك الفتية المؤمنين المنعم عليهم بزيادة الهدى، الذين قالوا: لا ـ بملء أفواههم ـ في وجه الوثنية. وقالوا: لا ـ بكل شجاعة واعتزاز ـ في وجه الطغيان والفساد، وفوضى الفكر والعمل في المجتمع.. أن هذه العناية ـ بأسلوبها المعجز ـ جزء من الصورة في إبراز ما اتصف به أولئك النفر من الشباب الذين يواجهون الحياة وهم في مقتبل العمر!! حين واجهوا الواقع بثبات لا يعوزه الرضا وطمأنينة التسليم لأمر الله!

فهم فتية شرح الله صدورهم للإيمان بربهم، ذلك الإيمانَ المكين. وعلم ـ جل شأنه ـ صدق هذا الإيمان وإخلاصهم فيه، فزادهم هدىً، وربط على قلوبهم، في

مواجهة الباطل وأهله؛ فكانوا ـ بحق ـ النموذج الأمثل للشباب المؤمن الواعي، الذي لا يصرفه عن الموقف الإيماني صارف رغب دنيوي ولا رهب. وكل ما يطمح إليه: الظفر بمرضاة الله تعالى، وحس العاقبة يوم الدين.

أما الجزء الآخر من الصورة: فيكمن ـ والله أعلم ـ في موقع صفاتهم من القصة بتمامها. وفي موقع القصة نفسها من سورة الكهف بكامل آيها.

وذلك ما يعطي المعلم القرآني تكامل ضيائه في هذا الموضوع على سلم الهداية التي هي المطلب الأسنى في آي الفرقان.

ذلك بأن فواتح السورة وخواتمها، والآيات التي كانت واسطة العقد بين ما قص الله من نبأ أهل الكهف والرقيم بالحق، وبين ما تلاه في السورة نفسها، قد حملت المبادىء التي لا ينهض بأخذ الأنفس بها إلا أولو العزم والبصيرة الموفقون؛ ومن عيون هؤلاء البررة شباب تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم، فيندفعون بمنهجية واعية إلى تحقيق مقتضى الإيمان والوفاء بعهد الله، في أنفسهم وفي الآخرين ما أمكنهم ذلك.

ومقتضى الإيمان، والوفاء بعهد الله الذي يعاهد المؤمن ربه عليه: منهج رباني يبعث يقظة العقول والقلوب لذلك في جوانب المجتمع كافة، فضلاً عما ينشىء في نفس الفرد والجماعة من رغبة ذاتية في البناء المرضي لله، المحكمة لبناته على نور من الله، وينمي ـ من خلال صلة العبد بخالقه الحكيم ـ روح التفاني في نصرة الحق، وإحلال اتقاء الله محل الرغبات الهابطة والهوى.

ولا تسل عما يصنعه ـ بعون الله ـ من مضاعفة القدرة على المثابرة والاستمرار في سلوك الطريق الصاعدة المزدانة ـ على كثر تكاليفها ـ بالعطاء، مهما تكاثر الهدامون على اختلاف صورهم ومواقعهم هنا وهناك، وأشبعوا نَهَمَ باطلهم بالزخرف والتمويه والوعد والوعيد!!

والحق أن القراءة الواعية المتدبرة المقترنة بالإخلاص في طلب الهداية.. لفواتح سورة الكهف وخواتمها، وما سبق قصة الفتية المؤمنين الذين أكرمهم الله بزيادة الهدى والربط على قلوبهم من آيات..

إن هذه القراءة الأمينة المتدبرة التي يشرق نورها بإشراقة القلب المطمئن بذكر الله: تحمل على المزيد من الاقتناع بأن نُسُغَ الحياة في سواعد من يقدرون كلمة الحق والجهاد في سبيل الله حق قدرها، ويناط بهم التحويل، والتطوير على سلم الكمال: إنما هو البناء الذي يستقطب ــ مع الإفادة من تجربة الشيوخ وقراءتهم للتاريخ ــ كل عناصر القوة المادية والمعنوية في الشباب، ويضعها حيث يتسنى لها أن تؤدي وظيفتها بمنهجية دقيقة متكاملة في حقول ما تنشد الأمة للفرد والمجتمع من البناء الذي لا يفتقد فيه ـ مع نصيب الدنيا ـ التطلع القلبي والعقلي إلى الآخرة بجدية زخرت بالدعوة إليها نصوص الكتاب والسنة، وأشرق بها سلوك السلف الصالح ـ على اختلاف المواقع ـ ممن وُفِّقوا لصدق الانتماء إلى أمتنا الماجدة التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس. وحبل الخير متصل ـ إن شاء الله ـ ولله الأمر من قبل ومن بعد.

*　　*　　*

مرة أخرى.. مع الفتية والتدبر

«٧»

كان مما أشرت إليه فيما سبق من القول في دلالات قصة أصحاب الكهف والرقيم: أن العناية بإبراز الكلمة القرآنية للصفات التي تميز بها أولئك الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم ربهم هدى في مجتمع يئن من ثقل الوثنية والطاغوت: إنما تتكامل صورتها إذا لوحظ موقعها من فواتح سورة الكهف وخواتمها، والآيات التي كانت واسطة العقد بين الفواتح والقصة.

وفي ذلك نقرأ قول الله جل ذكره في مستهل السورة المكية: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ ﴾[الكهف: ١-٥] .

ففي هذه الآيات المباركات ــ كما نرى ــ تنبيه على وجوب حمد الله الذي أنزل على عبده محمد ﷺ القرآن قيِّما لا عوج فيه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالأجر الحسن من لدنه، وينذر الكفرة الزاعمين أن لله ولداً بنار السعير.

إذن هنالك في العهد المكي تذكير يحفز المؤمنين ــ على قلة عددهم وضعف سلطانهم أو انعدامه ــ إلى تبيِّن القيم التي يطرحها القرآن الكريم، وإلى طبيعة المهمة الملقاة على عواتقهم في بناء صروح الحق والذود عنه، وهدم معاقل الباطل وإزاحة أكداره المظلمة من النفوس.

وقبل هذا وبعده: لا بد من توافر الرغبة الصادقة في هداية الخلق إلى الصراط السوي، والحرص ــ بمنهجية مثلى ــ على أن يكون بناء المجتمع ونماء قوته الفاعلة، امتداداً طبيعياً للعقيدة السمحة التي لا معدى عن أن تكون ــ على وجه الحتم ــ قاعدة البناء، ومنطلق الحركة فكراً وعملاً وسلوكاً.

وفي ظل ذلك وصل الأمر برسول الله ﷺ، أنه كاد يهلك نفسه حزناً ولوعة على الناس، وحسرة على أولئك الكفار إن لم يتحولوا عن ظلمات الكفر، إلى نور الإيمان، فيكونوا عناصر خير وفلاح، ينجون من عذاب الله يوم القيامة، وتنمو بهم طاقات الجماعة على طريق الخير، ويمحون بحركتهم في المجتمع أوضار الجاهلية والفساد التي يحقق به هنا وهناك.

ذلكم ـ كما رأينا آنفاً ـ قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾

أي فلعلك مهلك نفسك أسفاً عليهم إن لم يؤمنوا بالقرآن وما أرسلت به. ثم جاءت الكلمات النيرات على قصة أصحاب الكهف، التي نقرأ في بعض آيها قول الله سبحانه، خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام ـ وفي ذلك ما فيه من توكيد لأهمية القاعدة الإيمانية في البناء ـ: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾[الكهف: ٩-١٤] الآيات.

وإذا وقفت وقفةً متدبرة متأنية عند الآيات السابقة، وما طرحت من قيم، وقررت من مبادىء: رأيت قصة أصحاب الكهف تجيء في موقعها ـ شأن القصة القرآنية على سلم الهداية في الكتاب العزيز ـ من تحديد الصفات الأساسية للإنسان الذي يناط به ـ كما أراد له ربه عز وجل ـ مواجهة التيار الطاغوتي، وريادة الطريق إلى ما هو الأقوم والأهدى سبيلاً، للقضاء على عوامل الفساد والتخلخل في المجتمع، والإقبال على البناء الإيماني الذي يشمل بنى المجتمع كافة، بروح جماعية تتجه بأصحابها وجهة الحضارة الإنسانية المؤمنة التي ينمو في ظلها العلم بجانب الإيمان، والأخلاق مع الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع..

كل أولئك وفق منهج رباني حكيم يضع الأمور واضعها، ويرتفع بملتزميه إلى حيث التكامل والنقاء، والتقوى والصفاء.. وسبحان من أرسل رسوله محمداً ﷺ إلى الناس يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

* * *

قصة الفتية.. والبناء على أرض الواقع القيم.. والشباب

«٨»

المؤمنون في مكة ـ على قلة عددهم ـ يصارعون الباطل تحت راية الحق، والقرآن ـ مشفوعاً ببيان النبي عليه الصلاة والسلام ـ يسير بهم خطوة بعد خطوة على دروب التحويل المرتقب، تحويل المجتمع المثقل بأوضار الجاهلية في أفراده بدءاً من داخل النفس، وسلطان العقل والقلب، وفي بناه الفكرية والاجتماعية والاقتصادية وما إليها، ومفهوماته عن علاقة الإنسان بالكون، وعلاقته بأخيه الإنسان: من حال إلى حال.

ذلكم هو مشعل الضياء المؤذن بالتحويل في تاريخ البشرية: وحيٌ يتنزَّل منجماً بخطاب الهداية، ورجال جلُّهم من الشباب، ونساء مثل ذلك أو قريب منه، يصوغهم الوحي ويربيهم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه على عينه، فيرتفع بهم إلى مستوى البناء المحكم الراسخ الذي تمتد جذوره في أعماق الفرد والجماعة التي يتكون منها المجتمع.

وفي حديث موصول بما العهد به قريب من الرحلة العجلى مع فواتح سورة الكهف، وما دل عليه إبراز صفات الفتية الذين آمنوا، وأكرمهم ربهم بزيادة الهدى: من أن الذين يناط بهم وضع اللبنات الصالحة الأولى على طريق التحويل المطلوب للمجتمع تحويلاً سداه ولحمته الصلاح بعد الفساد، لا بد أن تكون لهم ـ مع المقومات الأخرى ـ هذه المؤهلات..

في حديث موصول بذلك: لا بدَّ من الإلماح إلى ما نجد من ختم القصة بقوله تعالى:﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الكهف: ٢٦] .

وها نحن أولاء نقرأ بعد هذا قوله ـ جل شأنه ـ خطاباً لنبيه خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾[الكهف:٢٧].

والتلاوة هنا تلاوة للعمل الذي يجعل المبادىء التي تنزل بها وحي السماء، تأخذ طريقها إلى أن تكون قاعدة بناء الإنسان المؤهل لحمل الرسالة إلى بني الإنسان، والمحور الذي تتحرك على مواقعه حياة الفرد والجماعة، والمنهج الذي يتحقق معه الانضباط بضوابط الدين الذي يكرم العقل ويعنى بإنارة القلب، وتقدير إنسانية الإنسان!

ويحملنا المعلم القرآني مرة أخرى إلى واحد من وجوه الهداية، بنصر معه أن الإخلاص لله من الدعائم الأساسية في بناء شخصية العاملين المؤهلين؛ فمع الإيمان والعمل الصالح اللذين سبق ذكرهما، نجد هنا دعوة إلى الإخلاص والتعاون مع المخلصين، كيما يستقيم هؤلاء العاملون الذين اختارهم الله للجُلَّى، على الطريق، يشد بعضهم أزر بعض، ويكونوا ـ بعون الله ـ أقدر من صوارف الرغبة والرهبة، وما يعترض سبيل الخير من نزعات وأهواء!!

ذلكم قوله ـ جل ذكره ـ إرشاداً للأمة ـ إلى قيام الساعة ـ من خلال خطاب النبي ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[الكهف:٢٨].

وبعد: فهذا أوان أن نستذكر ما صنعت وتصنع هذه الآيات ونظراؤها في كتاب الله المجيد، مما تزخر به معالمه النيِّرة المباركة في دنيا الناس ـ سابقاً ولاحقاً ـ على ظهر هذا الكوكب، حين بدَّلت وجودهم من جاهلية جهلاء مظلمة، إلى إسلام هو الهدى كله والنور كله. وحين أدركوا ـ ويدركون ـ أن مهمتهم لا تقتصر على أن يؤمن الواحد منهم وكفى، ولكنها مهمة البناء المحكم المتوازن على المنهج الرباني الذي

يتناول الفرد والجماعة والأمة. فانطلقوا بناة صادقين مخلصين، يعمرون الأرض التي استخلفهم الله فيها، عمارة تتسم بشمولها الفكري والاجتماعي والاقتصادي والسياسي.. يفعلون ذلك وهم على بينة من أمرهم في توكيد القاعدة الإيمانية للبناء، توكيداً لا يتجاهل الواقع، ولا سنن الله في الكون، كما لا تعوزه النظرات الدقيقة المتكاملة، مع صدق النية، وصفاء التوكل على الله..

ولنعم ما أشرق به المعلم القرآني في سورة الكهف وأعطى، والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً.

* * *

شخصية المسلم.. ومكونات البناء
الفتية المؤمنون.. وختام سورة الكهف
«٩»

أن نكون قادرين على إحكام الربط بين تكوين الشباب وإعدادهم الروحي والعقلي والجسمي، وبين مهمة البناء التي يفترض أن يحملوها. أمر على غاية الأهمية، والحرصُ على ذلك لا بد أن تظهر آثاره في مناهج التربية والتعليم والإعلام، وبخاصة إذا كان من ولاهم الله مهمة الإعداد على حسن تصور للواقع وأبعاده كلها، والأسباب التي أسهمت ـ وتسهم ـ في أن يكون على ما هو عليه.

على هدي هذه الحقيقة: تجدر متابعة النظر فيما أوحى به المعلم القرآني في سورة «الكهف» من ضرورة القراءة المتدبرة الواعية لموقع الصفات التي وصف الله بها أولئك الفتية الذين سماهم، «أصحاب الكهف والرقيم»: من قصتهم نفسها كما جاءت في الكتاب العزيز ولموقع القصة ـ بعمومها من هذه السورة المباركة ـ سورة الكهف ـ.

والعهد قريب بما رأينا عند النظر في بعض الآيات هناك من التناسق البديع بين فواتح السورة، وبين ما قصَّ الله علينا من تميُّز أولئك الفتية بتلكم الصفات التي بدئت بالإيمان وانتهت إلى مستوى الوقفة الصامدة في وجه طاغوت الوثنية، حتى كأنك تنتقل على سلَّم منهجي من المبادىء العامة النيِّرة بدءاً من قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١﴾ الآيات، إلى العناصر الأساسية في تكوين من تختارهم العناية الإلهية لحمل تلك المبادىء ظاهراً وباطناً، بصدق وإخلاص بالغين.

وقل مثل ذلك فيما كان من تناسق البيان المعجز، بين القصة وبين الآيات التي تلتها مباشرة من السورة.

ومن خلال هذه الرحلة التي نسعد بها مع المعلم القرآني المضيء: نقرأ في خواتم سورة «الكهف» قول الله جل شأنه:﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴿١٠٨﴾ ﴾[الكهف: ١٠٣-١٠٨] .

وهكذا تكشف الكلمات الهاديات بتحديد واضح ـ لا يأتيه اللبس من بين يديه ولا من خلفه ـ عن حقيقة الأخسرين أعمالاً، وعن العاقبة السوأى لأمرهم، كما تكشف ـ بإيضاح يفرح قلوب المؤمنين ويزيدهم إيماناً ـ عما ينتظر الذين آمنوا وعملوا الصالحات من حسن العاقبة خلوداً في الجنة، وفوزاً برضوان الله يوم المعاد، بعد أن شرفوا بالعمل الصالح في الدنيا ولم يشركوا بعبادة ربهم أحداً.

إن الأخسرين أعمالاً ليسوا من صفات الفتية أصحاب الكهف الذين أشرق الوحي السماوي بالحديث عنهم حديث الرضا والثناء.. في شيء، ولكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات: هم الذين يشاركونهم ـ كما تدل الآيات البينات ـ ما أكرمهم الله به من الإيمان وزيادة الهدى، والربط على قلوبهم في معارك الصراع بين الحق والباطل ليحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. والماضي مع الحاضر في هذا على حد سواء، على ما قد يطرأ من اختلاف الوسائل وألوان التحدي والسلاح!!

ولقد كان من صدق الدعوة المحمدية: أنها مكّنت لبناء الإنسان بناءً متكاملاً على الوجه الذي ينبغي، فكان الإنسان الذي يستظل صادقاً برايتها، الإنسانَ الأنموذج العملي لما دعت إليه من مبادىء، وطرحت من قيم هي الحق المبين كلّه، والنور المبين كلّه.

من أجل ذلك كان الحرص على إبراز التكامل بين المقومات الشخصية والفكرية لأولئك الفتية الأبرار، الذين لم يهابوا قوة التيار؛ لأنهم يأوون إلى ركن شديد أقوى منه، وبين موقع قصتهم التي ينتظمها سلك أحسن القصص الذي قصّه الله تعالى على نبيه محمد ﷺ والأمة من ورائه في هذه السورة المكية من القرآن الحكيم.

ولا بد من مـلاحظة العبـرة من نزول أحسن القـصص بصـورة مـبكرة من عـمـر الدعوة في العهد المكي، حيث كان هذا التنزُّل والفئة القليلة المؤمنة، تعبِّد بإيمانها وصبرها على أذى الفتنة: الطريق، وتحتفر بصدق الالتزام والطاعة وبذل النفس وملاذ الدنيا: أسس البناء.

ونظرة واحـدة إلى واقع عـالم الإسـلام اليوم، جـغـرافيـاً، وفكرياً، واقـتـصـادياً، وسياسياً.. إلخ وما تأخذ المجابهة مع النفس ومع العدو الخارجي من صور وأشكال، وما يحظى به هذا العالم من طاقات لو نُميت وأتيح لها ـ بحرية واحترام لإنسانية الإنسـان ـ: أن تأخذ طريقها إلى العطاء الخيِّر والإنتاج المثمر بإخلاص لا يعكره الظلم وتقديس الأنا: لتغيرت المواقع. وأمسكت الأمة من جديد بالزمام، وانقلبت المفاهيم التي تفرض علينا نتيجة الضعف والفرقة والتخلخل.. وإلغاء وجود الإنسان في كثير من الأحيان!!

أجل: نظرة واحدة إلى هذا الواقع، جديرة أن تشد ذوي الرأي وصناع القرار فينا ـ أن لو صدقت النيات ـ إلى المسارعة الحصيفة الواعية في الاتصال الدقيق بالحقائق التي يجب أن تكون، في تنمية المقومات الجوهرية لشخصية المسلم ذكراً كان أو أنثى، المسلم الذي هو أمل الأمة بعد الله، بل أمل الإنسانية كلها. وما الله بغافل عما يقترف أعداء الحق والإنسان.

* * *

المسؤولية.. والبناء والهدي النبوي.. والشباب

«١٠»

لا يعوز الناظرَ المتأمل في حديث رسول الله ﷺ وسيرته خلال رحلة البناء للإنسان بناءً يعدُّه ليكون لبنة صالحة في مجتمع تظلُّه راية الإيمان.. أن يقع على الكثير من عرى الترابط بين معالم القرآن الكريم على هذه الساحة، وبين هديه صلوات الله وسلامه عليه في تربية الفرد والجماعة على الإحسان في محل المسؤولية، وأداء الواجب المطلوب أداؤه على الوجه الذي ينبغي.

وأنت واجد أن هذه العرى التي تحكم الترابط المومى إليه، تبدو أوضح ما تكون عندما يكون المعنيون بخطاب الهداية هم الشباب الذين يراد لهم ـ فيما يراد ـ أن يكونوا على المحجة التي يحدِّد معالمها ويضيء جنباتها القرآن الكريم فيما رسم لتأصيل مقومات البناء والنماء!

ومن خلال المعلم القرآني الذي أشرق به ما جاء في الكتاب العزيز من تعريف بالفتية أصحاب الكهف والرقيم الذي نجده في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾[الكهف: ١٣-١٤] .

من خلال هذا المعلم المبارك، وما يُرى من عطائه المتعلق بالشباب، وإعدادهم لحمل رسالة الخير في أنفسهم وفي المجتمع والأمة، وتنمية قدرتهم على المتابعة بصبر ومصابرة واستعلاء على المعوقات من داخل النفس ومن خارجها.. نقع على لون من ألوان الهدي النبوي على صعيد الاهتمام البالغ بالوقت، خصوصاً عندما يكون ظرفاً لسن الشباب، حيث تطالعنا النصوص بتقرير ما يجب أن يكون عليه وضع العلم والمال في عملية البناء التي ينبغي أن تحقق فيما تحققه من ثمرات: سعادة الدارين، والرقي بالجماعة إلى ما فيه العزة والتمكين ومرضاة الله تبارك وتعالى.

ذلكم قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن علمه ماذا عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه» أخرجه الترمذي والطبراني من رواية أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ولا يعوزك الكثير من التأمل كي ترى في هذا الحديث ارتفاعاً بالإنسان المسلم، إلى مستوى المسؤولية المحيطة من هنا وهناك، فهو إنسان صاحب رسالة، يصحبها منهج سليم يحقق العلم والعمل؛ وهو بهذا مسؤول ـ وقد أُهِّل لاستقبال خطاب التكليف ـ عن كل صغيرة وكبيرة أمام الله عز وجل. وليس مخلوقاً هملاً حظه من الحياة أن يأكل ويشرب ويؤدي مهمة بقاء النوع. وإذا كان الأمر كذلك: فلن ينجيه يوم يقوم الناس لرب العالمين، إلا أن يكون قد ملأ الوقت في عمره المحدود بعامة، وفي مرحلة الشباب بخاصة، بما يعود على نفسه وأهله ومجتمعه بالخير، وأن يكون قد وضع ما آتاه الله من العلم والفقه في الدين على طريق العمل الذي هو إنفاذ أمر الله ونهيه فيما شرع لعباده في شؤون العبادة والتعامل والسلوك وكل ما هو من ذلك بسبب.

ثم أن يكون قد اكتسب المال الذي في حوزته من الطريق الحلال الطيب، وأنفق ما أنفق منه في السبل المشروعة المرضية لله عز وجل.

أرأيت إلى هذه الإحاطة التي نعود إن شاء الله إلى شيء من تفصيلها، كيف أنها من أقوى ضمانات الاستقرار في المجتمع؟!

إنها حرمة الوقت ـ وبخاصة أيام الشباب ـ وحرمة العلم أن يعمل به صاحبه في نفسه وفيمن ولاه الله أمرهم، فيسهم في إضاءة طريق الأمة في ثقافتها وبُناها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية وما إليها ـ لا تستثن ميداناً من الميادين ـ؛ لأن الوقت يكون منها بحسبان والمال بحسبان والعلم بحسبان!!

ولنا عودة إلى هذا المعين الثَّر الذي يشرق بالأهمية البالغة المعطاة في الهدي الرباني لبناء الشباب. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

البناء.. بين الوقت والشباب والهدي النبوي

«١١»

في عود إلى حديث الوقت والشباب إنفاذاً للوعد بذلك، نلاحظ أن الذي دلَّ عليه المعلم القرآني في كلام أولئك الفتية الذين خالط الإيمان بشاشة قلوبهم، وزادهم رب العالمين هدىً مع هداهم: هو ـ بإذن الله ـ ضمان النجاة عندما يوضع المرء أمام المسؤولية وجهاً لوجه، وبخاصة تلك التي تكون بين يدي الله عز وجل، يوم لا تزول قدما عبد من العباد، حتى يسأل عن أربع: **«عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن علمه ماذا عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه»**.

إن كل أولئك الذين تعنيهم قيمة الوقت، وما يمكن أن ينجز في مرحلة الشباب من العمل المثمر الذي قد يتجاوز الفرد إلى الجماعة، بل وإلى الأمة بأسرها.. إن كل أولئك الذين يشرفون بهذا الإحساس الدقيق، يمكن أن يقدروا كلمات الرسول ﷺ الهاديات في ظل المعلم القرآني حين يقول صلوات الله وسلامه عليهم: «عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه» ما مدلول هذا الاهتمام بمرحلة الشباب؟!

إن الوقت لا يقاس بساعاته وأيامه ولياليه، ولكن يقاس بما أنجز فيه من الخير؛ الليل هو الليل، والنهار هو النهار، ولكن شتان بين ساعات ملئت بمقومات البناء التي تعود على الإنسان ومجتمعه بالقوة والنماء ديناً ودنيا، وبين ساعات تضيع بالعبث العابث في كهوف الشهوة، وانعدام الشعور بالمسؤولية طلباً للراحة والعافية المزعومة!

وهنا ـ ونحن نذكر عناية القرآن بإبراز ما كان عليه أولئك الفتية الذين ربط الله على قلوبهم في مواجهة مجتمعهم الضائع؛ نجد في هدي النبي ﷺ أن العمر الذي تزينه مرحلة الشباب وغيرها لم يمرَّ السؤال عن هذا العمر ـ بعامة ـ كيف أفناه

الإنسان، دون السؤال عن شبابه ـ على الخصوص ـ كيف أبلاه وفيم؟ إنها قضية تستوقف المربيَ والناقد البصير ـ كما أسلفنا ـ؛ فالشباب بما يميِّزه من القدرة المتناسبة مع المرحلة، والطاقات الفاعلة المؤثرة، يقابل العطاءَ فيه عهدةً أثقل، ومسؤولية أعظم وأوسع؛ فبمقدار توافر العناصر القادرة على هدم الفساد والتفلُّت، والصبر على ما لا بد منه لبناء القوة الذاتية في الفكر والاجتماع والاقتصاد والتخطيط وما إلى ذلك: تتفاقم الأمانة، ويتسع حجم المسؤولية في الدنيا ويوم المعاد.

من أجل ذلك ـ والله أعلم ـ خصَّ رسول الله ﷺ الشباب ـ وهو يعتمد بعد الله إلى حد كبير على الشباب في بناء المجتمع والدولة ـ خصَّه بهذا الاهتمام والكشف عما يتعلق به من المسؤولية المتميزة؛ فكشف عن ضرورة ملء الوقت أيام الشباب ـ أكثر من أي حقبة أخرى ـ بالعمل المجدي، والعطاء المتدفق الذي يسهم في البناء متجاوزاً الصعاب والمعوقات من داخل النفس وخارجها.

ولسوف نكون قادرين ـ بعون الله ـ على تجنيب شبابنا وفتياتنا ـ أذى السلبية والانحراف، إذا نحن قدرنا إنسانية الشاب وحريته المنضبطة بالحق قدرها، وعملنا بمنهجية وموضوعية لا يعوزهما الأسلوب التربوي المجدي، إذا وضعناهم بحكمة لا تنافي الفطرة على الجادة التي دلَّ عليها المعلم القرآني، وزادنا استنارة بأبعادها هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام؛ وبذلك يعطي الشباب عطاءه المتميِّز ويفلح في ارتياد ميادين الصلاح والإصلاح، تلك الميادين التي تحتاج أول ما تحتاج إلى الأقوياء الأمناء!

هذا: ووجه الترابط الذي نلمسه بين الهدي النبوي في إبراز مسؤولية الإنسان عن عمره عموماً، وعن شبابه بالخصوص، وبين المعلم القرآني الذي يرشِّح الشباب المؤمن للمهام الكبار، مهام التغيير إلى ما هو الأقوم والأفضل، والبناء القائم على أسس سليمة جدَّ سليمة.. إن وجه الترابط هذا: يضع أيدي الذين تؤرقهم عملية البناء في الأمة على مكمن الداء، ومفتاح الشفاء.

ولن تضيع أمة تتخذ من معالم القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبيان هذه المعالم من هدي من لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه، نبراساً كريماً لا تحيد عنه، الأمر الذي يمكنها من الإفادة من معطيات العلم، وتجارب الآخرين دون عدوان على الذاتية والأصالة وصنع الرأي باستقلالية مبصرة.

ومن المهم ـ دائماً ـ أن يوضع الوقت في الموضع الذي وضعه فيه الهدي الرباني في الكتاب والسنة، وانتفع بذلك أيَّ انتفاع بُناة حضارة الإسلام المثلى؛ لكيلا يدوم التعثُّر وتتجدد الندامة ولات ساعة مندم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

الشباب.. وزيادة الهدى
الشمول والحكمة.. في الهدي النبوي

في واحدة من صور البيان النبوي لمعالم القرآن الكريم في شأن إعداد الشباب ـ إعداداً متسماً بالتكامل مادةً ومعنًى ـ يجنبهم المزالق، ويرتقع بهم إلى مستوى المسؤوليات الكبار، وقفنا فيما سبق من القول على واحدة من شذرات الهدي النبوي، سداها ولحمتها: أن رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، لم تشغله مهمةُ تبليغ الرسالة ـ وهو المبلغ عن ربه ما أراد ـ تعليماً ـ وتربية، وإعداداً، والعملُ على بناء الدولة المسلمة الفتية امتداداً للمجتمع المسلم، كما لم تصرفه ضرورات مواجهة الأعداء من مشركين ويهود ومنافقين.. عن أن يقف في واحدة من رحبات المدينة ليقول لفتية من أبناء المهاجرين والأنصار يتحضنون أقواسهم بعزة المؤمن وصرامة الشباب، فيرمون بالنبل ويتراشقون استعداداً لمشاركة آبائهم وأعمامهم شرف الجهاد في سبيل الله.. ليقول ـ كما روى البخاري وابن حبان وأحمد وغيرهم ـ لهؤلاء الفتية من الجيل الجديد الذين تلمح في محيًا كل واحد منهم عزمة الإيمان وبصيرة الأمل: «**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً**». وإنها لكلمات عظيمات جوامع، من أعظم المربين وأكرم الأنبياء!

ودلالة ذلك ـ فيما يبدو ـ: أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان يرى ـ وهو يقود معركة البناء الشامل المتكامل ـ في هؤلاء الفتية الذين زانت قلوبهم. وهم يبدؤون خطواتهم على الطريق الصاعدة ـ إشراقةُ اليقين، ونطقت سواعدهم بالتعرف إلى منهج التمكين، صورةً من صور الإرادة الإلهية بنصر الدعوة وتثبيت أركان الرسالة.

وهل كان أصحاب رسول ﷺ ـ وهم الرعيل المتميز الفريد الذي حمل رسالة الإسلام عن الرسول الأمين إلى الدنيا ـ إلا شباباً!!

إنها لواقعة ـ وما أكثر نظراءها ـ تأخذ أبعادها في ظل كثير من المؤشرات في القرآن الكريم؛ فمع التناسق التربوي الذي ألمحنا إليه من قريب بين البيان العملي منه عليه الصلاة والسلام، حين نزل إلى الميدان، فمارس بناء الشباب بالتربية والتعليم والقدوة، تعليماً للأمة من أين وكيف تنطلق باستعلاء على قيود الزمان والمكان، وبين المعلم القرآني في قوله تعالى عن أصحاب الكهف في سورة الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾.

أقول: مع هذا التناسق والتناغم الواضحين، نجد النسب متصلاً بين هذا الهدي المبارك الفذ، وبين قول الله جل شأنه:﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾[محمد:١٧] .

وإذا كان الأمر كذلك: فماذا عليك لو قلت بملء فيك؟ أوليس من زيادة الهدى، أن يكون الشباب ـ في حقيقة الأمر ـ على سواء الصراط الذي يجعلهم بحق عُدَّة الأمة في مواجهة التحديات؟!

فإذا كانت التحديات اليوم لا تقتصر على ميدان دون آخر؛ فهي في الفكر والاجتماع والاقتصاد وميادين القتال، على أحدث ما تقدم ثقافة الحضارة الغربية، والعلم التقني لأصحابه.. فإن من زيادة الهدى أن يعزم الشباب المؤمن عزمه بمنهجية وإصرار وبصيرة، على الثبات، والتزام الطريق الصاعدة، كيما يكونوا على المستوى الذي تفرضه التحديات في مختلف الميادين، وتوجبه ترجمة القناعة الإيمانية والاستنارة العقلية والعلمية، إلى عمل يضع الأمور مواضعها دون وكس ولا شطط وهو ـ سبحانه ـ معهم يربط على قلوبهم.

ومن البداهة بمكان تقرير أن الأمة يجب أن تكون مع هذا الرعيل من محط رجاء الأمة ـ بعد الله عز وجل ـ بالإعداد الإيجابي على قاعدة راسخة من الإيمان والتعريف بالواقع وأبعاده وملابساته، وبإزالة العوائق الاجتماعية والنفسية التي كثيراً ما تكون انعكاساً للظلم، ومصادرة الحريات، وانتهاك حرمات الإنسان من حيث هو

إنسـان، والتـي قـد تحـول بـين كـثـيـر مـن الشـبـاب، وبين أن يكون عطاؤهم على المسـتوى المكين المطلوب؛ ناهيك عن الإصابة بمرض التشـاؤم وحب العـافيـة، أو الانحـراف والتفلُّت، الأمـر الذي قد يؤدي إلى الانسـلاخ عن جسم الأمـة وصدق الانتماء إليها لا سمح الله.

ألا إن هداية المعلم القرآني، وبيانه من سيرة النبي ﷺ وأصحابه الكرام أمانة، لا في أعناق الشباب فحسب، ولكنها أمانة في أعناق كل القادرين على الإسهام في أن يكون الفتية والفتيات على طريق أسلاف لهم أملَوا كلمة الإسلام على التاريخ، وبنوا على خير الأسس وأكرمها حضارة الإنسان المثلى لبني الإنسان. وصدق ربنا جل جلاله إذ يقول: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴿٩﴾ ﴾[الإسراء:٩] وإذ يخاطب نبيه ﷺ الذي أولاه أمانة البيان لكتابه الكريم بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيراً ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴿٤٧﴾ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٤٨﴾ ﴾[الأحزاب:٤٥-٤٨] .

* * *

ارموا بني إسماعيل..
الشباب.. وحرية الإعداد

الأمة التي تريد أن تطلَّ على المستقبل بعيون أبنائها، وتمهِّد قواعد البناء بسواعد شبابها، هي تلك الأمة التي لا تعتريها السآمة، وهي تُعِدُّ وتكوِّن بمنهجية وصبر، فتيانها وفتياتها على النهج السويِّ المفعَم بإنسانية الإنسان وحريته، كيما يخوضوا معركة البناء والتحدي، ويكونَ وجودهم الممتد بعزيمة وأصالة إلى كل ميدان: صورةً من النمو المطرد في قدرة أمتهم وأهليتها الفاعلة على أرض العطاء!

والأمة الإسلامية التي أعزَّها الله بالإسلام، وعهد إليها بالرسالة الخاتمة لتكون خير أمة أخرجت للناس، على ما واجهت وتواجه من نكبات، وما دبِّر ويدبَّر لها من مكائد! تظل صاحبة القدرة المتجددة على تجاوز الصعاب، حين تحسن صلتها ـ بقوة إيمان وصدق عزيمة ـ بكتاب ربها، وبيانه من سنة نبيها عليه الصلاة والسلام، أن لو وعت ما يجب من وضع هذه الحقيقة على بساط منهجي لا يعوز أصحابه صدق الاهتمام ومعرفة الواقع كما هو!

ولقد أسعدنا ـ كما اتضح من قريب ـ ما رأينا في واحد من المعالم القرآنية من دعوة إلى الإحسان في بناء الشباب على العقيدة التي هي القاعدة الصلبة لذلك البناء، وتنمية قدرتهم على إعلان كلمة الحق التي أدبر عنها المجتمع طائعاً أو مكرهاً بحرية ورباطة جأش.

ولسوف يظل قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ منارة من منارات الهدى لهذه الأمة حين

تريد ـ بحق وهي غير مغيَّبة عن التاريخ ـ أن تطلَّ من جديد على المستقبل المؤذن بالأصالة والذاتية بعيون أبنائها، وتمهد قواعد البناء والنماء بسواعد شبابها، شبابها الذين رضعوا لبان العقيدة، وولَّوا وجوههم بإيمان ووعي شطر استئناف المسيرة الظافرة، التي يسعى نورها بين يدي جند الحق في دنيا الحضارة المثلى والتكامل الذي من عطائه تحقيق الوجود الإنساني للإنسان!

ولقد أعطى الترابط الوثيق بين المعلم القرآني وبين بيانه من هدي النبي ﷺ على صعيد التربية والإعداد بعداً متميزاً يُشعر بعظم مسؤولية الشباب، وضرورة بنائهم بناءً متكاملاً في القلوب والعقول والأجسام والثقافة والتصور، بدءاً من مرحلة الطفولة المبكرة، الأمر الذي يجعلهم ـ بعون الله ـ كفاء هذه المسؤولية في دين الأمة ودنياها، ولنذكر دائماً قوله عليه الصلاة والسلام وهو يبدع في تبيان المسؤولية في الآخرة ـ كما أسلفنا ـ: «.. **عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه**».

والذي يدل على أن الشباب ـ كما يوحي به قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى** ﴿١٣﴾﴾ ليسوا لأنفسهم فحسب، ولكنهم لأنفسهم وللأمة في كل ميدان لا ينهض بأعبائه إلا الشباب: ما يرى الناظر المدقق في سيرة النبي ﷺ من وقائع وتوجيهات كان منها ما جاء في المصادر الموثقة من أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ رأى نفراً من أسلم يتدربون على الرمي والإحسان في إصابة الهدف، فقال لهم: «**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً**» بل شاركهم تحركهم المبارك، ويتضح الأمر أكثر وأكثر إذا ضممنا هذه الكلمات النيرات إلى قوله ﷺ: «**ألا إن القوة الرمي**» رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

إنها الممارسة العملية لإعداد هؤلاء الشباب ـ ومن ورائهم الأمة على مدى الدهر ـ وقد آمنوا برسالة الإسلام، إعداداً يصلحون معه لمواجهة المرحلة الجديدة ـ مرحلة البناء المتكامل لمجتمع يقوم ـ وهو نواة الدولة المسلمة ـ على قاعدة الإيمان، ويتسم بتكامل البُنى مجتمعة، فلا خواء من الناحية الروحية، ولا عرج من الناحية

الاقتصادية، كما لا ضعف في أبنائه على صعيد الفكر أو المواجهة في ساحات الجهاد: **«ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً»** يأمرهم ـ وهو الرسول القائد ـ ويشجعهم ويوجههم إلى المثل، والشباب يرغبون في القدوة والمثل، يسيرون على هديه، ويترسمون خطاه.

إن فعل النبي ﷺ هذا مع قوله في التذكير بالمسؤولية: **«وعن شبابه فيما أبلاه»** دليل واضح على ضرورة استنفاد كل الأسباب التي من شأنها تنمية إمكانات الشباب، ووضع طاقاتهم موضعها المناسب المنتج، بتسييرها في قنواتها الطبيعية كيما تكون عنوان حياة الأمة ومنهجيتها، ووجودها المشرِّف المميِّز بين أمم الأرض؟

ولعل من الخير التذكير بأن قوله ﷺ: **«ارموا بني إسماعيل ـ أو يا بني إسماعيل ـ فإن أباكم كان رامياً»** جزء من حديث فصَّلت رواية الواقعة التي قيلت فيها هذه الكلمات النيرات، تفصيلاً يدل ـ أول ما يدل ـ على عظمة الأسلوب التربوي عنده عليه الصلاة والسلام في دعوة الشباب إلى الإعداد للجهاد، وكيف كان يعطي كل قضية ما تستحق بذلك الأسلوب الحكيم.

ولفظ الرواية عند البخاري: ما روى بسنده عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ـ قال: خرج رسول الله على قوم من أسلم يتناضلون بالسوق، فقال النبي ﷺ: **«ارموا بني إسماعيل فإنَّ أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان»** . قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ـ وعند أحمد (فأمسكوا أيديَهُم) ـ أي عن الرمي ـ فقال رسول الله ﷺ: **«ما لكم لا ترمون؟»** قالوا: وكيف نرمي وأنت معهم؟ فقال: **«ارموا وأنا معكم كلُّكم»** .

يتناضلون: يترامون، من تناضل القوم إذا رموا للسبق. وقوله: فأمسكوا: أي الفريق الآخر تأدباً من السبق على قوم معهم سول الله ﷺ.

* * *

معاقل القوة.. والبناء
زيادة الهدى.. ومسؤولية الشباب

إن شمول رسالة الإسلام شؤون الحياة كافة، وكون هذا الدين هو الذي ارتضاه الله لعباده، بالإضافة إلى أن القرآن الكريم هو منبع الهداية الأول.. كل هذه الأمور مجتمعة، تفسح للمؤمن في آفاق الهداية ـ بما تتسم به في ضوء هذا الدين من عمق وشمول ـ فيرى أن زيادة الهدى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾[محمد :١٧] مطلوبة في كل شأن من شؤون الفرد والجماعة والأمة، لا تستثن ميداناً من ميادين الحياة، ما دام المحور هو الإسلام؛ لأن هدايته تضيء السبيل القويمة لكل شؤون الحياة!

أرأيت إلى هذه الآية الكريمة في سورة «محمد» ﷺ كيف جاءت بالكشف عن استنارة المؤمنين بنور الهداية، مضيئاً بها عقولهم وقلوبهم وجميع تصرفاتهم، بعد الكلام على المنافقين وسوء تقديرهم وتدبيرهم لما أن الله قد طبع على قلوبهم جزاء اختيارهم هذه الطريق الهابطة المظلمة!!

ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾[محمد ١٦-١٧] .

قال الحافظ ابن كثير: (يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئاً؛ فإذا خرجوا من عنده ﴿ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة رضي الله عنهم ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾أي الساعة. لا يعقلون ما قال، ولا يكترثون له. قال الله جل ثناؤه: ﴿ أُولَٰئِكَ

﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح. ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي والذين قصدوا الهداية وفقهم الله تعالى لها، فهداهم إليها وثبتهم عليها، وزادهم منها ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي ألهمهم رشدهم).

فإذا أراد الله بالأمة خيراً، أضاء دروبها بزيادة الهدى؛ فكان لها من شبابها الصورة المثلى لنماء قدرتها الذاتية، واستقلاليتها عند البناء، وضوابطه الخيِّرة التي تضمن ـ بتوفيق الله ـ القوة والاستمرار، والأخذ بوسائل التغيير إلى ما هو الأفضل والأقوم، الأمر الذي يسعف في أن تستتير الأجيال بنور تلك الهداية، وتكون أقدر على الثبات على الحق الذي نزل به الكتاب، والمواجهة الدقيقة المنهجية لمواجهة التحديات!

ولكم نعاني اليوم ـ بل ومن عدة عقود ـ من مشكلة التقنية على سبيل المثال، وكل الرواد والمصلحين ينادون: حتى متى يستخدم غيرنا العلم التقني ـ هذه العصا السحرية ـ في التصنيع الذي يشمل الإنتاج المتجدد المتطور للسلاح ـ فضلاً عن غيره ـ وتكون دنيا العالم الإسلامي ـ على رحبها ـ هي المستهلكة؟! هم يُنتجون ونحن نستهلك!! وينجرُّ ذلك حتى على أخطر القضايا ذات التأثير الفعلي في حياة الأمة ومستقبل أجيالها.

فهل يكون الشباب قنطرتنا إلى نوع من الوجود الذاتي في المضمار التقني، فيشارك المسلمون في صنع ما يستهلكون، ولديهم من مقومات ذلك ـ لو أتيح لتلك المقومات أن توضع موضعها على أرض من الحرية وكرامة الإنسان ـ وبذلك يستأنفون مسيرة الخير في هذا الجانب من البناء، ويرضى الله عنهم ورسوله، ويصبح في مقدورهم أن يكونوا هم وحدهم صُنَّاع القرار الذي يمسُّ مصالحهم ووجودهم من قريب أو بعيد؟!

وإذا ذكرنا أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ يحمل البشارة العظيمة بتوفيق الله أولئك المؤمنين البناة بزيادة هداهم، رجاحة عقل، وطمأنينة قلب، وحسن فهم وتدبير على صعيدي الدنيا والآخرة في مقابل قوله جل شأنه في شأن المنافقين الذين عميت منهم البصائر، وغشيَ الرانُ القلوب، فكانوا في المجتمع عناصر هدم وتخذيل وتخلُّف﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

إذا ذكرنا ذلك بتدبر وإمعان: تأكد لدينا ما لقصد الهدى بصدق وفضل الله في زيادته على الوجه الذي ألمحنا إليه من بُعد على طريق البناء الذاتي للأمة، البناء المبرأ من عوامل التبعية في الفكر والتصور والثقافة؛ لأنه ليس مهماً أن توجد الأمة، وتكون ظلاً لغيرها ممن لا يرقبون فيها إلاً ولا ذمة، ولا يرعوون عن الإساءة إليها ومظاهرة المعتدين والغاصبين الماكرين، ولكن المهمَّ حقاً أن تكون لها البنية الذاتية المستقلة، والنماء النابع من هذه الذاتية التي أثمرتها ضوابط الدين الحنيف في ظل قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠]

من هنا كانت ضرورة العناية بإعداد الشباب بمنهجية واعية على الوجه الطموح الذي يرتفع بهم إلى تحقيق هذه الغاية، حيث تسلك السبل المؤدية إلى هذا التحقيق بقناعة يقينية وعزيمة راشدة.

صحيح أن الواقعة التي ألمحنا إليها من قبل ـ واقعة لها خصوصية التدريب على السلاح كيما يصل الشباب إلى المستوى المطلوب في الرمي، ولكنها في دلالتها ترسم صورة الاهتمام البالغ والعناية الجادَّة بتربية الشباب على التميُّز في الشعور بالمسؤولية والقدرة على تحقيق الغايات الكبار في الحرب والسِّلم، والكشف عن دورهم الأوليِّ البارز في المجتمع المسلم والدولة المسلمة، بأصالة وصدق انتماء، وعِظم الغايات التي يرام الوفاء بها بسواعدهم. لا بالسواعد المستعارة التي لا تثمر في خاتمة المطاف إلا ما يبعث على الندامة ولات ساعة مندم!!

وما بدٌّ من استذكار أن القائم بهذا الصنيع، اهتماماً بالغاً وعناية جادّة بهذا اللون من ألوان الطاقة البشرية في الأمة، هو الإنسان الأول في الأمة، رسولها وقائدها الذي لا ينطق عن الهوى، وطاعته صلى الله وسلم وبارك عليه من طاعة الله.

إنها قضية كبيرة في مدلولها، وبخاصة ما توجه إليه من وجوب أن يتأسى القائمون على التربية والتعليم والإعلام بالرسول ﷺ بهذا، مفيدين من كل ما يرفد هذه الحقيقة من وسائل متجددة لا تتنافى مع عقيدة الإسلام وسلامة التصور الإسلامي.

أجل وإنها لقضية جذرية في مضمونها على ساحات البناء والإنماء في مراعاة للواقع والعطاء المتجدد للعقول على الصعيد الإقليمي والصعيد العالمي.

إن موقف التأسي بالنبي ﷺ وبمن استنَّ بهديه عبر تاريخنا المجيد في هذه القضية الكبرى ونظائرها، كفيل بإدراك الأبعاد الميمونة المترامية الأطراف لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ والانتفاع بما تعنيه هذه الأبعاد من تكييف المناهج التعليمية والتربوية والإعلامية وكل ما يمت إلى ذلك بصلة، كيما يتوفَّر لها ـ شكلاً ومضموناً ـ عنصر الحركة القادرة ـ بعون الله ـ على وضع الشباب المصونة حقوقهم في الحرية وتقدير المواهب : موضعهم اللائق في المجتمع والدولة من خلال الضوابط الإسلامية غزيرة العطاء، الأمر الذي يبرز طاقاتهم ومواهبهم على صعيد الإنتاج المثمر، ودفع المركب الحائر إلى حيث الوجهة السليمة والصراط المستقيم، ثقافةً وتصوراً وتطبيقاً، وما ذلك على الله بعزيز.

*　*　*

الشباب.. والتكامل في بناء الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى مع سورة النور

«١»

من خصائص المنهج الرباني: تحويل القيم التي جاءت بها الرسالة الخاتمة إلى وجود ذاتي عملي في المجتمع، يحكم تصرفات الأفراد، ويجعل الواحد منهم ترجماناً صادقاً لهذه القيم، فتراه يطبع سلوكهم بطابعها، سواء كان التعامل مع الخالق جل وعلا، أو مع عباده، كما يجعل من ذلك المجتمع ـ في حركته وسلامة بنيته ـ صورة عملية ناطقة باسمها..

وكل أولئك في شمول يتسق مع شمول المنهج الرباني نفسه؛ فمعركة البناء المقترن بحركة الحياة تخوضها الأمة على كل صعيد وفي كل ميدان.

ومن ثمَّ، تبدو هذه الحقيقة دليلاً واضحاً على أن ما جاء به الدين الحنيف ـ كما سلفت الإشارة غير مرة ـ ليس مجموعة قضايا تجريدية يهوِّم أصحابها بفلسفتها البعيدة عن الواقع، وتستعصي على التطبيق، ولكن ما جاء به ـ وهو الدين الذي خاطب العقل والقلب جميعاً، والذي أكمله الله وارتضاه لعباده ـ: منهج كله صواب وكله حكمة؛ فهو للإنسان يسلك به طرائق السعادة والخير، ويمكنه من بناء الحياة على الوجه الذي يشيع النماء والسعادة والاستقرار في كل جانب من جوانب الحياة، ما كان متعلقاً بالفرد وما كان متعلقاً بالجماعة.

ومن الأهمية بمكان: أن نستذكر موقع الشباب في إبراز الوجود العملي لهذه الحقائق. وإذا كان عامة الصحابة في الأعم الأغلب شباباً كما هو معلوم، فإن حظَّ الشباب اليوم من ذلك: يجب أن يكون الحظ الوافر تربيةً وإعداداً كيما يكونوا ـ وهم النسغ القوي للأمة ـ على السَّنن الأول في عهد الصحابة، شباب الأمة الذين آمنوا وعملوا بما علموا وجاهدوا ونقلوا هذا الدين بأمانة إلى الأجيال.

حملني على أن أسوق هذه الكلمات المبنية عن هذه الحقيقة: تعدد مواطن الكتاب الكريم التي أشرقت بالعديد من الآيات الناطقة بها، أو الدالة عليها بصور من أساليب البيان المعجز في هذا الكتاب، وأن يكون في ذلك تذكير بما يجب من وضع الشباب المؤمن بمنهجية وحكمة على طريق العمل المجدي، والعودة إلى تحقيق الوجود الذاتي للأمة في مواجهة التحديات.

من ذلك ما تطالعنا به سورة النور ـ وهي سورة مدنية ـ من آيات كريمات ترفع من قدر رجال يتصفون بصفات توحي بالتكامل الذي نومي إليه تصوراً وسلوكاً، وهو تكامل يشرق في جنباته فقه العبودية لله تبارك وتعالى بما يجب لها من يقظة إيمانية في كل ميدان من ميادين الحياة، لتأخذ موقعها الملائم في كل حركة على صعيد البناء الذي تملي وجوده الرسالة المحمدية في شؤون الفرد بخاصة والمجتمع والأمة بعامة.

ذلكم قول الله تبارك وتعالى بدءاً من الآية السادسة والثلاثين: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

ففي تلكم البيوت التي أذن الله أن ترفعَ ويذكر فيها اسمه يسبح له جل شأنه فيها رجال يزاولون الحياة، ويسهمون في تنمية القدرة الاقتصادية للمجتمع، ولكن ذلك لا يشغلهم عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.. لما أنهم ـ وهم يخوضون غمار الحياة بشتى ميادينها ـ لا ينسون الله واليوم الآخر، ـ وهذا من الثوابت الإيمانية ـ فهم يخافون سوء العقبى في ذلك اليوم الذي يبلغ من شدته أن تتقلب فيه القلوب والأبصار.

هكذا يسير العمل في الدنيا عند هؤلاء المثنيِّ عليهم من لدن رب السماوات والأرض، وفق المفهوم الشامل للطاعة الحقة لله عز وجل، وهي الطاعة التي تتحقق معها العبودية الخالصة له تعالى﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا

لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات:٥٦] ؛ فهي لا تنحسر عن ساحة من ساحِ الحركة الفاعلة في الحياة، الأمر الذي يؤذن بأنهم يطيعون الله جل جلاله في كل ما تعبدهم به مما رسم لهم من أحكام تنظم شؤون الدين والدنيا، وتسعد الإنسان ـ أن لو استقام على الطريقة ـ يوم توفى كل نفس ما كسبت جزاءً وفاقاً.

أرأيت إلى هذا الوضوح!! إخبار إلهي عن هذا الصنف من الناس المرضيين له سبحانه ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾النور:٣٦] يقوم عُمَّار هذه البيوت العمارة المعنوية بالتوجه إلى مولاهم بالغدو والآصال، بالتسبيح الذي يعني التنزيه المطلق لمولاهم عن كل نقص؛ كما يذكرون ربهم جل شأنه ولا ينسونه، وهذا يعني الاستمساك دائماً بأداء ما أوجب عليهم!! وتراهم يقيمون الصلاة بشرائطها وأركانها وواجباتها وسننها وخشوعها، ويحافظون على أدائها على وقتها وما استحفظهم الله فيها.

وفي الوقت نفسه، لا ينسون حق المجتمع الذي أمرهم الله به وافترضه عليهم، فتراهم يؤدون زكاة المال على الوجه المطلوب، الأمر الذي يسهم إسهاماً جذرياً فيما تنشده المجتمعات من تكامل في بناها يضمن لها القوة والتماسك، وأن يكون لتبادل الود واحترام الإنسان سلطانه على التعامل في المجتمع.

إن الرغبة الصادقة عند هؤلاء الرجال المعنيين في الآية الكريمة، في تحقيق العبودية الخالصة لله عز وجل، في ضوء منهج الحياة الرباني: كانت أقوى من الانشغال بالنعمة عن المنعم تباركت أسماؤه، والتهاون في أي حق من الحقوق؛ فهم يقدمون ـ بانشراح صدر وطمأنينة قلب ـ طاعة الله ومراده ومحبته، ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام على كل مراد لهم أو رغبة: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[آل عمران: ٣١] .

وتراهم ـ وقد ذاقوا حلاوة الإيمان بالله واليوم الآخر ـ يخافون هذا اليوم الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار من شدة الهول والفزع، وما يعانيه العباد من ترقب المصير؛ ذلك بأنهم يحسُّون إحساساً إيمانياً صادقاً بالمسؤولية، ويراقبون الله تعالى ـ وهو الذي يعلم السر وأخفى ـ ظاهراً وباطناً في كل ما يأخذون وما يدعون.

وهكذا تبدو صورة التكامل حيَّة ناطقة تدعو إلى التأسي بسلوك هؤلاء الأبرار الذي جاء التعبير عنهم بقوله تعالى ـ كما سبق أن رأينا ـ: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾[النور: ٣٧] .

إنهم مقبلون إقبالاً متجدداً على العمل لتزكية أنفسهم، وبناء الحياة بناءً يتسق تمام الاتساق مع الهدي الرباني الذي تشرق به الكلمة الطيبة [لا إله إلا الله محمد رسول الله] ، والإسهام في دفع القافلة الخيِّرة إلى الأمام ومواجهة ما يعترضها من مصاعب وعقبات؛ لما أنهم على وعي إيماني ـ يجمع إلى صفاء القلب استنارةَ العقل ـ لحقيقة أن الله تعالى تعبَّد عباده بما شرع لهم في شؤون الدنيا والآخرة جميعاً، وقد عاهدوه ـ سبحانه ـ على ذلك، وهم يستشعرون أبداً وجوب الوفاء بهذا العهد ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴿٣٤﴾﴾[الإسراء:٣٤]

ثم إن هذا الذي نلمح إليه في وجازة من القول لا يحتمل المقام أكثر منها: ذو نسب إلى ما سبق أن سعدنا باصطحابه من طائفة من الآيات البينات في سورتي البقرة والقصص.

ولكم تبدو ملحةً حاجة المجتمع والأمة ـ ونحن على حال تدمى لها القلوب وتتفتت الأكباد ـ إلى جيل يحكم تصرفاته هذا السلوك الفذُّ، ويتاح له أن يقود قافلة التحويل إلى ما هو الأفضل والأقوم من جديد.

وسبحان من لا يضيع عنده عمل عامل من ذكر أو أنثى وهو العليم الحكيم.

* * *

البناء المتكامل.. وسلوك المؤمنين وسورة النور

«٢»

في عود إلى متابعة القول في السلوك الذي ينبىء عن التكامل في منهج البناء في ظل الرسالة الخاتمة والعمل على إعداد الشباب لذلك؛ ما بدٌّ من التذكير بما جاء في سورة النور من قول الله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ ﴾[النور:٣٦-٣٧] .

وأنت واجد في هذه المجموعة المباركة من الصفات التي ذكرها الله لهؤلاء ـ وفي مقدمتها أنهم ينزهون ربهم عما لا يليق به أوائل النهار وأواخره في تعبير يدل على الديمومة ـ صورةً تطبيقيةً عمليةً لما سبق أن دلنا عليه المعلم القرآني في سورتي البقرة والقصص ـ والأولى مدنية والثانية مكية ـ حيث جاءت الإشارة في سورة البقرة إلى أن طاعة الله كائنة فيما تعبد الله به عباده، على اتساع ساحة التعبُّد وشمولها لشؤون الدنيا والآخرة؛ لأنه هو الذي خلق وقدّر وسخَّر ما سخر من النعم ومفاتيح البناء للحياة؛ ذلكم قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[البقرة:٢١-٢٢] .

أما في سورة القصص: فقد عرض القرآن على المؤمنين ما وقع من قارون ـ الذي آتاه الله ما آتاه من الكنوز ـ من البغي والفساد في الأرض، وندَّد بصنيعه؛ لأنه نسي الله الذي أنعم عليه بما أنعم من تلك الكنوز العظيمة، ولم يرعَ حقه سبحانه

في أداء ما يجب عليه من حقوق في المال يفيد منها المجتمع، ويكون في أدائها شكرَ للمنعم سبحانه، وبعداً عن الفرح الذي هو عند قارون بطر وأشر، وليس فرحاً بفضل الله العظيم عليه.

كما كشفت عن تلك الموعظة البليغة التي وعظه بها صالحو قومه، والتي حملت توجيه الفئة المؤمنة إلى ما ينبغي أن تتسم به رحلة البناء من حرص على التكامل بين العمل والغاية والتحرك الصادق في إطار العبودية لله تعالى: والآيات في هذه السورة الكريمة ـ وقد سبق إيرادها ـ هي قول الله جل ذكره:﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[القصص:٧٦- ٧٧]

وما من ريب في أن المسلك الذي كان مناط البناء عند أولئك الأخيار من المؤمنين في سورة النور: هو المسلك الذي ينبيء عن سلامة الإعداد، وبناء المسلم قلباً وعقلاً وصدق عزيمة على الوجه الذي تتحقق معه سلامة التصور، بوعي إيماني تتضح معه الرؤية، والقدرة على الاندفاع الذاتي لملء ساحات البناء مهما كلَّف ذلك من البذل، تحقيقاً لطاعة الله تعالى فيما تعبد به المسلم، مصحوباً ذلك برجاء الفوز بمرضاته سبحانه وتفضله بإحسان العاقبة يوم الدين.

ولا يرتاب منصف نيِّر البصيرة أن هذا الذي نومىء إليه: يضمن ـ بإذن الله، مع الأخذ بالأسباب المنتجة المشروعة، والسير مع سنن الله في خلقه ـ تكوين المجتمع القوي على أسس سليمة تضمن التعاون والاستقرار، وهو ما فعله رسول الله ﷺ يوم قاد عملية البناء بعد الهجرة؛ فكان المجتمع القدوة، وكانت الأمة التي أكرمها الله بأن تكون خير أمة أخرجت للناس.

ومن أجل ذلك ـ والله أعلم ـ سمى الله أولئك العمَّار لبيوته: رجالاً، إشعاراً بحسن نياتهم، وعلو هممهم، وصدق عزائمهم التي اقترنت بسلامة سلوكهم المتكامل في شؤون الدنيا والآخرة، وهو السلوك الذي يتطلب ذلك كله كما قال تعالى في موطن آخر من سورة مكية: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[الشورى:٣٧] كما وصف أولئك الصفوة الذين صدقوا في مواطن اللقاء ابتغاء مرضاة الله وطلباً للشهادة في سبيل الله بقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴿٢٣﴾﴾[الأحزاب:٢٣] .

إن الجيل الذي يجتمع له ـ بعد الإيمان ـ سلامة التصور، والاندفاع الذاتي إلى الواجب: ـ طاعةً لله تعالى ـ: هو الجيل المبتغى للأمة اليوم ذكوراً وإناثاً، لما أنه ـ إذا أتيحت له الفرصة وتخلَّى الظلمة عن الطغيان ومصادرة الحريات ـ هو الجيل المبتغى لها اليوم في عملية استئناف الطريق إلى وجود ذاتي متحرر من الإيحاء الخارجي، ذلكم بأنه هو الجيل الذي يبدو صادق النسب إلى أولئك الذين حملوا العبء بأمانة وقوة وإخلاص، ورفعوا بكفاءة نادرة القواعد السليمة لحضارة الإسلام. وصدق ربنا جل شأنه إذ يقول: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾[آل عمران:١٩٥] .

* * *

البناء.. والاستجابة لدعوة الحياة وسورة النور

«٣»

كلما أمعنت النظر فيما رسم الكتاب العزيز وبيانه من السنة المطهرة من ضوابطَ لعلاقة الإنسان بالكون والحياة، وطبيعة المهمة الملقاة على عاتقه في إطار هذه العلاقة وأنه لم يُخلق عبثاً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾[المؤمنون:١١٥]

كلما أمعنتَ النظر في ذلك: ازددتَ يقيناً بأن المسلم ـ كما قررت الرسالةُ الخاتمة ـ ليس بمنأى عن الحياة، بل هو ـ بإيمانه الصادق وصفاء قلبه وتفتح عقله ـ مستجيب لدعوة الحياة التي حملت للإنسان سعادة الدنيا والآخرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[الأنفال: ٢٤]

ولكن هذا المسلم يخوض معركة الحياة بإيمان وعلم وموضوعية منتجاً بانياً ـ على هدى ـ ضمن منهج رباني لا يغادر ساحة من ساحات العمل إلا ينيرها، ويعطي حكمه من طريق التوجيه إلى الاجتهاد وإعمال العقل، في الشؤون المتجددة، كما يعطي حكمه ـ من طريق النصوص ـ في الشؤون الثابتة، ناهيك عن ضبط التصرفات والسلوك.

ولقد أثنى الكتاب الكريم ـ كما دلنا المعلم القرآني في سورة النور ـ على أولئك الذين يعمرون المساجد ـ وجلُّهم شباب ـ بكل ما هو قربة إلى الله تعالى: بأنهم ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ ﴾[النور:٣٧] .

والمنهجية المتكاملة واضحة في هذا السلوك المثنيِّ عليه؛ فهؤلاء المؤمنون الصادقون الذين كانوا يتحركون على عتبة الشباب يواجهون الحياة ويخوضون معركة البناء بشتى

ميادينها وما يحدث فيها، ضمن مفهوم دقيق لمعنى العبودية لله عز وجل وما يقتضيه من طاعة الله تعالى فيما تعبَّد به العباد في شؤون الدنيا والآخرة جميعاً.

وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق، من خلال نظرة إجمالية في الآيتين اللتين يجري الإلماح إلى معناهما في السورة المشار إليها سورةِ النور.

والآيتان الكريمتان هما قول الله جل ذكره: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾[النور:٣٦-٣٧].

ولقد حمل إلينا التاريخ الحضاريُّ لأمة الإسلام صوراً من التفاعل بين المسلم ـ بوصفه مسلماً ـ وبين تلكم السمات المنيرة لسلوك أولئك البررة الذين نزل في شأنهم قرآن يتلى، وهي صور تؤكد أن المنهج الرباني هو للإنسانية ـ كما أسلفنا من قريب ـ في كل زمان وفي كل مكان؛ فهو من هدي الحكيم الخبير الذي يعلم ما يصلح للإنسان في دينه ودنياه وآخرته كما خلقه هو سبحانه وسوَّاه. روى الطبري عن هشيم عن سيار قال: حدثت عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق حيث نودي للصلاة المكتوبة، تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة، فقال عبد الله بن مسعود: هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية.

وهكذا روى عمرو بن دينار القهرماني عن سالم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد، فقال ابن عمر: هؤلاء الذين ذكر الله في كتابه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري. وقال مطر الوراق: كانوا يبيعون ويشترون، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلى الصلاة.

وانظر إلى هذا الذي يقوله أبو الدرداء رضي الله عنه فيما روى ابن أبي حاتم: إني قمت على هذا الدرج أبايع عليه أربح كل يوم ثلاثمائة دينار وأشهد الصلاة في

كل يوم في المسجد، أما إني لا أقول: إن ذلك ليس بحلال، ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله فيهم: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

ولا يخفى أن ظاهرة هذا التفاعل بين المسلم وبين ما تقتضيه العبودية الحقة لله عز وجل: ظاهرة لها أبعادها فيما وراء النماذج التي ذكرنا؛ فهي تسلمنا إلى الميزان الدقيق في مراحل البناء الحضاري الذي قام على كواهل أولئك البناة المؤمنين الأماثل، كما تقدم ما يسهم في الإجابة عما كان من السرعة الزمنية التي ضمنت ـ بعون الله ـ انتشار دعوة الإسلام انتشاراً باهراً، وصياغة المجتمع الجديد في ظل الواقع الجديد، وإنشاء تلك الحضارة المتميزة بعيداً عن العور والعرج ـ كما يرى في حضارة اليوم ـ التي تركت بصماتها على كل أرض استعلنت فيها الكلمة الطيبة (لاإله إلا الله محمد رسول الله).

* * *

البناء الحضاري.. والتكامل تربية وسلوكاً مع سورتي النور والمنافقون

«٤»

إن الذي طالعتنا به سورة النور من قول الله جل ثناؤه: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ ﴾[النور:٣٦-٣٧] . كما يدلّ على تفاعل هؤلاء الرجال المتقين مع الذي تقتضيه عبودية الله عز وجل من طاعةٍ في كل ما تعبَّد ـ سبحانه ـ به عباده المؤمنين ذكورهم وإناثهم مما يتَّسع لشؤون الدنيا والآخرة جميعاً اتساعاً يتسق مع الفطرة وسنن الله في الكون: تراه يأخذ بأيدي أبناء الأمة إلى ما يؤكد الطابع المتميز لحركة المؤمن في بناء الحياة، فهو لا يبني جانباً على حساب جانب آخر، ولكنه يأخذ المسلك المتكامل الذي يثمر البناء المتكامل الذي أنزله الله ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور في مختلف الشؤون.

ذلكم ما نجده في قول الله تباركت أسماؤه:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[المنافقون:٩] .

ومن لوازم التعبير القرآني هنا: أن المؤمنين يعيشون واقع الإنسان كما خلقه الله وكوّنه ـ وكان ذلك في أحسن تقويم ـ ويتجهون وجهة الحياة بناءً وإنماءً للطاقات الاقتصادية والبشرية؛ فلديهم أموال يجمعونها من الطرق التي أحلّ الله، وتراهم على السنة التي تركهم عليها رسول الله فهم يتزوجون فيتوالدون ويتكاثرون.

ولكن الأموال والأولاد ـ وهي من زينة الحياة الدنيا ـ لا يجوز مهما كان شأنها، أن تلهيهم فتصرفَهم عن وجهة الحق في طاعة الله تعالى.

ومن أجل ذلك جاء النهي صريحاً عن ذلك في هذه الآية الكريمة فقال جل شأنه:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وذكر الله هنا ـ والله أعلم ـ ذو مدلول أعمَ وأشمل من الذكر باللسان فحسب؛ فهو إلى جانب ذلك: ذكر الله بالتعرف إلى حكمه في كل تصرف يتصرفه المؤمن وعنده وهو يزاول شؤون الحياة ويمارس عملية البناء في ميدانه الذي أقامه الله فيه.

وبذلك يكون وقَّافاً عند حدود الله؛ لا يفقده حيث أمره، ولا يجده حيث نهاه.

وعندها ترى عجلة التقدم المضطرد تسير بفاعلية وحكمة، مصحوبة بالأيدي القوية الأمينة التي تنتج وتنمي، والعقل المستنير يضع الأمور مواضعها، والقلب تخالطه بشاشة الإيمان، فيجعل من صاحبه صورة أمينة للقيم التي يحملها بين جنبيه على نور الهدي الرباني في كتاب الله والسنة النبوية المطهرة.

من هنا جاء الخطاب القرآني بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تذكيراً بالقاعدة التي ينبني عليها التكليف، فهذا النداء العلوي الذي يأخذ طريقه إلى الأعماق من نفس المؤمن في قلبه وعقله، يوحي بأن من مقتضيات الإيمان أن لا يضعف المؤمن عن حسن الامتثال، فتلهيه الأموال والأولاد عن ذكر الله.. عن التذكر واليقظة الدائمة، وعليه أن يخوض معركة الحياة، ويسهم في ملء ميادينها بالنافع المثمر الذي يعود عليه بمرضاة الله تعالى، ويعود على المجتمع بالخير والنماء، الأمر الذي يرفد طريق الأمة بالكثير من القوة والعزة الإيمانية، وسلامة الكيان الذاتي، دونما عدوان على المنهج الذي يفترض ـ تلقائياً ـ أن يحكم التصرفات والسلوك.

والملاحظ أن الآية ختمت بقوله تعالى:﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾حيث يعود اسم الإشارة في «ذلك» على التلهي بالأموال والأولاد عن ذكر الله.

وما أعظمه تنبيهاً على أن الربح الحقيقي ليس في جمع المال والاستمتاع بنعمة الأولاد، مع نسيان الخالق المنعم جل شأنه، والتهاون في أداء الحقوق، ولكنه استشعار طاعة الله في ذلك كله، وأداء ما أوجب الله في هذين الشأنين من حقوق، ووضع المال وتوظيفه ـ بعد كسبه من حِلِّه ـ في طرائق النماء الاقتصادي المشروع الذي يعود على الفرد والجماعة برفع المستوى ومسببات النماء والخير.

والعدول عن ذلك خسارة أي خسارة، ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ في الدنيا والآخرة.

ذلكم هو المعيار الذي يمتحن المؤمن بالتزامه والأخذ به عن رضاً وانشراح صدر وهو يكدح في هذه الحياة، كيلا تضيع جهوده سدىً يوم لا ينفع مال ولا بنون.

وهكذا يبدو الفارق الأساسي بين مسار الحضارة الإسلامية وبين مسارات الحضارات الأخرى؛ ففي الحضارة الإسلامية، يبني الفرد على أسس تتكامل معها شخصيته وتصوراته على صعيدي الدنيا والآخرة، ويندفع إلى العمل بحوافز إيمانية تثمر البناء الحضاري المتكامل، دونما عرج أو عور، حيث لا ينمو جانب على حساب جانب آخر.

فتش عن الحقيقة. وفتش عن سعادة الإنسان.. فهل أنت واجد في الحضارة العرجاء شيئاً من الإنصاف والمطابقة بين الدعاوى والتطبيق؟

إن الأمة التي تكتوي بنار ذاك الانحراف الذي يمارسه الأقوياء أهل الحضارة العرجاء، مسؤولة عن مراجعة رصيدها الإيماني والتاريخي والعودة الصادقة إلى منهج الله تبنى في ظله ذاتها من جديد، وتعيد الحق إلى نصابه هنا وهناك، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله وتتنفس الإنسانية كلها الصعداء، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

* * *

التكامل في البناء.. وعطاء القرآن في التربية والسلوك النور.. والمنافقون

«٥»

في ضوء ما وقفنا عليه المعلم القرآني فيما أسلفنا من القول في شأن التكامل الذي يتطلبه المنهج الرباني على صعيد البناء للفرد والجماعة كيما يكون نسغ الفرد قوياً ـ وأكثر ما يظهر ذلك في الشباب ـ كيما يرتفع إلى مستوى أن يكون ركيزة مهمة في بنية الجماعة ـ على تعدُّد البنى في المجتمع وتنوعها.. في ضوء ذلك، يبدو النسب واضحاً بين ما جاء في سورة النور بدءاً من قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ ﴾[النور:٣٦-٣٧] ، وبين قوله جل ذكره في الآية العاشرة من سورة المنافقون: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[المنافقون:٩-١٠] .

ففي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ.... ﴾نهي واضح عن الوقوع في هذا الانفصام بين مقتضى الإيمان، وبين سلطان الأموال والأولاد على النفوس، ودعوة صريحة إلى النهج المتكامل الذي يذكرنا بتلك الموعظة التي رأينا من قبل في سورة القصص على لسان الصالحين من قوم قارون وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[القصص:٧٦-٧٧] .

والنهي الذي نراه في الآية السالفة الذكر من سورة «المنافقون»: وجدنا صورته العملية في سلوك أولئك الذين ذكرهم الله بوصف الرجولة، وأثنى عليهم ثناءً عظيماً بقوله تباركت أسماؤه: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ ﴾... الآية.

ولئن ختم قوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ بقوله: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾حيث الوعيد الشديد بالخسران، وهو وعيد شديد مرعب يخشاه المؤمن الذي يتطلع أبداً إلى العاقبة الحسنة يوم الدين؛ لأن في الكلام نوعاً من الحصر، بجعل الخاسرين الحقيقيين الذين يعني خسرانهم ما يعني! هم أولئك الذين يخالفون عما نهى الله عن وقوعه وذلك بقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ والمؤمن يبتغي عند الله الربح الذي يمليه المعيار الحكيم، ويخشى تلك الخسارة المحققة والعياذ بالله..

أقول: لئن ختمت الآية بهذا الوعيد! إن الآيات التي حملت الثناء العاطر على أولئك المتقين المحسنين من أهل الإيمان في سورة النور: ختمت ببشارة عظيمة نقع عليها في قول الحكيم الخبير الذي خزائنه ملأى لا تغيضها النفقة ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النور:٣٨].

فبجانب ما يكون لهم من الخير والتمكين في الدنيا تمكيناً يسعف في نشر الدعوة المحمدية، وأن تكون كلمة الله هي العليا: يكرمهم الله يوم القيامة، بأن يتقبل حسناتهم بقبول حسن ويتجاوز عن سيئاتهم. وأكثر من هذا ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي يتقبل منهم الحسن من العمل ويضاعفه لهم، كما قال تعالى: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام :١٦٠] وكما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٦١] .

وما من ريب في أن فوزهم بالجنة، التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويرزقون فيها بغير حساب، مع إحلال الرضوان الأكبر عليهم!! كل أولئك من عطاء الله وفضله، وهو ـ جل شأنه ـ ذو الفضل العظيم.

وروى الطبراني بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [فاطر:٣٠] قال: «**أجورهم الجنة، ويزيدهم من فضله: الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة، لمن صنع المعروف في الدنيا**».

ومهما يكن من أمر: فإن النظرة المتدبرة إلى تلكم الآيات، وما تحمل من ترتيب النتائج على المقدمات في ظل ما ينبغي من التكامل والبعد عن التناقض بين القول والفعل.. تسلمنا إلى أن نقدر حق القدر ما تحمله من عطاء في إنشاء الحوافز الذاتية من داخل النفس، تلك التي تجعل من حركة المؤمن على نور من الله: طاقة هائلة على طريق البناء المتكامل المتوازن على هدىً من الله في منهجه الرباني الذي أراد للمؤمن أن يبني ـ من خلاله ـ فيحسن البناء، ونمَّى في حسِّه سلامة التصور كما هو مقتضى العبودية له تبارك وتعالى، في ساح متسعة الأرجاء لحركة الحياة، بكل ما تتناوله تلك الحركة من شؤون، وما تهدف إليه من غايات!!

والنظرة المتدبرة المشار إليها: ضرورة ملحة، لا بد من أن تأخذ حجمها اللائق في مناهج البناء والإعداد، وطوبى لمن عمل فأحسن العمل، وبنى فأجاد البناء.

* * *

الشباب تكامل البناء.. وسلامة المعايير
البقرة.. المنافقون

«٦»

من مظاهر الأسلوب الحكيم في معالم الكتاب الكريم الذي أنزله الله على عبده محمد ﷺ ولم يجعل له عوجاً، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد: ما يلحظ الناظر المتدبر لآي هذا الكتاب: من العناية الفائقة بتربية المؤمن ـ وهو يستخدم عقله ويأخذ بالأسباب ـ على أمر غايةٍ في الأهمية، وهو أن المعيار الحقيقي السليم للقيم، والحكم بما هو ربح وما هو خسران، وما هو خير وما هو شر: هو المعيار الذي جاءت به الآيات الكريمات عن الله عز وجل، وبيَّن ملامحه رسول الله عليه الصلاة والسلام في هديه وسيرته المباركة الميمونة.

ولا يخفى على أهل البصائر الذين يمارسون عملية البناء على صعيد الفرد والمجتمع ويعنون بإعداد الشباب: أن ذلك مما يطبع سلوك المؤمن ذكراً كان أو أنثى ـ وهو يمارس الحياة، ويعمر الأرض، ويبني الحضارة، ويكدح للكسب والانتفاع بما أسبغ الله من نِعم ـ بطابع الإيجابية الفاعلة، والبعد عن الفوضى في تصريف الأمور، وعن التناقض بين المعتقد وبين الواقع الذي تنشئه الحركة والممارسة!

ففي قضية من كبريات قضايا هذا الدين لأنها ذروة سنامه ـ وهي الجهاد، كما بين عليه الصلاة والسلام ـ جاء القرآن ليكشف عن أن المعيار الصادق للحكم على أن القتال الذي شرعه الله وكتبه على المسلمين خير لهم أو شر؟ هو ما يكون من عند الله عز وجل؛ لأن الله هو العليم بما هو صالح للفرد والجماعة والأمة، وطريق تمكينها في الأرض تحت راية (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وأن تكون ـ وهي تحمل رسالة الخير للناس أجمعين ـ صاحبة الكلمة المسموعة فيما تريد من نصرة الحق وأهله، والعمل على تحقيق إنسانية الإنسان، وتسييره في الطريق التي تؤول به إلى سعادة الدارين..

وليس المعيار أن يكون الأمر لدى معظم الناس مكروهاً، حتى يكون شراً لهم، أو محبوباً حتى يكون خيراً لهم؛ فمرد العلم بحقيقة ذلك إلى الله العليم الخبير الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً؛ ذلكم قوله جل وعلا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[البقرة: ٢١٦] .

إن كره القتال في سبيل الله جنوحاً إلى العافية، وخوفاً من الموت: يسلم الأمة إلى الضعف والكثير من المذلّة والهوان، ويسلّط عليها أعداؤها الذين هم أعداء الحق والإنسان ولا يرقبون فيها إلاً ولا ذمة!!

أما القتال امتثالاً لأمر الله كيما تكون كلمته ـ جل شأنه ـ هي العليا في مواجهة أولئك الأعداء المتربصين، وأن يكون لدعوة الله التي هي دعوة الحياة، وينبوع السعادة والفلاح في كل الميادين الناعلة بلا استثناء، سلطانها في الأرض؛ عقيدة، وشريعة ومنهج وسلوك، ناهيك عما يكون للأمة من يُسر الدعوة إلى الله، والمنعة الحقيقية وإرهاب أعداء الله وأعدائها: فلا خير للبشرية إلا به ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[الحج: ٤٠] .

فالتضحية التي تعقب الحياة الكريمة للأمة، وتسلمها ـ بعون الله ـ إلى أن يكون لها وجودها الذاتي: أين منها كراهية الموت وقبض الأيدي عن الإنفاق في سبيل الله، الأمر الذي يعقب ضعف الأمة ووقوعها في حمأة الذل والهوان!

وقد أذن الله بالتحديد المشار إليه وفق المعيار الحكيم الذي لا يعول ولا يطرقه الاحتمال؛ لأن علمه تعالى هو العلم المحيط، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

ولذلك جاء تعليل ما هو في حقيقته خير وإن كُره، وما هو في حقيقته شرٌّ وإن أحب، بقوله جل ذكره: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦] .

وإذن فمن الضرورة بمكان، أن يأخذ التسليم للمعايير التي يطرحها الكتاب الكريم مكانه في البنية الثقافية لدى الفرد والمجتمع، والذين أنشؤوا الواقع السليم والمجتمع القدوة في الماضي، وأسهوا أيَّما إسهام في رفع قواعد الحضارة المثلى حضارة الإسلام، وصياغة تاريخ هذه الأمة؛ هم أولئك الذين أحكم بناؤهم وفق المنهج الرباني في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام. ومن ذلك التزام المعايير المشار إليها، بالكثير من الطمأنينة وانشراح الصدور بعيداً عن الحرج والضيق!!

وعلى هذا السنن نذكر ما وقفنا عليه المعلم القرآني في الآية العاشرة من سورة «المنافقون» وهي قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[المنافقون:٩].

إن معيار الربح أو الخسران قد يلجأ إليه في حالة من حالات الضعف، فتنقبض الأيدي عن العطاء، وتشغل أموال الإنسان وأولاده قلبَه عن ذكر الله الذي يجب أن يصحبه في كل ما يأخذ وما يذر، أو لسانه فلا يلهج بتنزيه مولاه وتعظيمه وشكره؛ ولكن القرآن يكشف عن أن الوقوع فيما نهى الله عنه في هذا الباب هو الخسران المبين.

فإذا كان من تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله يحسبون أنهم رابحون، فليعلموا أنهم ـ على الحقيقة ـ هم الخاسرون؛ ذلكم بأن تحقيق الخير للإنسان في دنياه وآخرته كائن بمقدار الالتزام بتلكم القيم التي تجعل من النعمة في المال والولد طريقاً لشكر المنعم سبحانه، ووسيلة ناجحة للإسهام فيما يعود بالخير على الفرد والجماعة!!

وما من ريب في أن التربية على الطمأنينة بما جاء عن الله ورسوله في تحديد القيم وتقويم الأقوال والأفعال، عنوان فلاح، يوحي بإذن الله بأن اليقظة التي نلمح تباشيرها في الأمة ـ وبخاصة في جيل الشباب ـ لا بد أن تؤتي ثمارها استمراراً وقدرة على العطاء، وإيجابية في الحركة الواعية على صعيد البناء والنماء، والله تبارك وتعالى هو الحق، ووعده من ينصر منه بالنصر حق، وهو يتولى الصالحين.

الشباب تكامل البناء وسلامة التربية والإعداد
المعايير السليمة والسلوك المطلوب
البقرة.. المنافقون

«٧»

لعل مما يكون إفادة على إفادة، وعطاءً خيِّراً على عطاء مثله ـ إن شاء الله ـ أن نتابع الرحلة مع المعلم القرآني على ساحة الإحكام لبناء الفرد على القيم التي يشرق بها المنهج الرباني؛ وذلك في واحد من النماذج التي تطالعنا في سورتي «البقرة» و«المنافقون».

وهو نموذج قائم على ما دلَّت عليه الآيات ـ فيما دلت ـ من أن المعيار الصادق الذي سداه ولحمته الصواب في الحكم بالربح أو الخسران، والخيرية أو عكسها للمؤمن، في أمر من الأمور ـ كائناً ما كان شأنه ـ هو المعيار الذي يأتي عن الشارع الحكيم في الكتاب الكريم، أو السنة المطهرة، ثم ما يكون من فهوم أئمة الهدى الأقوياء الأمناء.

وكم يحسن المؤتمنون على التربية والإعداد صنعاً إذا أولوا هذه القضية الكبرى ما هي جديرة به من العناية، وما أجدر الشباب بأن يتحقق من إعدادهم ما تأمله الأمة من الخير.

والآيات الكريمات التي نسعد باستئناف الرحلة معها هي قول الله جل شأنه في سورة «المنافقون»: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية وقوله في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ...﴾ الآية.

ففي الآية المشار إليها من خواتم سورة «المنافقون» نهي صريح جازم من الله تبارك وتعالى للمؤمنين عن أن يأخذهم حب المال أو الولد أو كليهما، فينسيهم ذكر الله؛ فلا يلهجون بما أمر به المؤمن من الذكر في الأحوال جميعاً عملاً بقوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾[الأحزاب] وقوله:﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الأنفال].

وليس هذا فحسب: بل لا يذكرون أحكامه فيقعون في هاوية المخالفة عن أمر الله ونهيه في شؤون الحلال والحرام والشبهات، فيجمعون المال ـ على سبيل المثال ـ من حله ومن غير حلّه، ولا يؤدون حق الله فيه، ولا ينفقون من هذا المال في سبيله سبحانه؛ وبذلك يقعون في الأولى على أم رأسهم في مخالفة قوله ﷺ: **«إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به»** أخرجه الترمذي من رواية كعب بن عجرة رضي الله عنه. ولفظه عند أحمد: **«إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت النارُ أولى به»** ويقعون في الثانية كذلك في هاوية المخالفة عن أمر الله في قوله: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

هذه واحدة، وأما الثانية: فالمخالفة عن المعيار الحقيقي كثيراً ما تظهر آثاره فيما يرى من أن التدلُّه بالأولاد يضعف عن أن يؤخذوا بالتربية الناجعة النافعة التي تضع العاطفة موضعها والحزم الموجَّه موضعَه، ويُعَدُّوا لأن يكونوا لبنات خيِّرة في مجتمع سليم نظيف تحكمه شريعة الإسلام.

وإذا وقعت المخالفة عن منهج التربية السليمة في نسيانٍ لوضع الأولاد موضع المخالطة الحقة للدين القويم عقيدة وشريعة وأخلاقاً، بسبب من الاستغراق العاطفي الذي ينسي ذكر الله: فقد يتسبب لهم الوالدان ـ مع التعثر في الدنيا ـ بسوء العاقبة في الآخرة من حيث يشعران أو لا يشعران؛ والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[التحريم: ٦].

وفي عود على بدء: لا بد من التذكير بأن الآية التي جرى الإلماح إليها في سورة «المنافقون» ختمت بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يعني الوقوع في التلهي بالأموال والأولاد الذي يستغرق صاحبه عن ذكر الله ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ عند الله في الدنيا والآخرة.

والملاحظ أن ذلك كائن بناءً على القيمة التي حدَّدها الشارع لما هو ربح وما هو خسران، لا على القيمة التي تنتجها الغفلة والإعراض عن ذكر الله بشتى ما يطلب من المؤمن من أنواع هذا الذكر الذي هو خير كلُّه، سواء كان ذكراً لسانياً أو قلبياً، أو تذكراً لأحكام الله عند كل حركة في حياة الإنسان وهو يكدح إلى الوصول إلى ما يريد.

وهكذا ترى أن عطاء الآية الكريمة يشمل أموراً عدة، وجَّه الكتاب الكريم إلى ضرورة أن يبنى الفرد المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ على إدراكها، والعمل على أن تأخذ موقعها في الحكم على التصرفات.

ولذلك ما له من أثر على كلٍ من البنية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها..

فمن مقتضيات الإيمان: أن يحذر المؤمن ـ وهو يخوض غمار الحياة ـ أن يقع أسيراً للغفلة عن الله عز وجل، نتيجة الاستغراق في الاستمتاع بالأموال والأولاد الاستغراق المُنسي.. ويقاس مع ذلك كل ما هو من المتع في هذه الدار.

صحيح أن الإنسان مفطور على حب المال والولد، ولكن المسلم ينتمي إلى رسالة هي نور من ذلك النور الإلهي، عليه أن يلتزم حدود ذلك الانتماء إليها. وإنها لرسالة ربانية ـ من لدن الخالق رازق النعم ـ تنشيء الحوافز التي تصبغ مسيرته بصبغة التكامل ـ أن لو كان معها وانتصر على الغفلة التي تلهي عن الحق ـ كالذي رأينا في سورة «النور» من الثناء على أولئك الرجال الذين استعلوا بهممهم العالية وعزائمهم الصادقة على تلك الغفلة بأنواعها، وذلك بقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾[النور:٣٦-٣٧].

ثم إن المؤمنين ـ بعلو هممهم على طريق الحق، وصدق نياتهم وعزائمهم، مدعوون إلى نشدان الربح الحقيقي، كما هو في معايير الشارع الحكيم، وهو العليم بما يصلح عباده، ويسعدهم في دنياهم وأخراهم؛ وذلك بالاستقامة وتجاوز المعوقات، وعدم السماح للعاطفة الموقوتة في ظل المتاع الفاني في هذه الحياة أن تتجاوز مقتضيات الفطرة إلى نسيان الله واليوم الآخر، آخذة بصاحبها إلى حيث الطغيان على الهدف الكبير الذي هو ابتغاء مرضاة الله، وإنشاء الوقاية الخيِّرة التي تقي غضبه وعقابه سبحانه وتعالى..

والجنوح عن ذلك: وقوع في الخسارة المخزية لا محالة ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

وبعد: فما بدٌّ من الإشارة إلى أن الآية التي نَسعد باستذكارها مرة أخرى من سورة «المنافقون» والتي ختمت بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ قد تلاها ما يحمل الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، قبل أن يدعو داعي الموت، وتفوت الفرصة، وعندها لا ينفع المقصِّرَ رجاء مولاه التأخيرَ لإصلاح ما فسد، وتلافي ما وقع من التقصير؛ لأن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، وقبل هذا وبعده لا بد من تذكر أن الله تعالى خبير بما يعمل عباده لا يخفى عليه من ذلك شيء؛ ذلكم قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

إنه لأمر بالغ الأهمية مضموم إليه الحثُّ على المسارعة، وعدم الانصراف عن الخير واللجوءِ إلى المطلب المستحيل، بعد نهي بالغ الأهمية يمهِّد تمهيداً فاعلاً لتحقيق العمل بهذا الأمر. والموفق من أدركته العناية فانشرح صدره للوقوف عند أمر الله ونهيه في أحواله كافة.

هكذا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ ﴾ ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

ألا ما أعظمه درساً في التربية والتزكية يذكّر بما قاله أهل السلوك من التحلية بعد التخلية!!

وفي خاتمة المطاف: إذا اتجهنا من خلال ما تبدى من عطاء المعلم القرآني في بناء لبنات الأمـة: شطر الواقع: ندرك أيَّ واجـبـات تنتظر ـ على المدى ـ أولئك المؤتمنين على بناء الشخصية المسلمة، ومن ورائها المجتمع المسلم في هذا الخضم من الأفكار والمعايير، وهي واجبات ترتبط أيَّما ارتباط بالبنية الحقيقة للأجيال التي صنعت التاريخ، يوم ولَّت وجوهها شطر البناء المتكامل وعمارة الأرض وإنشاء ذاتية الأمة، وهي على ذكر من المعايير الحقيقية للنصر والخذلان، والربح والخسران، وما هو خير وما هو شر، ثم ما هي حدود الموالاة والمعاداة، وأثمرت وجهتهم ما أثمرت من الخير لا لأمتنا فحسب، بل للإنسانية جمعاء.

* * *

المؤمنون هنا.. والمنافقون
الصواب المطلوب وسورة المنافقون

«٨»

قال المجربون: وبضدها تتميز الأشياء، أذكر في ذلك ما اشتملت عليه سورة «المنافقون» من تسديد لطريق المؤمنين تسديداً يباعد بينهم وبين الغفلة التي تنسي المرء ذكر الله؛ لأن هذا النسيان يعني الأخذ بطريق التردي في مهواة الخسران الحقيقي، مع أن المطلوب من أهل الإيمان والتقوى ـ وهم يزاولون عملية البناء القدوة ـ أن يكونوا وقافين ظاهراً وباطناً عند الذي يجلب لهم الربح عند الله، وهو ـ سبحانه ـ العليم بما هو ربح وما هو خسران، وما على المؤمنين إلا السمع والطاعة!!

ومع هذا التسديد لطريق المؤمنين، اشتملت هذه السورة المباركة على التنديد بموقف المنافقين من الإنفاق على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا، وهو موقف يدل على ما أصاب قلوبهم من المرض والعياذ بالله.

وإذا كان الأمر كذلك: فلا علينا أن نستأنف تلك الصحبة الميمونة لعطاء المعلم القرآني فيها بدءاً من الآية العاشرة وهي قول الله جل وعز: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩ ﴾[المنافقون:٩].

فأنت واجد نهي المؤمنين نهياً جازماً ـ بعبارة النص ـ عن التردي في مهواة الخسران في ميزان الله، وذلك بالتلهي بالأموال والأولاد عن ذكره سبحانه ـ بما للذكر من معانٍ وأبعاد ـ فالذين يقعون في هذه المهواة هم الخاسرون، ومفهوم ذلك أن الذين يعافَون من هذا السقوط هم الرابحون.

فمقياس الربح والخسران منوط بقدر ما يكون عليه المؤمن ـ وهو يعمل على تحقيق ما ترمي إليه الرسالة الخاتمة في نفسه وفي المجتمع ـ من يقظة إيمانية والتزام بشرعة الحكيم الخبير جل جلاله، والبعد عن الغفلة التي قد توقعه في التجاوز، وتسلمه إلى سوء العاقبة لا قدَّر الله!!

وفي نظرة متدبرة إلى ما أشرقت مع هذه السورة «سورة المنافقون» من العطاء يبدو لزاماً مع التنبه إلى هذا الإرشاد الباني للمؤمنين على هذه الساحة ـ ساحة التوفيق بين العاطفة الفطرية نحو الأولاد، وحب المال ـ وبين اليقظة والحذر من التلهي بذلك عن ذكر الله ـ يبدو لزاماً الوقوفُ المتأني عند الذي جاء في ثناياها من التنديد بصنيع المنافقين ـ على وجه العموم ـ وانحرافهم المقيت في أمر الإنفاق على من عند رسول الله ﷺ من المهاجرين عليهم الرضوان على وجه الخصوص، وفي ذلك ما فيه من عدوان على ما ينبغي من التعاون المالي، وإحكام البنية الاقتصادية للمجتمع، ناهيك عما فيه من دلالة على العلاقة القوية بين الكفر المبطَّن عند المنافق وبين تصرفاته في المجتمع على كل صعيد!!

فقد ذكر الله تعالى ـ فيما ذكر من قبائحهم وعرّى من مواقفهم ـ أنهم ينهى بعضهم بعضاً عن المشاركة في الإنفاق على من هم من عيون الصفوة من أبناء المجتمع وهم المهاجرون الذين هاجروا إلى المدينة لله ولرسوله تاركين الأهل والدار والمال والمتاع؛ وهو نهي يقتضي الانحسار عن التعاون على إقامة البنية السليمة ـ اقتصادياً ـ للمجتمع الوليد في مهاجر رسول الله عليه الصلاة والسلام، فضلاً عما فيه من معاداة للحق وأهله.

ولم يكن خافياً أن هؤلاء المنافقين الذين آمنوا ثم كفروا فطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون: كان من أهدافهم في التناهي عن الإنفاق على من عند الرسول الكريم، والتعاون على التخفيف عنهم في واقعهم المالي: أن يتفرقوا، وينفضوا، كيما يتزلزل كيان المسلمين، فهم يستخدمون هذا الخلق الذميم سلاحاً في مواجهة الحق وأهله.

ذلكم قول الله جل ثناؤه: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ أي حتى يتفرقوا عنه عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك ما فيه من إضعاف الجماعة المؤمنة ـ كما يتصور هؤلاء الصادُّون عن سبيل الله أحلافُ اليهود والمشركين، وتزلزل كيان المسلمين!

ولكن غفلوا عن أن الرزق بيد الله؛ فهو رازق من عند رسول الله من المهاجرين وسواهم، وهو المعطي سبحانه؛ فله خزائن السماوات والأرض، ولكن المنافقين المضروب على قلوبهم بالأسداد: لا يفقهون ـ لما ران على قلوبهم من الغفلة ـ ما فيه صلاح أنفسهم، وسلامة عاقبتهم عند رب العالمين!

وقد جاء هذا صريحاً في الرد على الموقف النفاقي المَهين حيث قال تعالى في ختام الآية السالفة:﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾[المنافقون:٧]

ها هم أولاء يجترحون من المساءة التي تتنافى حتى مع أخلاق العربي قبل الإسلام، وهم يحسبون أنهم على شيء، والحقيقة أنهم غارقون في الجهالة وعدم الفهم، ولو تجردوا عن الهوى والخضوع لنفثات اليهود، لآمنوا برسول الله ﷺ حق الإيمان، وأسهموا في بناء مجتمع لا تثقله رواسب الجاهلية الأولى، ولا تطغى على جوانبه الاقتصادية والثقافية والسياسية موارد لا تمت إلى الحق بصلة.

هذا: ويبدو أن الارتباط قائم ـ والله أعلم ـ بين ما ذكر الله عن هؤلاء المنافقين في شأن المال والإنفاق الخيِّر المطلوب، وبين توجيه المؤمنين إلى أن يضعوا الأمور مواضعها؛ فهم ـ بحمد الله ـ يطرقون أبواب الحياة بأيدٍ إيمانية قوية، ويكدحون على أرض البناء الشامل للفرد والجماعة وفق منهج رباني مرسوم حدّد المعايير والقيم.

ومقتضى الإيمان الذي خالطت بشاشته القلوب، والوعي لأبعاد الرسالة التي نذروا أنفسهم لها: أن يلتزموا بتلك المعايير والقيم، وإلا وقعوا فيما هو شبيه بما وقع فيه المنافقون، ولكن عن غير عمد؛ من أجل ذلك حذَّرهم الله مغبَّة موبقة قد تكون طريقاً لذلك ـ لا سمح الله ـ وهي الغفلة الناشئة عن الاستغراق في الاستمتاع

بالأموال والأولاد استغراقاً يلهي عن ذكر الله، وما يجب من إخلاص الوجهة له ـ جل شأنه ـ وإعطاء كل ذي حق حقه، ووضع الأمور مواضعها كما تقتضيه شريعة الإسلام وآداب الإسلام.

فالمنافقون يتعمدون الهدم وتقويض كيان المجتمع المسلم، والغافلون يؤذون أنفسهم وأولادهم، ويعطلون طاقات يفترض أن يفيد منها الفرد والجماعة، وأن تكون روافد خير على طريق البناء المرتجى والإنماء المتجدد للطاقات والفاعليات والثمرات!

على أن مما ينير السبيل أكثر وأكثر في هذه القضية بالغة الأهمية: أن القرآن الكريم لم يدع أن يكشف الغطاء عن شأن المنافقين والمنافقات بوصفهم منافقين ومنافقات، فأنبأ ـ وهو العليم بذات الصدور عن سلوكهم المنحرف في شتى الشُّعب الأساسية ـ ومنها الإنفاق في سبيل الله ـ وأن يتفضل كذلك، بكشف الغطاء عن شأن المؤمنين والمؤمنات، بوصفهم مؤمنين ومؤمنات. فأنبأ عن سلوك أحبائه المؤمنين في شتى تلك الشعب أيضاً ومنها الإنفاق في سبيل الله.

وفي ذلك ما فيه من قطع الطريق بهذا البيان المحكم، على كل الأعذار المصطنعة، والتعللات الفاسدة عند أهل النفاق، خصوصاً إذا لاحظنا ما توعَّدهم الله به من نار جهنم يخلدون فيها مصحوبين باللعنات ولهم عذاب مقيم.

ولا كذلك ما وعد به أهلَ الحق المؤمنين، من الرحمة الغامرة في الدنيا والآخرة حيث الخلود في جنات النعيم، والمساكن الطيبة، والرضوان الأكبر من الله وذلك هو الفوز العظيم. ذلكم قول الله تعالى في سورة التوبة: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾. وقوله سبحانه: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

وضوح الرؤية سلامة البناء..
والمنافقون والسلوك المطلوب
سورة المنافقون

«٩»

كان من عطاء المعلم القرآني في سورة «المنافقون» ما جرت الإشارة إليه فيما سلف قريباً: من أن هنالك ارتباطاً بين الإشارة إلى واحدة من قبائح المنافقين ـ وما أكثرها ـ وهي دعوة بعضهم بعضاً إلى عدم المشاركة في الإنفاق على من عند رسول الله ﷺ حتى يتفرقوا عنه، وبذلك يتحقق لهم متمناهم من إضعاف شوكة المؤمنين! وهو ما أبان عنه قول الله تعالى في السورة المومى إليها ـ وهي سورة مدنية ـ: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ۝﴾[المنافقون :٧] وبين ما كان من توجيه المؤمنين ـ وهم يواجهون أعباء البناء وفق الرسالة الخاتمة التي هم بها مؤمنون ـ إلى اليقظة الدائمة في إحلال كل أمر محلَّه اللائق به، وعدم الوقوع في أسر الغفلة عن الله واليوم الآخر من طريق التلهي بالأموال والأولاد عن ذكر الله ـ بمعناه الأعم الشامل ـ؛ لأن الخاسرين هم الذين تضعفهم عواطفهم ورغباتهم عن أخذ الكتاب الهادي بقوة، فيقعون فريسة ذلك التلهي، ويصدق فيهم أنهم أسارى الغفلة عن مولاهم سبحانه وتعالى في ذكره الدائم تسبيحاً وتمجيداً وشكراً متجدداً لنعمائه بالوقوف عند حدوده برضىً وتسليم وانتفاء أي حرج في النفوس! والبرهان على ذلك الإنفاق في سبيل الله وعدم التواني والتأخير ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ .... ﴾الآية.

والارتباط الذي نشير إليه كائن في ملاحظة المسلكين جميعاً مسلك البناء ومسلك الهدم.

فالمؤمنون ـ وهم على المحجة البيضاء ـ مطلوب منهم أن يكونوا على تمام اليقظة؛ فلا يقعوا فيما هو مخالفة عن طبيعة البناء المطلوب إحكامه على قواعد الهداية والحق، من حشد الطاقات، وتسييرها في قنواتها المنتجة، وتنمية أواصر الجماعة، والسير بالمجتمع المسلم إلى مراقي الفلاح والازدهار في إطار من تحقيق إنسانية الإنسان وحرية الإنسان.

أما المنافقون: فهم لا يفتؤون يعملون جاهدين ـ بوحي من ظلام قلوبهم ـ لتقطيع الأواصر، وزعزعة كيان الجماعة المسلمة، والسير بالمجتمع المسلم ـ أن لو استطاعوا ـ نحو التفكك والانهيار!!

فإذا غفلت الفئة المؤمنة عن الله، وحادت ـ في لحظة من لحظات الضعف ـ عن الصراط السوي فيما يقتضيه رفع القواعد السليمة للبناء الجادّ، والبذل في سبيل ذلك، فقد أعانت المنافقين من حيث لا تشعر، على ما يهدفون إليه، ويعملون على تحقيقه هدماً وتخريباً وصداً عن سبيل الله والحق، وفق ما يبطنون ـ والعياذ بالله ـ من ظلام الكفر الذي أخرب قلوبهم والعياذ بالله؛ فراحوا يضربون ـ متجاوزين أبسط ما يقتضيه الخلق العربي ـ في كل ميدان من ميادين الضلال، ومنها الصدُّ عن التعاون الاقتصادي، والإنفاق على من يستحقون الإنفاق.

لذا جاء التحذير من الوقوع في هذه الحمأة، والتنبيه على تمام الانضباط بضوابط الكتاب والسنة في تحديد ما هو ربح وما هو خسران، حيث يتبين بوضوح أن الوقوع فيما نهى الله عنه في شأن العلاقة بالأموال والأولاد، هو الخسران، والواقعون فيه هم الخاسرون!

ولعلَّ مما يؤكد الأهمية الكامنة من وراء هذا التحذير: أن قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩ ﴾ الآية، تبعه ـ كما أسلفنا من قبل ـ قوله جل شأنه: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ....﴾ .الآيتان.

أرأيت! المنافقون يرمون إلى تفريق الجماعة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، ويقول بعضهم لبعض: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، مع علمهم أن هؤلاء المهاجرين كان تركهم للأهل والمال والمتاع في مكة عند الهجرة إلى الله ورسوله مدعاة لكثير من التوقير والتقدير، وعندما يعانون بتسيير العيش الكريم ـ وهو ما فعله إخوانهم الأنصار ـ فذلك برهان الإيمان الصادق، والحرص على دفع قافلة الإيمان إلى حيث القوة والتمكين.. ولكن هؤلاء الضالين ليسوا ـ حتى من الخلق ـ في شيء.

والمؤمنون: ـ وهم دعاة الخير، والمنوط بهم إقامة البنية الحضارية السليمة ـ يُنهون عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذكر الله الذي يعني الإحسان في القيام بما يجب على المؤمن أن يكون عليه، وقد اختاره الله للجلَّى، وسلك به سبيل التمكين في الدنيا وحسن العاقبة يوم الدين.

أجل ينهون عن ذلك، ويؤمرون من بعده بتوظيف المال ـ وهو مال الله وهم مؤتمنون عليه ـ في طرقه المشروعة المرضيَّة، والإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاته وتثبيتاً من أنفسهم، بعيداً عن المن والأذى، والتعاون مع إخوانهم على البر والتقوى، والإسهام في رقي المجتمع المسلم، بتقوية أبنائه وإحكام لبناته، وتنمية الطاقات الاقتصادية والاجتماعية فيه، صورةً عن صدق الإيمان، وحسن النية، والحرص على أن يكونوا مع الله ـ أبداً ـ ذاكرين شاكرين.

ومهما يكن من أمر: فإن الحقيقة التي لا معدى عنها: هي نفي التناقض بين العلاقة الحميمة الفطرية بين الوالدين وأولادهم وعلاقة الإنسان بالمال وقد فطر على حبه ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾[العاديات:٨] وبين الارتفاع إلى مستوىً من اليقظة الإيمانية، تحول دون ذلك ودون أن لا يتقاصر المؤمن عن ذكر الله والإنفاق في سبيل الله، إيثاراً للدار الباقية على الدار الفانية!

ذلك بأن ما عند الله خير وأبقى، والقوة كل القوة: أن تكون هنالك دواع في النفس والميول الفطرية للتقاصر، ومع ذلك ينتصر المؤمن في تلك المواجهة؛ فإذا به وسلطان الكلمة الهادية في الكتاب والسنة هو السلطان، والقناعة اليقينية بموعود

الله على البذل في سبيل الله، هي القناعة! وما أكثر الوقائع التي تدل على ذلك في تاريخنا المجيد بدءاً من اللحظات الأولى في رحلة الدعوة المباركة والحمد لله، والموفق من صدَّق جازماً بموعود الله، وراح يعمل بطمأنينة ويقين.

والذي يؤكد هذه الحقيقة: ما نقع عليه من النصوص التي تكشف عن دواعي الركون إلى المال والولد، وتجمع إلى ذلك التذكير بما عند الله لمن يقوى على مغالبة تلك الدواعي.

من ذلك قول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) ﴾.

ويقول الله جل شأنه في سورة الكهف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) ﴾.

وفي الوقت الذي ينعم فيه المؤمن بطاعة الله وتقواه في أمره ونهيه، ويأخذ نفسه بالانقياد لقوله تعالى ـ وهو يرتفع بالمؤمنين إلى مستوى الأداء المطلوب تحقيقاً لمضمون الرسالة الخاتمة ـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾الآية، موقناً بأن خزائن الله ملأى لا تغيضها نفقة، ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء.. لا بد أن يذكر ما نعى الله على من رانت على قلوبهم الضلالة فعموا وصمُّوا حتى قال سبحانه فيهم: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا (١٠٠) ﴾[الإسراء:١٠٠]

الواقع والبناء..
وواحدة من تحديات المنافقين في التاريخ
سورة المنافقون

«١٠»

الواقع الذي تعيشه الأمة اليوم، وما تواجهه من تحديات وما يعرض للمجتمع المسلم من أمور قد تكون المرضَ أو من أعراض المرض، بالإضافة إلى ما يفرضه حسن التأسِّي.. كل أولئك يقتضينا مزيداً من النظرات المتدبرة فيما وُجه إليه المسلمون في الصدر الأول من وعي لطبيعة التحديات التي يواجهون، ومنها ما كان من الفئة الهدامة فئة المنافقين التي كانت تظاهر اليهود والمشركين على الإسلام والمسلمين، وتعملُ على أن يُحال بين المجتمع الوليد، وبين أن يأخذ طريقَه إلى النمو السليم المتكامل في ظل الرسالة الخاتمة التي أوحي بها إلى محمد عليه الصلاة والسلام.

وقد رأينا من قريب ما جاء في تلك السورة المباركة ـ والقرآن كله علوي مبارك ـ التي سميت باسمهم وهي سورة «المنافقون» من الحديث عن واحدةٍ من قبائحهم ـ وما أكثرها وأخبثها ـ على طريق الهدم والعمل على أن يتفرق المهاجرون عليهم الرضوان عن رسول الله ﷺ من طريق الضغط الاقتصادي وعدم المعاونة في الإنفاق على من هم بحاجة إلى الإنفاق بعد أن تركوا كل شيء لهم في مكة وهاجروا لله ولرسوله إلى المدينة، وبيَّن الله أن ذلك من المنافقين ناشئ عن عمى البصيرة، فهم لا يفقهون؛ لأن الأمر ليس متعلقاً بما يمكن أن ينفقوه من المال، فالله هو الرازق المعطي ذو القوة المتين، وبيده خزائن السماوات والأرض، ولكنه متعلق بواجبهم إن كانوا مؤمنين؛ ذلكم قوله في السورة المومى إليها جلت قدرته: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

وإذا نظرنا إلى الأمر من زاوية الحرص على البناء السليم كما هو في المنهج الرباني، وما أريد للمؤمنين ـ وهم يصارعون الباطل وأهله في شتى الصور والميادين سياسيةً كانت أو اقتصاديةً أو اجتماعية أو ثقافية ـ من وعي كامل لطبيعة التحديات وألوانها، كي يكونوا قادرين على مواجهتها باللغة المناسبة التي تفلُّ حدَّها وتقضي على فاعليتها.. إذا نظرنا إلى الأمر من هذا الزاوية؛ فمن الخير أن نضمَّ إلى ما أسلفنا من القول في هذه المساءة من أخلاقهم: إشارةً إلى سلاح آخر حاول المناقون أن يغتالوا به حركة الحياة في المجتمع المسلم، فيوقدوا نار الفتنة ويستثيروا دفين الجاهلية الذي يتنافى مع الإسلام.

والدفين الذي نعنيه: مقياس العزة والذلة عند الأوس والخزرج قبل أن يكرمهم الله بالإسلام ويظفروا بذلك الفوز العظيم من الإيمان والنصرة والترفع عن أوضار الجاهلية.

وقد جاء الحديث عن تلك المحاولة الهابطة التي تحمل ما تحمل من المعاداة للإسلام والمسلمين والتي أعلنها رأس النفاق عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول: في أعقاب ما كنا بصدده من الحديث عن خزي المنافقين في شأن الإنفاق ـ أو الإسهام في الإنفاق ـ على أهل الرضا المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم في سبيل الله؛ فقد تلا ذلك قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾[المنافقون :٨] .

قالة السوء الفاجرة هذه جاءت على لسان ذلك الطاغية، وكان طبيعياً أن ينسبها القرآن إلى المنافقين بصيغة الجمع؛ لأنه زعيمهم، ولأنهم راضون عن نفثاته الخبيثة كل الرضا، وجاء هذا الأسلوب في التعبير على معهودات العرب في الخطاب من نسبة قالة الفرد إلى الجماعة إذا توافرت الأسباب.

إنها الفتنة التي أراد ابن أبي سلول أن يضرم نارها على الوجه الذي سوَّله له الشيطان، وزيّنه الهوى، والتي قوامها أن المنافقين هم الأعزة المحتاج إليهم، وأن المؤمنين هم الأذلة ـ على زعمه ـ ولا بد من التغيير، وذلك بأن ينحسر ظل المهاجرين، ويعود الأوس والخزرج إلى ما كانوا عليه قبل نعمة الإسلام من السير في طريق مبايعته على الملك، ولكن كان الله جلَّ شأنه له ولأعوانه بالمرصاد!

إنها نفثة حاقد مظلم القلب، لم يفزعه أن يكون عقله تابعاً لهواه المعادي للحق وأهله ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾أعقبه الله بها الخزي والعار والشنار؛ فقد خاب فأه ومقته أحب الناس إليه! وهو ولده عبد الله رضي الله عنه وأرضاه!

والله الذي ينصر من ينصره، ولا يسلم أحباءه إلى الهوان، بل يحذِّرهم الفتنة، ويسلك بهم سبيل الانتصار على الباطل وأهله: أكرم الأمة بالردِّ الحاسم على قيل عبد الله هذا، فقال سبحانه:﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

سبحان الله ناصر من يتولى الله ورسوله والمؤمنين! وخاذل من يتولى الشيطان والهوى ويعادي الله ورسوله والمؤمنين!!

ثم: أين دعاة الفتنة والمكر بالحق المثقل بالإيمان وحب الجهاد والاستشهاد، من دعاة الخير البناة الأمناء على طريق تؤدي إلى إسعاد البشرية ـ أن لو سلكته بوعي وإخلاص ـ أولئك الذين يواجهون الحياة على المنهج المرضي لله ولرسوله، ويبذلون ما أمكنهم البذل، لا يبالون بشيء ما دام الله راضياً عنهم.

إنهم لجديرون بالعزة، ورفعة القدر والمنعة، وهي عزة يشركون فيها ربهم عز وجل ورسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

سلوك المنافقين وحماية البناء.. والمطلب الأهم في التكوين والتربية سورة المنافقون

«١١»

كان تنبيهاً في غاية الروعة والإحكام؛ ذاك الذي نقع عليه في فواتح سورة «المنافقون» حيث نبهت الكلمات الهاديات المسلمين على حقيقة أن المنافقين يتخذون من زخرف القول والأيمان الكاذبة وقاية، يحسبون أنها تقيهم افتضاح أمرهم في الصد عن سيل الله، وأنهم يظهرون غير ما يبطنون.

وليس ذلك فحسب: بل يبلغ من حماقتهم أنهم يحسبون أن الحيلة تنطلي على المؤمنين، فيجترحون ما يجترحون من سوء الأقوال والأفعال مكراً ومخادعة، ظانين أن الأمور تسير وفق ما يريدون، وكأن شيئاً لم يكن في مجتمع المؤمنين.

لكن الله الذي لا تخفى عليه خافية، يكذّب ظنهم في كل مرة، مضافاً إلى ذلك يقظة المؤمنين وعدم فقدان الذاكرة عندهم، وحسن توقّيهم لما قد تفرضه التحديات، حتى إنك لترى أهل النفاق وقد صدق فيهم المثل القائل: (سعى إلى حتفه بظلفه) والمثل الآخر: (يداك أوكتا وفوك نفخ) وما أكثر النماذج المصدقة لذلك، وليس من مكرور القول التذكير بزيد بن الأرقم وعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول وما حصل في أعقاب غزوة بني المصطلق، بدءاً من قول رأس المنافقين: ليخرجنّ الأعزُّ منها الأذلَّ.

ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾[المنافقون:٢] .

وقد سبقت هذه الآية بالآية التي افتتحت بها السورة حيث الإعلام المقسم عليه بكذب شهادة القسم التي تنزلق على أفواههم وتأباها قلوبهم وهي الشهادة بأن محمداً ﷺ رسول الله. ذلكم قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾[المنافقون:١] .

وددت الإشارة العجلى إلى هذه الحقائق وأنا بسبيل خطوة أخرى مع الكشف عن بعض من خلائق المنافقين التي كانت تستخدم سلاحاً في مواجهة البناء الصالح الذي لم يكن يروق لهم أن يكون!!

فقد أسعدنا من قبلُ اصطحاب الآيتين السابعة والثامنة من السورة المومى إليها، وهما الآيتان اللتان جرى فيهما الحديث عن سوء صنيع تلك الفئة المناوئة للحق، ومظاهر الهدم في سلوك ذويها على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي نتيجة التخلخل الإيماني واستبدال الكفر بالإيمان، أعاذنا الله من النفاق وأهله، وهما قول الله تبارك وتعالى فيما هتك من أستارهم ونبَّه على خطورة ما يتقلَّبون فيه من الضغينة والحقد، ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

والحق أن العودة إلى سبب النزول تنبيء بما لا يدع مجالاً للافتراء والشك عن أن هؤلاء الهدامين الذين ابتلي المجتمع الوليد القدوة بهم، فكانوا يمكرون به، ويعملون على أن لا ترتفع قواعده بقيادة رسول الله عليه الصلاة والسلام لو استطاعوا، وتبذل الجهد الجاهد بأساليب شيطانية تضع السمَّ في الدسم، للحيلولة دون تماسك لبناته، وأن يكون في قوته وإحكام والمعايير التي تحكمه ـ كما يتجلى ذلك في سلوك الصحابة عليهم الرضوان ـ صورة صادقة، وترجماناً عملياً أميناً لما ينزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام من كلام الله على نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام.

لقد كانوا يفعلون ما يفعلونه وهم يحسبون أنهم في هذا الصنيع على شيء، ولكن سنَّة الله في نصر من ينصرونه ماضية، فحركة الحياة دائبة، والخلايا ـ سلماً وحرباً ـ عند المؤمنين الصادقين، لا يصرفها عن الحركة زخرف أو تمويه! والرحلة

المباركة على صعيد البناء ـ الذي هو لخير أمة الإسلام بخاصة، ولبني الإنسان حيثما كانوا بعامة ـ بقيادته الراشدة الحكيمة عليه الصلاة والسلام، تنتقل بهم من طور إلى طور أقوى وأكمل.

وذلك ما كان يزيد من شدة الغيظ عند من ضرب الكفر على قلوبهم بالأسداد، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون، ويلهب صدورهم بنار الحقد على القائد وجنده الأبرار.

فالعديد من الروايات الصحيحة تنصُّ على أنه في أعقاب غزوة بني المصطلق حصل نوع من الخلاف بين غلامين من الأحداث، أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار. ولما بلغ ذلك رأس المنافقين عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، حامل لواء الضلالة يومذاك: رآه مناسبة للدس والوقيعة عساها تجدي في تحقيق شيء مما يريد، حتى كان مما قاله: قد ثاورونا ـ يعني المهاجرين رضي الله عنهم ـ في بلادنا، والله ما مثلنا وجلابيب قريش إلا كما قال القائل (سمِّن كلبك يأكُلك) والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ!! كبرت كلمة تخرج من فيه عليه وعلى أمثاله لعائن الله!!

ثم أقبل على من عنده وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، قاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها!!

وبلغ الأمرُ رسولَ الله ﷺ، وكثر الحديث عن الموضوع.. وبعد موقف متأنٍ كان عين الحكمة منه عليه الصلاة والسلام: نزلت سورة «المنافقون» ومن آياتها البينات: قول الله الذي لا تنفد خزائنه، ولا تخفى عليه خافية وهو العزيز الحكيم:﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

هكذا ـ مع التوجيه الإيماني الفريد إلى العمل والدأب على أساس من العقيدة الصحيحة التي تسعف ـ أبداً ـ في الصبر والقدرة على المتابعة مهما اعترض الطريق من ألوان المشقة والصوارف رغباً ورهباً ـ وضرورة التواؤم بينها وبين السلوك على صعيدي الفرد والجماعة..

نعم هكذا تعرِّي الكلمة القرآنية الهادية موقف ابن أبي سلول، إشارةً إلى أن التنبه إلى ما درج عليه الهدامون من توجيه السهام إلى مسيرة البناء التي تشتمل أمور الدين والدولة جميعاً: ما بدٌّ من أن يصحب عملية البناء نفسها: الكثير من التبصُّر فيما وقع ويقع، وأن لا يهمل ربط النتائج بالمقدمات، والحرص على أن لا تكون الذاكرة مثقوبة لا تحفظ ولا تعي الوقائع وبواعثها التي تتربى في محاضن النفوس إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

فالمؤمنون الذين لم يكونوا عند الواقعة المشار إليها قاعدين أو متباطئين: نبهوا ـ والله أعلم ـ كي يكونوا أثبت من المفاجأة وأقدر على التصرف المناسب في المستقبل: نبهوا على ضرورة اليقظة أكثر وأكثر وعدم الغفلة عما تقتضيه مواجهة التحديات من العلم بما عند الخصم عند الإعداد لتلك المواجهة!

ولعل المسلمين اليوم ـ وحال النكبات والمصائب هي الحال ـ بأمسِّ الحاجة إلى أن يصحب عملية استئناف البناء المبتغى: هذا الوعي الذي يعرِّي ـ حسبما تقتضيه كل مرحلة ـ موقف الهدامين ظاهره وباطنه المدلول عليهما بأصابع الاتهام المدروس المصحوب بالدليل، وإعداد العدة الصحيحة التي تتيح استعمال اللغة المناسبة التي لا معدى عنها ـ وأعداءُ الحق ماضون في الافتراء وإيقاد نار الفتنة زاعمين أنهم يحسنون صنعاً ـ.

*   *   *

سورة المنافقون..
وحماية البناء تربية وسلوكاً

«١٢»

قادنا المعلم القرآني فيما سبق ونحن نسعد باصطحاب الآيتين السابعة والثامنة من سورة «المنافقون» إلى أن سبب النزول المرتبط ببعض آيات السورة الكريمة: يكشف عن أن المنافقين ـ وعلى رأسهم حامل لواء الضلال عبد الله بن أُبي بن سلول ـ كانوا يوجهون سهام الأذى إلى دين الإسلام الحنيف ممثلاً في جند الحق بقيادة النبي عليه الصلاة والسلام، والمسلمون في حركة دائبة تهدف إلى إعطاء تلكم المبادىء المكينة في رسالة الإسلام وجودها العمليَّ في كل ميدان وعلى كل صعيد.

إن قالة السوء التي رأينا: أطلقها هذا الطاغية وهو يحرص على أن تعمل عملها في الاستجابة لما أراد من التصدع، ولكن الله سلَّم، ودُرئت الفتنة التي صدرت المحاولة الشيطانية لإشعالها وصدق بسادن النفاق قولهم: (على نفسها جنت براقش) لأن المهاجرين والأنصار كانوا بحمد الله على قلب رجل واحد، تماسكاً واعتصاماً بحبل الله المتين، وحُباً للرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

فلقد زاد وقع تلك الكلمات من تصميمهم على المضي فيما هم بسبيله من البناء على الإيمان ووحدة الصف، وكانت العزائم تتجدد دونما سآمة أو فتور.

ولا ينكر منصف ما كان للدور الإيماني الفعّال الذي قام به صحابينا الجليل عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول رضي الله عنه في اجتثاث الفتنة من جذورها.

والآيتان الكريمتان هما قول الله تبارك وتعالى: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

إنهم لا يفقهون ولا يعلمون؛ لما أنهم يحاولون بأظلافهم المتآكلة نقب الجدار القوي الصلد الذي بناه رسول الله ﷺ على العقيدة البيضاء النقية التي تشعر المسلم بحريته ووجوده الذاتي، وغذاه، وما يزال يغذيه بالعمل الصالح ـ بشموله وماله من سلطان ـ العملُ الذي يقوم به المؤمنون والمؤمنات مهاجرين وأنصاراً، والجهاد الذي لا يفتؤون يتسابقون إلى ميادينه مسارعة إلى الشهادة في سبيل الله، كيما تكون كلمة الله هي العليا!!

كل أولئك في ظل تعاون إيماني صادق سداه ولحمته ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠] يغذيه وينميه امتثال نيِّر واع لقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾[آل عمران:١٠٣] وقوله سبحانه: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦] .

وإذاً، فالموقف البناء المتسم بالتخطيط المرحلي المدروس من الفئة المؤمنة، والذي يتَّسم بالجدية وصدق العزيمة في ضوء تذوق لحلاوة الإيمان الذي خالطت بشاشته القلوب: جعل من مواقف المنافقين المريبة في دعوتهم إلى عدم الإنفاق على المهاجرين عليهم الرضوان، وللتعاون الاقتصادي، وفي المجادلة الظالمة البلهاء لإثارة الفتنة وتفرقة الصفوف: عنواناً عريضاً لافتضاح حقيقتهم ولعدم الفقه النفسي أو العملي لما هو النافع ولما هو الضارُّ، ومؤشراً على عدم العلم الحقيقي بما هو حق وما هو باطل، وبميزان القوى كيف يتجه لصالح المسلمين الذين يشغلون الوقت بالعمل المثمر البناء في أعقاب ما كان قبل الإسلام من الفرقة والتنافر بين الأوس والخزرج، وما كان من سلطان إعلامي واقتصادي لليهود.

وهم إذ يقومون بهذا الدَّور الخير، يرتادون للبشرية ـ على وجه الحقيقة ـ طرائق الخير والنماء ورفع المظالم والقضاء على عبودية الإنسان للإنسان.

هكذا بهذا الوضوح، بعد الكشف عن دعوة الفئة الضالة إلى عدم الإنفاق على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا: ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾وبعد القالة الهابطة: ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ختمت الآية بقوله جل شأنه: ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

من أجل ذلك، يمكن القول بأن ـ مع الوجه المشار إليه ـ وجهاً آخر يحمل البشارة للمؤمنين في كل زمان ومكان: أنهم بسلوكهم المنسجم مع عقيدتهم وجنديتهم الحقة للرسول عليه الصلاة والسلام، ووعيهم لما يدور حولهم من التحديات، واستمساكهم بكل ما ينمي وحدتهم وقوتهم الذاتية؛ كل أولئك كفيل بإذن الله برد السهام المعادية إلى صدور أصحابها، وردع كل من تحدثه نفسه اقتحام الصف الإيماني اليقظ، المنسجم مع سنن الله في الكون، غير الغافل عن الواقع الإقليمي والدولي والله المستعان.

* * *

الشباب وحماية البناء تربيةً وسلوكاً.. وسورة المنافقون

«١٣»

عطاء سورة «المنافقون» على صعيد الحماية للبناء في المجتمع المسلم: عطاء كبير يكشف في بعض صوره عن بعض من أسلحة هؤلاء الهدامين، وكيف أن أهل الإيمان لهم بالمرصاد، كما يكشف عن الأهمية العظمى لدور الشباب في ذلك، وأن حركة البناء المثمر في المجتمع المسلم: ما بدَّ من أن يصحبها التنبه إلى صنيع الهدّامين فيما يبيتون من الأذى ويحاولون توجيه الضربات المفزعة إلى بنية ذلك المجتمع، وأن المؤمنين إذا توافر لهم هذا التنبه ـ وبخاصة الشباب وهل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً ـ وكانوا على الطريق الأمثل فيما تحكيه رحلة البناء من واجبات على الفرد والجماعة رسمت معالمها العقيدةُ: تعود سهام أولئك الأعداء إلى صدورهم وتتكشف مواقفهم ويبدون وهم لا يفقهون ولا يعلمون.

وكان هذا التنبه بحمد الله من الصحابة بعامة ومن واحد من خيرة شبابهم بخاصة عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان إيمانه أقوى من عاطفته الغريزية نحو أبيه رأس المنافقين ـ كما سيأتي ـ. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الحقيقة التي نومىء إليها، والتي يذكر معها واحد من جلة شباب الصحابة هو عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول رضي الله عنه كانت بعضاً من عطاء الآيتين الكرميتين السابعة والثامنة من تلكم السورة المباركة، وهما قول الله جلت قدرته في تبرئة لبعض مواقف من سميت السورة جميعها باسمهم، والكشف عن تلكم المواقف وعظتها: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

والحق أن الناظر في السورة بكاملها نظرة تدبر وتبصُّر يقف على طريق القرآن المتميزة في الكشف عن الجذور العميقة لتصرفات المنافقين ومواقفهم الظالمة البلهاء.

وفي ذلك درس للمسلمين ـ في كل زمان، ومع كل ظرف من الظروف ـ مع اختلاف ما يطرأ ويفجأ من صور التحدي ـ وهو درس أيُّ درس يأخذ بأيديهم إلى ضرورة التنبه للعوامل الحقيقية التي تكمن وراء تصرف الأعداء، والقيم الهابطةِ التي يرتد إليها صنيعهم ووقوفهم للدعوة التي تعمل على بناء الإنسان بناءً يضمن الحفاظ على إنسانيته وحريته والاتجاه بحركة الحياة وجهة الخير والنماء في كل ميدانٍ وعلى كل صعيد.

وكل أولئك في ظل الشريعة السمحاء التي أنزلها ربنا جل ثناؤه العليم بما يصلحُ لعباده، ويُسعدهم في الدنيا ويوم الدين.

ها نحن أولاء نقرأ في السورة الكريمة ـ بدءاً من الآية الأولى ـ خطاباً للنبي: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾.

إن كل واحدة من هذه الطامات الواقعين فيها، تلك التي تكشف عنها الآيات من معتقد المنافقين وسلوكهم المخزي، تجعل قالة السوء، أو الموقف المحارب لله ولرسوله وللمؤمنين، وكأنه نتيجة طبيعية لمقدمات طبيعية!!

إذ كيف يسهمون في الإنفاق على ذوي الحاجة ممن عند رسول الله من المسلمين، وقلوبهم تشتعل ـ والعياذ بالله ـ بنار الكفر والحقد؟! أم كيف يُسَرُّون ـ وهم على هذه الشاكلة ـ بوحدة الصف عند المسلمين وتآخيهم على كلمة الهدى في سبيل الله، واجتماع قلوبهم على محبة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام؟!

كأني بهذه الآيات في هذه السورة وأخواتها من سورة التوبة، وسورة النساء، وسورة النور، وسورة الأحزاب وغيرها: تصرخ بالمسلمين اليوم ـ والحال هي الحال ـ أن تيقظوا وخذوا بالأسباب المعنوية والمادية واحذروا، فالكفر وذووه لكم بالمرصاد تحت شتى العناوين وألوان الزخرف والتمويه، والله معكم إن نصرتموه بالإعداد الصحيح، والأسلوب الحكيم، مستظلين بظل شجرة الإيمان الوارف، ولن يتركم أعمالكم.



سورة «المنافقون».. وقضية كبرى على طريق البناء

«١٤»

تكاد تجمع الروايات التي وردت في أسباب نزول سورة «المنافقون» المبدوءة بقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ①﴾ كما جاء عند الشيخين وأحمد والبيهقي وغيرهم على أن كلمات ابن أبي سلول أخزاه الله ومنها ﴿لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ أثارت حذر المسلمين من الفتنة، ونبهتهم ـ وهم يجتازون المصاعب في رحلة البناء التي تناولت ميادين السلم والحرب ـ إلى خطورة ما يريده المنافقون بزعامة ابن أبي سلول.

وقد جاء في بعض تلك الروايات: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما سمع بالذي يقوله زعيم المنافقين، قال للرسول عليه الصلاة والسلام: دعني أضرب عنق هذا المنافق! فقال رسول الله ﷺ: **«دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»** .

وفي رواية لابن إسحاق أن عمر قال: يا رسول الله مُر عباد بنَ بشر فليضرب عنقه، فقال صلوات الله وسلامه عليه: **«فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا ولكن نادى عمر في الرحيل»** .

وإنما كان هذا من الرسول ﷺ ـ وهو عين الحكمة ـ لأن الطاغية ابن أبيٍّ محسوبٌ على جماعة من المسلمين، إذ ما بدا نفاقه إلا من تصرفاته بعد أن أعلن إسلامه.

ولا يخفى أن القضية لا تخلو من شديد الحرج بالنسبة للمجتمع ووحداته التي هو مركَّب منها، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام اقتحم عقبة الحرج وقضى ـ بعون الله ـ على الفتنة.

ومهما يكن من أمر: فالقضية برمتها صورة لها دلالتها في مجتمع يمور بالحركة الدائبة على طريق البناء الأمثل ويعمل أبناؤه على تخطي تلكم العقبات!

وأنت ترى أن رسول الله ﷺ ـ وهو يقود تلك الحركة المباركة ـ ينظر إلى الرغبات ـ مع الإيمان وصدق النية عند أصحابها وانضباطهم بضوابط الإيمان ـ نظرات تشرق بنور النبوة وحكمة الهدي الرباني الذي كان يظلُّ الخُطا وينير السبيل؛ فكان ـ مع المشورة ـ يوجه الآراء والاجتهادات في الحالات جميعاً وجهتها الهادفة المثمرة، التي تضع كل أمر موضعه من المسيرة الكبرى على أرض التاريخ!

والوعي الذي نَلمسه في الجماعة المسلمة ـ وهي تواجه التحديات المتجددة التي لا تنحصر بصنيع المنافقين المذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، بل كان يصحبها دائماً ما هو من طبيعة الصراع بين الحق والباطل ـ كان بحمد الله وعياً يعلن إعلانه بأنه كفاء الملمَّات والتحديات، لما أنه صورة عن إحكام البناء في شخصية المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وما صنعه رسول الله عليه الصلاة والسلام، عندما كان يعلم ويربي ويزكي أولئك البررة ويبني بهم المجتمع الفاضل الأمثل الذي تبيَّن بحق أنه المجتمع القدوة في دنيا البشرية يومذاك.

وهنا فيما نحن فيه من الوقائع المتعلقة بأسباب النزول في سورة «المنافقون» يقع الناظر فيما ورد من الآثار حول قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ بل وما ورد حول السورة بكاملها، وسبب نزولها ـ على وجه العموم كما أشرت من قبل ـ يقع الناظر في تلكم الآثار على الكيان الأنموذج عند الفرد الذي تناولته يد محمد ﷺ الصناع بالتربية والتزكية والإعداد.

هذه ومضة من ومضات السنا تبدَّت من خلال الوقائع التي كانت اختباراً لمقدار ما للإيمان من أثر في سلوك أولئك الجند الأماثل الذين أسلموا قيادهم لصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام.

إنها ومضات نراها وهي تدل أبلغ دلالة على ما كان يتمتع به الصحابي الجليل الشاب عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، من الإيمان الصادق الذي يتجاوز بصاحبه عقبات الميول والعواطف التي تتنافى معه، والحب الصادق لله ولرسوله؛ الأمر الذي حدَّد طبيعة العلاقة بينه وبين الآخرين، ولو كانوا أقرب الناس إليه، وفي مقدمتهم أبوه. فالعقيدة هي محور النسب الصحيح، وهي مقياس القرب والبعد. روى محمد بن إسحاق أن عبد الله هذا رضي الله عنه وأرضاه، لما بلغه ما كان من أمر أبيه، أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه؛ فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني؛ إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبي يمشي في الناس، فأقتله فأقتلَ مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال له رسول الله ﷺ: «**بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا**» ومعلوم أن صحابينا رضي الله عنه منع أباه من دخول المدينة ليريه من الأعز ومن الأذل، حتى أرسل إليه الرسول ﷺ، فخلَّى سبيله فدخلها.

وإلى أن نعاود الرحلة في سطور قادمة طلباً للاستزادة من فقه المعلم القرآني: تجدر الإشارة إلى أنه بمقدار ما يكون التصور سليماً والرؤية واضحة للغاية وأبعاد الطريق إليها: تكون العناية ببناء الفرد وإحكام القواعد التي تجنب المجتمع مزالق التخلخل والجنوح.

وهؤلاء البناة الأخيار من أمثال عبد الله بن عبد الله بن أبي الذين بنوا ـ بقيادة صاحب الرسالة ـ فأحكموا البناء، وجابهوا الصعاب من داخل النفس، ومن تحديات الأعداء، فانتصروا عليها: كان أول ما تميزوا به وقد فتحوا قلوبهم وعقولهم لعقيدة

التوحيد، ذلك الانتماء الصادق الذي كان عنوانه أن حُبَّ الله ورسوله مقدم على ما سواه، وهي قضية بالغة العظمة، كان لها طيب الأثر وأقواه في تلك المنجزات التي حققوها للإنسانية أيام ارتادوا الطريق الصعبة الشائكة، ولم يبخلوا بما تتطلبه من بذل وعطاء، وكان همُّهم أن يفوزوا بمرضاة الله رب العالمين.

* * *

المنهج المتكامل..
وواحد من البُناة وسورة المنافقون
«١٥»

إن الحقيقة التي يبرزها ما كان عليه أولئك الذين انشرحت صدورهم للإيمان، واستجابوا لدعوة الحق بيقين، وحكَّموها في سلوكهم وكل شأن من شؤونهم، وهم يجتازون إلى مجتمع جديد تنشئه بأيديهم وعلى كواهلهم عقيدة التوحيد بقيادة محمد عليه الصلاة والسلام، وهديه الميمون..

إن هذه الحقيقة التي عملت عملها في صناعة تاريخ الإسلام، تستدعي مزيداً من الإحاطة بالوقائع التي انتظمتها حياة كل منهم بوصفه جندياً أميناً من جنود الحركة البانية التي طالما انتظرت البشرية موعدها، وحارساً أميناً من حراس عقيدة التوحيد التي كانت يومذاك تعاني من حرب ضروس تقودها وثنية معلنة، أو مثلها مقنعة.

ومن أبرز ما تشرق به تلك الحياة: التفاني في طاعة رسول الله ﷺ ومحبته؛ حتى إنك لتجد الواحد منهم ورسول الله ـ وهو المبلغ عن الله ما أراد ـ أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين، بل ونفسه التي بين جنبيه، مصداقاً لما روى البخاري وغيره من حديث عبد الله بن هشام أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي صلى الله وسلم وبارك عليه: (لأنت يا رسول الله أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي) فقال عليه الصلاة والسلام: **«لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك»** فقال عمر: (فإنك الآن والله أحب إليَّ من نفسي)، فقال: **«الآن يا عمر»**.

وفي نظرة عجلى إلى بعض من تلك المعاني المومى إليها: أشرنا ـ فيما سلف من قريب ـ إلى ما حملت كتب السيرة من موقف الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله ابن أبي بن سلول من أبيه رأس المنافقين في المدينة الذي بدرت منه في إحدى

المناسبات كلمات مخزية تقطر بالسم الناقع عداءً لرسول الله ﷺ وللمسلمين، حيث نزلت فيه وفي أعوانه وخلصائه من المنافقين تلك السورة الجامعة ـ وسور القرآن كلها جامعة مباركة ـ التي سميت باسمهم، والتي جاء فيها قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝﴾.

وبعد البيان عن الران المطبق على قلوبهم حيث يلوون رؤوسهم ويصدُّون وهم مستكبرون رداً على نصحهم بالإتيان إلى الرسول ﷺ ليستغفر لهم، ثم تيئيسهم من المغفرة لإصرارهم على الخروج عن الإيمان.. جاء قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ الآيات.

كما أسعدتنا الإشارة إلى موقف عبد الله الابن رضي الله عنه وهو ذلك الصحابي المتألق إيماناً واعتزازاً بالدين ومحبة لسيد المرسلين، وهو موقف ينمّ عن سلامة البنية في الفكر والتصور والسلوك عن الفرد المسلم الذي يحب رسول الله ﷺ حباً يتجاوز حبَّه أباه الذي كان أبرَّ الناس به؛ فقد استأذن رسول الله ﷺ أن يقوم هو بقتل أبيه إن كان لا بد أن يُقتل بعد الذي صدر عنه من قالة السوء الذميمة التي لولا قوة الإيمان عند المهاجرين والأنصار لفعلت الأفاعيل في تمزيق الصف وزعزعة الكيان، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو سيد الحكماء ـ حال دون عبد الله ودون ما همّ به لو أُذن له وقال: «**بل نحسن صحبته ونترفق به ما بقي معنا**» إلى جانب إجراء معيَّن صرف الجيش عن إضاعة الوقت بواحدة من ترهات المنافقين!!

غير أن الوقائع لم تنته عند هذا الموقف الفعَّال بصمت! إذ لا بد في نظر هذا الصحابي الشاب المتوقد غيرة على الحق الذي يؤمن به، من العمل على أن تستعلي كلمة هذا الحق، ويتضح لعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ولغيره من المنافقين،

أن قافلة الإيمان التي أخذت على عاتقها بناء الحضارة المثلى على نور من عقيدة التوحيد، ثم حرص على إنسانية الإنسان: تأخذ طريقها بقوة والحمد لله، وأن العزة الحقيقية لله ولرسوله وللمؤمنين، لا لمن يتعزَّى بعزاء الجاهلية، ويتوارى وراء الأيمان الكاذبة، والنفاق المهين، ولا يكون النفاق إلا مهيناً!!

وهاك تفصيل ما صنع صحابينا عليه الرحمة والرضوان ـ بعد الإشارة السريعة إلى ذلك من قبل ـ رداً على موقف أبيه في قوله: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ ؛ فالحق أحق أن يتَّبع، ولن يكون القريب الجانح عن الصراط، مهما كانت درجة قرابته، أحبَّ إلى المؤمن من الله ورسوله وإخوانه المؤمنين، والجهاد في سبيل الله.

روى عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة، وقف عبدالله بن عبد الله هذا على باب المدينة، واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي. قال له: وراءك!! فقال: مالك ويلك؟! فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ؛ فإنه العزيز وأنت الذليل؛ فلما جاء رسول الله ﷺ، شكا إليه عبد الله بن أبي ابنه، فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ: فجُز الآن. ورواه الحميدي في مسنده في خبر أطول من هذا.

والحق أن هذا الأنموذج الذي نجده في واحد من شباب الصحابة كان والده رأس المنافقين الذي يتصرف بلا حياء ولا خجل: يكشف ـ كما أشرت غير مرة ـ عن طبيعة الصياغة التي صيغ عليها هؤلاء الرجال وفق منهج عنوانه ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾[البقرة:١٥١] والتي جعلتهم يتخففون من كل ما قد يثقل العاملين ويحول دونهم ودون أن تكون ممارستهم للحياة ومنهج سلوكهم وهم يشيعون في جنباتها مقومات البناء والنماء: صورة عملية وترجماناً أميناً لما آمنوا به وحملوا من قيم.

وفي هذه الحقبة الراهنة من تأريخ أمتنا: ما أغلاها ـ والمخاطر تكتنفها من كل جانب ـ أمنيَّةً، وما أسماه مطلباً: أن تبذل الجهود وفق برامج مدروسة لا تتجاهل الواقع، ولا تنأى عن سنن الله في الكون، وتتخذ الأسباب التي يتاح معها لقواعد البناء للإنسان والحياة على السُّنن الذي صحب حركة الحياة بالأمس، والتي كان من أبطالها أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكانوا رمز الوفاء لعقيدتهم بذلاً وجهاداً وإيثاراً في كل ميدان يطلب فيه البذل والجهاد والإيثار.

* * *

بناء الإنسان... وعطاء سورة «المنافقون» على ساحة التغيير إلى ما هو الأقوم

«١٦»

عندما يكون الحديث عن المجتمع حديثاً في البناء الموجَّة وجهة الخير للفرد والجماعة، واتخاذ الخطوات اللازمة علماً وعملاً من أجل أن تشيع الحياة في كل واحدة من بُنى ذلك المجتمع الثقافية منها، والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، في تكامل يمهد للعطاء المتجدد، وإحكام القدرة الذاتية للأمة... عندما يدار الحديث على هذه الشاكلة من أولي النهى الأقوياء الأمناء: يكون من لوازم السير إلى الغاية المرتجاة أن تكون الصدارة للعناية ببناء الإنسان، وإعداده إعداداً متكاملاً متوازناً، قوامه العقيدة الصحيحة. وسلامة التصور، والتزود بالقدر الواجب من المعرفة تزوداً مقترناً بالتربية والتزكية؛ لما أن الإنسان ـ ذكراً كان أو أنثى ـ في التصور الإسلامي: هو المحور في ميادين البناء، والطاقة القادرة ـ بإذن الله ـ على الإفادة مما سخر الله في كونه العريض للإنسان.. وكل أولئك على صعيد التخطيط والتنفيذ!

وذلك بعض من عطاء قول الله جل ثناؤه في سورة التين: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾[التين:٤] وقوله تباركت أسماؤه في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾﴾[الإسراء:٧٠]

على هدي هذه المقولة: كانت لنا وقفة مع المعلم القرآني في سورة «المنافقون» لما أن مواقف هذا الصنف من أعداء الله ورسوله: كان يمكن أن تهدد المجتمع المسلم الوليد بالمخاطر، فينعكس ذلك على واقعه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، لولا أن كشف الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام عن مخازيهم ومكرهم، وكانت

حكمة النبي ﷺ وعظيم حصافته في تناول الأمور، وصدق انتماء الصحابة عليهم الرضوان إلى الرسالة الخاتمة في ظل الأخوة الإيمانية التي تستعلي على الفوارق المادية، والموروثات الجاهلية لهم بالمرصاد.

وقد عرجنا فيما سبق من القول في هذه القضية الكبرى على نموذج من نماذج الطاقة البشرية في صفوف المؤمنين، وهم يرسخون دعائم الحق، ويصارعون الباطل وأهله في شتى الميادين والمنحنيات.

ذلكم ما حملت إلينا المصادر عن موقف الصحابي البطل عبد الله ابن عبد الله بن أبي بن سلول، حيث كان رضي الله عنه، أقدر على تجاوز ما يكون من العقبات النفسية والاجتماعية، ومالها من سلطان على اتخاذ القرار، واستأذن رسول الله ﷺ أن يتولى هو بنفسه إزهاق روح أبيه إن كان الاتجاه إلى عقابه بذلك.

ولكن رسول الله ﷺ بحكمته ورحمته وتفرُّده المتميز بالمقدرة على وزن الأمور بالميزان الدقيق الذي لا يعول، لم يأذن له بذلك، بل سرَّى عنه وأدخل إلى نفسه الطمأنينة بقوله صلوات الله وسلامه عليه: «**بل نحسن صحبته ونترفق به ما بقي معنا**»

وكانت هذه المكرمة من رسول الله ﷺ أقوى في رد كيد بن أُبي في نحره، والحيلولة دون العصبية الجاهلية عند من يأتمرون بأمره، ودون أن تثور ويستخدمها الشيطان في إيقاد الفتنة والعياذ بالله!!

ومما يستوقف المتبصر في الأمور، والراصد لآثار الإيمان ومحبة النبي ﷺ في نفوس أولئك الأبرار الذين ربَّاهم النبي ﷺ على عينه: أن هذا الموقف منه عليه الصلاة والسلام، لم يُنه التحرك الذي يرى وجوبه صحابينا رضي الله عنه.

ذلك بأنه كان يرى أنه لا بد من أن يرد الحق إلى نصابه في دعوى العزة والذلة، فمنع والده الذي قال قولته الذميمة: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، والتي أراد بها أن العزة له ولأعوانه، والذلة للمسلمين وفي مقدمتهم المهاجرين

رضي الله عنهم أجمعين.. منعه ـ على رؤوس الأشهاد وهو من هو في الخزرج ـ من دخول المدينة إلا بإذن من الرسول عليه الصلاة والسلام... وكان هذا الإذن من سيد العالمين الذي ينظر إلى الوقائع بنور الله.

وأثبت رضي الله عنه لأبيه ولمن حوله من شراذمة المنافقين: أن للدعوة الإيمانية البناءة رجالاً يحققون بصنيعهم أن العزة ليست لمن يتعزى بعزاء الجاهلية، ويبني بنفاقه قصوراً من دخان، مؤملاً من وراء ذلك الوصول إلى مبتغاه كما يشاء له هواه، ولكنها لله ولرسوله وللمؤمنين.

وآثار هذا الأنموذج الخيِّر للإنسان الخيِّر فيما أنجز الإسلام على المستويين الإقليمي والعالمي من بناء حضاري لا يشكو العوج ولا العرج، وفيما نمَّى من طاقات وإمكانات، قطفت البشرية من ثمارها الخير الكثير... هذه الآثار تحملنا على إيراد الرواية الأخرى حول صنيع هذا الصحابي الذي حملته قوة إيمانه إلى هذا المستوى المتميز من التصرف الحازم الحكيم!

وأعني بذلك ما روى الحميدي في مسنده عن أبي هارون المدني قال: قال عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول لأبيه: **«لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول: رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل!!»**.

هكذا بهذا الوضوح أعلنها صحابينا رضي الله عنه، وكانت سلاحاً فعَّالاً في مواجهة ما يبيته أهل النفاق وأعوانهم من المشركين واليهود، كما كانت عزمة من عزمات الرجال يقتدى بها على صعيد المجتمع الإسلامي نفسه، لما تصنع هذه المواقف وأمثالها من قضاء على التردد الذي قد يقع ـ ولو على الندرة ـ في مثل هذه المناسبات التي لا بد أن تكشف عن الأرجحية في ميزان العلاقة الإيمانية بالله وبالرسول وبالمؤمنين من جهة، والعلاقة النسبية ـ أو العاطفية عموماً ـ في منأى عن الإيمان بمن هم على عمود النسب والقرابة، كائناً ما كان موقع الواحد منهم على هذا العمود.

وهكذا تجد أن موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي، وضع الواقعة برمتها بدءاً من تفوُّه أبيه بما تفوَّه به من كلمات ـ كبرت كلمات تخرج من فيه ـ وحتى آخر الشوط.. وضعها الموضع الذي كان مجلبةً للمدِّ الهائل بها وبأمثالها في تبدل ميزان القوى ومواقع النفوذ على أرض الصراع بين الحق والباطل.

وكم كان موقف رسول الله ﷺ عظيماً، ومنظوراً فيه التبصُّر الواقعي والمرحلي، حين أذن لوالد عبد الله بدخول المدينة، مبرهناً له أنه ﷺ ـ وهو الأعز ـ يتصرف من منطلق القوة والعزة الإيمانية بحلم وسعة صدر.

وبعد: فإذا كان ضياء الواقعة الكلية وما اكتنفها من جزئيات، لا يكاد يخفى على ذي بصيرة: فلا عجب ـ وبناء الإنسان دائماً هو الأهم ـ لا عجب إن رأينا الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ـ وقد ائتمن على قيادة عملية البناء الشامل لكل الميادين بدءاً من ميدان العقيدة والفكر ـ يعني شديد العناية بالإنسان، لأن الموارد البشرية المؤمنة المؤهلة للإنجاز، هي التي تجلب ـ بتوفيق الله ـ الموارد الأخرى، وتسلمها إلى حيث النتائج المرتقبة، وتحقيق ما تنشده الأمة من غايات كبار على هدي الكلمة الطيبة **«لا إله إلا الله محمد رسول الله»**.

* * *

المنافقون وحقيقة الارتباط بين المعتقد والسلوك على ساحة البناء وسورة التوبة

«١٧»

حقيقة أن الارتباط قائم بين المعتقدات والأفكار، وبين السلوك، ومظاهر الممارسة لشؤون الحياة.. هذه الحقيقة القرآنية ـ والحديث موصول بصحبتنا للمعلم القرآني في سورة المنافقون ـ تعيدنا إلى التذكير بأن ما كان من دعوة المنافقين بعضهم بعضاً ـ وعلى رأسهم عبد الله بن أُبي ـ إلى إحداث تلك الثغرة الاقتصادية النابية في المجتمع المسلم، من طريق الدعوة إلى عدم الإنفاق المطلوب، وعدم التعاون على فعل الخير، والمحاولة الظالمة لإثارة الفتنة بين الإخوة المؤمنين، وخلخلة الصف حول الرسول ﷺ وما كان من موقف ولده الصحابي الشاب وحسمه القوي المؤمن الذي كان درساً لشباب الأمة المسلمة لا يبلى على الدهر:

نعم إلى التذكير بأن هذا المسلك سمة من سماتهم كشفت عنها سورة التوبة عندما جاءت الآيات على أبرز وأوضح ما تقوم عليه حركة البغي والنفاق، وما يطبع سلوك المنافقين من الرغبة في الهدم والقضاء على بنية الجماعة المسلمة.

ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[التوبة:٦٧] .

ثم توعدهم الله على صنيعهم الصادّ عن سبيل الله بالطرد من رحمته وللعذاب الأليم خالدين في جهنم وبئس المصير، فقال جل شأنه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[التوبة:٦٨] .

لقد كان من وسائل الهدم عندهم ـ كما نرى ـ وهم يواجهون دعوة الله المباركة للتي استهدفت ـ فيما استهدفت ـ بناء الإنسان والحياة على أفضل الأسس وأكرمها وإعطاء البناء طابعه الشمولي العميق.. كان من وسائل الهدم والتخريب عندهم: عدم الاقتصار على قبض الأيدي والإمساك عن الإنفاق المطلوب في سبيل الخير، بل ضموا إلى ذلك الكثير من مساوىء الأخلاق؛ كالأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ونقض العهود، والتشهير الإعلامي في تنقيب عن المعايب، واستهزاء وسخرية من صنيع أهل الإيمان الذين لا يبخلون بالعطاء، مؤمنين بوعد الله المنفقين بالأضعاف المضاعفة؛ فتجدهم منفقين في سبيل الله باذلين كلٌّ حسب طاقته وما يملك، ولو كان القليل اليسير، ولكن المنافقين لا يفقهون ولا يعلمون؛ همُّهم المظاهرة على الحق وأهله بما يستطيعون!!

ألم تر إلى قوله تعالى في السورة نفسها سورة «التوبة» في شأنهم؟ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [التوبة:٧٥-٧٩] .

أما الجماعة المؤمنة التي رأينا من صنيعها مواجهةً لما كشف عنه المعلم القرآني في سورة «المنافقون» أيضاً: فإن موقفها يرتدُّ تلقائياً إلى ما جاء في سورة «التوبة» من تحديد لطابع المنهج الذي كان يطبع سلوك المؤمنين على صعيدي العقيدة والسلوك، وهم يزاولون عملية البناء الكبرى بقيادة النبي عليه الصلاة والسلام واثقين مطمئنين، ويبذلون الجهد الجاهد ـ طاعةً لله ـ لتنمية الطاقات بأنواعها وألوانها، ولم الشعث، والقضاء على عوامل التخلف، والحيلولة دون شيء منها أن يتسرَّب إلى النفوس أو الأعمال؛ بل ووضع حدٍّ لسلطان اليهود في بُنى المجتمع الثقافية، والاقتصادية والاجتماعية.

ذلكم قول الله جلَّ شأنه بدءاً من الآية الحادية والسبعين من تلك السورة التي هتكت أستار المنافقين: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة:٧١].

ومع التمكين في الدنيا، وعدهم الله بالخير العميم في الآخرة ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة:٧٢].

ألا ترى معي أنه بناء الإنسان على الصورة التي تزكيه وتمكنه من بناء الحياة بناءً يرقى به ـ والفضل لله أولاً وآخراً ـ إلى سعادة الدنيا والفوز بجنة عرضها السماوات والأرض، وبالرضوان الأكبر يوم الدين؟!

* * *

سلامة البناء ومدى الارتباط بين العقيدة والسلوك في المجتمع وسورة التوبة

«١٨»

هذا حديث موصول بما وقفنا عليه المعلم القرآني من دلالة ما جاء في الكتاب الكريم في شأن كلٍ من أهل الإيمان وأهل النفاق: على مدى العلاقة بين المعتقدات والأفكار، وبين السلوك وما ينتهجه الإنسان في ممارسته لشؤون الحياة، وما لذلك من انعكاس على تحرك الجماعة، وبنية المجتمع.

قادنا إلى ذلك ما رأينا فيما سبق من القول، من أن ما اجترحه رأس المنافقين عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول وزمرته في أعقاب غزوة بني المصطلق: أنموذج واضح لما كشفت عنه سورة «التوبة» من السمات الأساسية التي تطبع تفكير المنافقين ـ وهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكنر ـ وتشعر بالمنهج المنحرف الذي يتسريل به سلوكهم هنا وهناك!!

أعني بذلك قول الله تباركت أسماؤه: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ .... ﴾ الآية.

ومن تمام البيان لعاقبتهم عند الله بعد هذا الكشف عن ظلمات سلوكهم ما تلا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة:٦٨].

وعلى النقيض من هذه الصورة التخريبية المظلمة وعاقبة أصحابها في دنياهم وأخراهم: نقع على الصورة المشرقة للمؤمنين الذين استنارت قلوبهم بالإيمان وعقولهم بالقناعة بما جاءهم من الهدى؛ أولئك الذين يعطون باستقامة سلوكهم، وبذلهم المستطاع على طريق البناء، وحرصهم على سلامة الجماعة والمجتمع من

الأذى، أوضح دليل على صدق الوجهة في جنديتهم لبناء الإنسان القادر على ترجمة ما أشرقت به الرسالة الخاتمة إلى إنجاز نافع مثمر لخير العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، وخير البشرية جمعاء لما البشرية معنية بهذه الرسالة، والاتجاه بحركة الحياة وجهة الخير والنماء للجماعة والمجتمع؛ الأمر الذي يبشر بالوجود الذاتي للأمة في شتى المجالات والميادين، ويسلمها في ظل المنهج الرباني إلى حيث يصدق فيها قول الله تبارك وتعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران: ١١٠]

والصورة التي نلمح إليها في شأن المؤمنين والمؤمنات: هي تلك الصورة الميمونة التي أشرقت بها الآية الحادية والسبعون من سورة التوبة نفسها وهي قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ...الآية ـ كما ألمحنا من قبل ـ والتي وقفتنا على السمات الأساسية للمنهج البناء في حركة الفرد والجماعة، فكراً وسلوكاً وما تقتضيه صياغة المجتمع وأن يكون بناؤه على قاعدة من العقيدة الصحيحة، ينبثق عنها أحكام تعالج شؤون الحياة، وأخلاق تصون هذه المعالجة!

وغير خافٍ أن الوقفات الإيمانية الحازمة الحكيمة التي واجهت بها الجماعة المسلمة تحديات المنافقين في أعقاب غزوة بني المصطلق، والعِثيرَ الذي أثاره رأس النفاق عبد الله بن أبي سلول: واضحة الانتماء إلى هذه الآيات وأمثالها في الكتاب العزيز.

أما بعد: فأين عاقبة المنافقين والمنافقات والكفار الذين ديدنهم المكر والمخادعة والمظاهرة على مسيرة الخير والبناء المستنيرة بنور الله، واستنفاد الوسائل التي يمكن أن تتجه ببناء الفرد والمجتمع، وجهة الضلالة والضياع، والخروج على سلطان الهدى والحق!! أين عاقبة هؤلاء من عاقبة المؤمنين والمؤمنات الذين يؤتون ما آتوا من البناء السليم لبنة لبنة وعمارة الأرض على الوجه الذي ينبغي، وهمُّهم مرضاة الله تعالى وحسن العاقبة يوم الدين، والذين تؤرقهم ـ بصدق ـ هموم الأمة، ولا يفتؤون يبذلون من أجل إحكام بناء الفرد والجماعة والأمة، وضمان سلامة هذا البناء واستمراره قوياً معافىً؛ وذلك بردِّ العاديات عنه، وتغذيته بعناصر القوة والنماء.

إنهـا العـاقـبـة التي تعلن إعـلانهـا من خـلال قـوله تعـالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

وهكذا يهـدينا المعلم القـرآني إلى أنه كلمـا كان البناء على العقيـدة الصحيحـة والعلم والنافع، والتساوق مع سنن الله في الأرض، أكثر إحكاماً وأوفر عناية: كان تحقيق الآمال في جيل يحمل أمانة استئناف البناء ـ على قاعدة أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها ـ بثقة وطمأنينة بتحقيق الوجه المبتغى أقرب منالاً إن شاء الله..

والبداية التي كشفت عنها وهدت إليها معالم الكتاب العزيز، والتي أثمرت ما أثمرت من بنية حضارية سليمة: هي البداية التي لا مندوحة للأمة من ترسُّم خطاها بإيمان ووعي بالغين، والسير ـ بمنهجية ـ على هديها، وفاءً للعقيدة وما عاهد المسلم الله عليه، والتزاماً بطريق العلم والعمل والجهاد.

وهنا لا بد للشباب ـ وهم بعد الله أمل الأمة في التغيير إلى ما هو هو الأفضل ـ أن يذكروا بكثير من التقدير والاعتزاز؛ موقف الشاب النابه الشجاع عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول الذي استعلى على العاطفة القريبة، وسما في تصرفاته مع أبيه الضالِّ المضلِّ المفسد، إلى أن يدور مع الحق حيث دار، وكان حب الله ورسوله هو المقدم على محبة غيرهما ولو كان الأب؛ والله ولي التوفيق.

* * *

مع البناة .. ومواقف الهدامين

«١٩»

كان فيما أسلفنا من القول تذكير بما هدانا إليه المعلم القرآني من الأهمية البالغة للوقفات المؤمنة الواعية التي اتسم بها سلوك أهل الإيمان بقيادة المصطفى سيد الحكماء والحلماء عليه الصلاة والسلام: من مكر المنافقين وأضاليلهم، وما كان لمواجهة ما يطرحونه من الأذى بغية تعكير الصفو وتفريق الكلمة، من آثار طيبة في الحفاظ على بنية الجماعة قوية متماسكة لا تزلزلها أمثال هذه الترهات، والتي كان منها قالة السوء التي فاه بها رأس المنافقين ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ بعد قول الموالين له بعضهم لبعض: ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾.

وقد هدانا هذا المعلم المبارك إلى أن تلكم الوقفات التي سداها ولحمتها الإيمان وحسن التعامل مع الواقع، في نظرة مرحلية إلى المستقبل مصحوبة بالحيطة والحذر: ذات انتماء واضح إلى ما ذكر الله في سورة التوبة وغيرها من سمات المنهج الأخلاقي الذي يحكم سلوك المؤمنين الذين يحملون عبء البناء على الحق وتسليح الفرد والجماعة بالوعي الإيماني والوازع الداخلي من ذات الصدور، وهم يرتادون ـ على هدي المنهج الرباني ـ طرائق الخير وتنمية الفضائل وأهلية الاعتصام بالله في السراء والضراء، راجين عظيم المثوبة من الله والظفر بحسن العاقبة يوم الدين.

وليس من مكرور القول التذكير بما جاء في سورة التوبة حول هذه القضية الكبرى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الآية، حيث تلا ذلك ما بشرهم الله من تحقيق ما يتبعون، والتفضل عليهم بأكثر وأوفر مما يأملون ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

وإذا كان الأمر كذلك: فإن هذه الحقيقة الناصعة تأخذ بأيدينا ـ وقد كشفت عما لبناء الفرد بناءً متكاملاً متوازناً، وإعطائه مفاتيح القدرة على مواجهة التحديات ـ من أثر في سلوك الجماعة، وهي تضع أقدامها على طريق البناء الذي رسم معالمه رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو يُلَقَّى القرآن ويبينه للناس..

كما تأخذ بأيدينا مرة أخرى ـ وقد تكاثرت ألوان التحديات تحت شتى العناوين والزخارف ـ إلى مزيد من التبصر في موقف الصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول إبان تلك الساعات الحرجة التي جرت الإشارة إليها غير مرة، وذلك حيال ما وجه إليه أبوه المنافقين من التواصي بأن لا ينفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وقوله: ﴿ وَاللَّهِ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ وذلك في أعقاب غزوة بني المصطلق، إلى كلمات أخر من هنا وهناك تتضح بسوء الأدب والحقد الدفين على رسول الله ﷺ والمسلمين.

ذلك بأنه موقف ـ وقد أشير إليه من قبل ـ يعلِّم الأجيال كيف يكون الفصل بين الحق ـ من حديث هو حق ـ بصرف النظر عمن نواجه فيه، وبين الباطل ـ من حث هو باطل ـ بصرف النظر عما يكون بيننا وبين حامل لوائه من عداوة أو صلة قربى مهما كانت درجتها! فالمؤمن يوالي من والى الله ورسوله والمؤمنين، والعكس بالعكس! كما لا ينسى أبداً الموضع اللائق لإنسانية الإنسان.

والحاجة إلى أن يأخذ هذا الأمر موقعه المفضَّل في مناهج التربية والتزكية: حاجة ملحة متجددة على صعيد الواقع الذي تجتازه الأمة في مجتمعاتها ـ وبخاصة تلك التي تفتقر إلى الذاتية والبعد عن التقليد الأعمى في تحديد المواقف واتخاذ القرارات المصيرية أو ما يشبهها ـ.

ذلك بأن الشعبة الأولى منه، والتي قوامها استئذان رسول الله ﷺ في قتل أبيه جزاء ضلاله وصده عن سبيل الله، إن كان رسول الله مزمعاً قتله كما نمي إليه هو: تدل ـ أول ما تدل ـ على أن محبة الله ورسوله عنده لا تعدلها بحال من الأحوال

محبة الوالد ـ على وجه العموم ـ فما بالك إذا كان هذا الوالد ضالاً مضلاً لا يني يعمل على أذية رسول الله ﷺ والمسلمين بكل ما يتوافر له من وسائل شيطانية هابطة؟!

عرض هذا العرض على رسول الله ﷺ، وهو يعلم أن رسول الله لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى؛ فأمر الله ورسوله أحق أن يطاع، ولا يحول دون هذه الطاعة شيء من العواطف والرغبات مهما كان شأنه!

أما الشعبة الثانية والتي قوامها وبنيتها نقاء القلب وسلامة المعيار الذي تعكس به الذلة والعزة؛ فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولا كذلك عبد الله بن أبي ـ وهو أبوه، وإذاً فلن يدخل المدينة إلا بإذن من رسول الله ﷺ ليعلم أن ابنه المعروف بالبر هو أول من يلقنه الدرس المناسب جزاء قوله: ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ فهو الأحق بأن يكون الأذل، ورسول الله ﷺ والمؤمنون هم الأعزاء ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ووضع الحق في نصابه من طريق منع الولد البار أباه من دخول المدينة إلا بإذن من رسول الله، كيما يكون الجزاء من جنس العمل: أمر بالغ الأهمية عميق الأثر، وما أعظم موقعه على صعيد القيم التي تحكم التصرف عند هؤلاء النبغة الأبرار من أمثال عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول!!

ومما يزيدك قناعة بالحجم الكبير لهذه الوقفة المتميزة في التاريخ: ما جاء في بعض الروايات من أنه ـ رضي الله عنه ـ عندما منع أباه من دخول المدينة قال له: لا تدخلها حتى يأذن رسول الله وتقول: رسول الله هو الأعز وأنا الأذل!!

ولسوف نرى في صفحات قادمات ـ إن شاء الله ـ أن موقف صحابينا رضي الله عنه بشعبتيه العظيمتين ـ مع انتمائه إلى ما دلت عليه الآية المشار إليها في سورة التوبة ـ: هو تطبيق عملي كذلك لما ورد في الكتاب الكريم والسنة المطهرة من تحديد موضوعي لطبيعة العلاقة التي تربط المؤمن بالآخرين ـ كما أشرت ـ أقرباء كانوا أو غير أقرباء، وأن البرهان العملي على صدق الإيمان، أن يكون حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله مقدماً على أي حب أو ميل مهما كان الشأن، وكانت الظروف.

والحق أن هذا الزاد من الصدق في محبة الله ورسوله والجهاد في سبيل الله؛ طاقة هائلة على صعيد الحركة والبناء؛ لما أن الحوافز الذاتية تكون أوفر نماءً وأكثر فاعلية في الاندفاع إلى العمل والإنجاز ـ مع تجويد العمل ـ في تجاوز للعقبات وانتصار على التحديات، وهذا ما نحن بأمسِّ الحاجة إليه اليومَ وكل يوم، والله حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

البناء.. وتوائم المواقف معه
صحابينا عبد الله بن عبد الله بن أبي ـ والمنافقون
«٢٠»

لا يخفى أن مما يجلو ظلام الحيرة عند الأجيال، ما يكون من مواقف عملية ـ يلمسونها حقاً ـ تترجم الدعاوى إلى حقائق تتحرك على الأرض، إنجازاً وسلوكاً في إطار من المنهجية التي تحكمها معايير دعوة الله سبحانه وتعالى.

أقول هذا تذكيراً بحقيقة تكرر ورودها في القرآن الكريم والسنة النبوية، وهي أن الذين يؤثرون القرابة ومتاع الدنيا حُباً ومخالطة على حب الله ورسوله وجهاد في سبيله: أوعدوا بما لا تحمد عقباه في الدنيا ويوم الدين.

ولما كان موقف الصحابي المعلِّم عبد الله بن عبد الله بن أُبي قد أعلن إعلانه بأن ولاءه لله ولرسوله وللمؤمنين هو المقدَّم أبداً لا غيره، وأن برّه لأبيه لا يعني أن حبَّه يغلب حب الله ورسوله وجهاد في سبيله: فهو ـ رضي الله عنه بلا ريب ـ في نجوة من الوعيد الذي أشرقت به الآية الرابعة والعشرون من سورة «التوبة» وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وإذا كان الأمر كذلك، فلنعد إلى متابعة الرحلة التي سعدنا من خلالها باصطحاب هذا النزوع رفيع المستوى الذي يستعلي على كل ما يعوق العطاء المتجدد، إيثاراً لحب الله ورسوله والأخوة الإيمانية والجهاد في سبيل الله، على كل حب ورغبة، وهو ما رأيناه عند صحابينا البطل عبد الله بن عبد الله بن أبي رضي الله عنه وأرضاه! والذي يذكِّر دائماً بما افتتحت به سورة «المنافقون» التي أتت على ذكر

تلكما النقيصتين من نقائص المنافقين، إضافة إلى إعراضهم عن أن يستغفر لهم رسول الله ﷺ ونبّهت على أن ذلك قد وقع ويقع منهم؛ لأنهم لا يفقهون ولأنهم لا يعلمون، ألا وهو قول الله تباركت أسماؤه: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١﴾.

فالغضبة الإيمانية التي غضبها عبد الله بن عبد الله ـ وهو واحد من أولئك البررة الذين تربّوا في مدرسة النبوة، حيث تناولتهم بالتعليم والتزكية والإعداد المتكامل المتوازن، يد محمد ﷺ الصناع، وشهدوا ـ وهم يسهمون في بناء المجتمع المسلم على أنقاض المجتمع الجاهلي على النحو الذي حدّدت معالمه الرسالة الخاتمة، والذي يمتد إلى تنمية الوجود الذاتي لأمة الإسلام التي شاء الله تبارك وتعالى أن تكون ـ بهذا الإسلام ـ خير أمة أخرجت للناس ـ شهدوا ما كان من التنزيل، والحكم على الوقائع في ضوء المعايير المستنيرة بنور القرآن..

هذه الغضبة التي كانت من ذلك الشاب المؤمن بربه، المحب لنبيه، الريان قلبه بالهداية والإخلاص، رداً على ما ألقى أبوه ـ وقد باض النفاق في رأسه وقلبه وفرّخ ـ من الكلمات الآثمات على نهج يتنافى مع أبسط الأعراف الأخلاقية عند العرب حتى قبل الإسلام. هذه الغضبة تنم عن صادق الغيرة على العزة الإيمانية أن يطولها المكر وينال منها المنافقون؛ لما أن الحقيقة النورانية غير هذا ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

كما تكشف عن عميق الانتماء المنوَّر بالفقه في الدين والإخلاص لرب العالمين، إلى القيم التي يفترض أن تقود خطا المسلم، وهو يتعامل مع الحياة.

ناهيك عن أنها في الوقت نفسه: صورة واضحة للتواؤم بين السلوك الذي طبع حركة ذلك الصحابي، مع تلكم المعايير التي حدّدها الكتاب الكريم والسنة المطهرة لطبيعة العلاقة بين المؤمن وبين الآخرين كيف تكون؟!

ذلك بأن اتساق العمل بالعلم والتوافق بين السلوك وبين المعتقد: يقضيان بأن من أكرمه الله بحمل العبء على هدي الرسالة الخاتمة: أن يكون وقافاً ـ بعد سلامة تصوره ـ عند حدود الشارع الحكيم أحكاماً وأخلاقاً وكل ما هو من ذلك بسبب، لا تزاحم خيرتُه ما اختار الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام.

ذلكم صريح قول الله تبارك وتعالى في سورة الأحزاب: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾[الأحزاب:٣٦] .

ومن تلك المعايير المشار إليها: أن الإيمان هو الفيصل الحقيقي في أمر العلاقة المنوَّه بها وهو فيصل يثمر ـ فيما يثمر ـ أن الأخوة الحقيقية هي أخوة العقيدة وأن جنسية المؤمن عقيدته في الواقع بلا ريب.

وقد جاء بيان ذلك في سورة «الحجرات» أوضح ما يكون البيان؛ ذلكم قوله جل شأنه في هذه السورة المباركة: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الحجرات:١٠] .

كما أن الأصل الذي هو أصل الأصول: أن موالاة المؤمن ـ وهو يخوض معركة الحياة بأبعادها وميادينها جميعاً لله ولرسوله وللمؤمنين.

ففي سورة «المائدة» نقرأ قول الله جل وعز: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

والوعيد على غير هذا شديد جدُّ شديد، ألا ترى إلى قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ

وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ .

وما أوضح من نقع عليه في هذا الباب من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[المائدة:٥٧] .

وفي نهي قاطع أيضاً عن موالاة الكافرين من دون المؤمنين، ترسيخاً لهذه المقولة في حسّ المؤمن وكيانه، وتوجيهاً صارماً لسلوكه وتصرفه وهو يبني حركة الحياة: نقرأ في الآية الثامنة والعشرين من سورة «آل عمران» قول الله جلت حكمته:﴿ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾.

إن هذا التـواؤم الذي يعلن إعـلانه بين هذه المعاييـر، وبين مـا صنعـه الصـحـابي المبجَّل عبد الله بن عبد بن أبي يوم انتصر للحق، وبرهن على أن هذا الحق أقوى في نفسـه وأغلى من عـلاقتـه بأبيـه رأس المنافقين.. إن هـذا التواؤم عنوان بـالغ الدلالة على ما يجب أن تكون عليه هذه القضية الكبـرى قضية الولاء والبراء من اهتمام بالغ في مناهج التربية والإعداد على طريق البناء اليوم في ظروف وملابسـات ليس أقلُّها مـا صنعـه الفكر الغازي لعالم المسلمين في غيبـة الحقـائق الإسـلاميـة عن كثيـر من مناهـج التثقيـف، ومـا أثير من غبار لبُّس الحقيقة على كثير من أبناء وبنات المسلمين، وعانت الأمة وتعاني من ذلك ما لا يخفى على ذي البصيرة والتبصر.

* * *

الموقف الإيماني البناء.. وسلامة المعايير والمنافقون

«٢١»

نفحات المعلم القرآني في سورة «المنافقون» عامة مهمة من دعائم البناء السليم، التي دلَّ عليها الموقف الذي اتخذه الصحابي عبد الله بن عبد الله بن أبي رضي الله عنه من أبيه بعد الذي كان من هذا الأب الضال المضل في أعقاب غزوة بني المصطلق.. فلقد كان ذلك الموقف برهاناً على سلامة الدعائم التي يؤصِّلها النبي عليه الصلاة والسلام لتكون عماد البناء الأمثل الذي يريد له أن يكون ترجماناً عملياً واقعياً للرسالة، كما كان دليلاً واضحاً على صدق الانتماء والاعتزاز بالدين والغيرة على رسول الله ﷺ والمؤمنين أن يُنال منهم كائناً ما كان هذا النيل؛ فما بالك إذا كان هذا النَّيل يتعلق بأمر جوهري هو معيار العزة والذلة في المدينة بعد الإسلام. فكلمات عبد الله بن أُبي الخاسئة ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ قوبلت من عبد الله ابنه بأن منع أباه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله، ليعلم من هو الأعز ومن هو الأذل؛ بل أوضح له ـ كما دلت بعض الروايات ـ أنه لن يدخلَها حتى يعلنَ أن رسول الله هو الأعز وأنه هو الأذل، كيما يمحو الحقُّ الباطلَ، ويحجم رأس المنافقين عن أن يطلق مثل هذا الكلام العابث مرة أخرى.

وأكثر من ذلك: أبدى استعداده الجادَّ لإنهاء وجود أبيه من طريق المسلمين، إذا كان رسول الله ـ وهو الذي لا ينطق عن الهوى ـ يريد ذلك.

وهذا الموقف البنَّاء، الذي حمل تلك الغضبة الإيمانية التي كانت ـ بحق ـ غضبة لله وغيرةً على رسوله ورسالته والمؤمنين، كما كانت عنوان السلامة لدعائم البناء المحكم... هذا الموقف العظيم، أفصح عن التواؤم الواضح بين المعايير التي أذن بها الكتاب والسنة في شأن علاقة المؤمن بالآخرين مهما كانت قوية، وبين سلوك عبد

الله بن عـبـد الله بن أبي رضي الله عنه؛ الأمـر الذي يكشف عن السـر في تلك الطاقات الناعلة التي انطوى عليها أولئك الرجال من أمثال عبد الله هذا وإخوانه الذين قال الله تعالى فيهم ـ كما جاء في خواتيم سورة «الفتح»: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩] ... الآية يوم كان الإيمان الذي خالطت بشاشته قلوبهم، وذاقوا حلاوته أحسن ما يكون التذوق: هو محور الحركة الناعلة المنضبطة بضوابطه في رحلة البناء، ذلك المحور الذي سما بهم إلى تجاوز ما تمليه الأعراف الجاهلية ومحبةُ القريب ضالاً كان أو مهدياً، ونصره ظالماً كان أو مظلوماً؛ فموالاة المؤمن ما بد أن تكون لله ولرسوله وللمؤمنين، أما موالاة الكافر المبغض لله ولرسوله وللمؤمنين، المعادي للحق الذي نزل به الكتاب: فمرفوضة ـ شكلاً ومضموناً ـ ولو كانت العلاقة مع أقرب الناس نسباً.

وليس من مكرور القول أن نعيد إلى الأذهان ما جرى التنبيه عليه من آيات بينات تحمل بعضاً من تلك المعايير أمراً بها أو نهياً عن ضدها والتي كان منها قوله تعالى في سورة «المائدة» : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران : ٢٨] الآية.

وأنت واجد أن هذه الآيات ـ وغيرها كثير ـ في كتاب الله نصاً أو دلالة أو فحوى، تجمع بين الأمر والبشارة والنذارة، كلٌ في موقعه من البيان، ترغيباً، أو ترهيباً؛ فهي تأمر أمراً جازماً بأن تكون الموالاة لله ولرسوله وللمؤمنين، وتبشر المؤمنين بأن ذلك مناط قوتهم وغلبتهم.

وحينما تكون الغلبة للمؤمنين: فذلك يعني انتصار الحق وخذلان الباطل، وأن تأخذ عملية البناء الشامل التي تعطي الفرد والجماعة ـ بعون الله ـ مفاتيح التمكين والنماء: طريقها إلى الوجود العملي الذي لا تفتقد آثاره الطيبة المكينة في ميدان من الميادين.

كما تنهى تلكم الآيات ونظائرها ـ وما أكثرها ـ عن موالاة الكافرين، وتنذر عاقبة ذلك ـ لو وقع ـ بأنها الخسران المبين في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[المائدة:٥١] ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[آل عمران:٢٨] .

والواقع أن سلامة التصور لهذه الحقيقة التي يجب أن تكون الخطوة، الأولى في إدراكها: أن تأخذ مكانها اللائق في ثقافة الفرد والجماعة، وأخذ ذلك مأخذ الجد، وتطويع التحرك على ساحات العمل والبناء لها ـ بحكمة وروية وإدراك للواقع ـ في حالات السلم والحرب.. كل أولئك هو الدرع الواقي بإذن الله مما يوجه إلى المجتمع المسلم من سهام مسمومة في دينه ودنياه، وما يدبر له من مكائد وما يعلن عليه من ألوان من الحروب في الفكر والسياسة والاجتماع والاقتصاد، وكل ما هو من ذلك بسبيل أو سبب.

وعلى صعيد الواقع: يبدو ما تجري الإشارة إليه، ضمانة جذرية ـ إن شاء الله ـ لسلامة المنطلق التي ما بد من أن تواكب ـ بمنهجية وتساوق مع السنية الإلهية ـ تباشير اليقظة وما ينشده العاملون البناة الموقنون بأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، من توجيه الطاقات البشرية ـ بعد أن تفرج عنها سجون مصادرة الحريات ـ والطاقات العلمية والاقتصادية وجهتها الفاعلة المقرة.

وليس من حاجة إلى التذكير بأن الماضي والحاضر من تاريخ أمتنا يصرخ بالمؤمنين أن يكونوا عند الذي آذنت به معالم الكتاب حباً لله ولرسوله وموالاة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولذلك ما له من آثار لا تخفى على ذي بصيرة، ولكن الكثير من المتصدرين عن هذا غافلون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

في ضوء المعايير.. البناء والسياج الواقي موقف.. وموقف

«٢٢»

كان فيما أوردنا من قبل ونحن نخطو على طريق التحرير لمعايير البناء على صعيد الفرد وعلى صعيد الجماعة: قول الله تبارك وتعالى في سورة «آل عمران»: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ وقوله جل شأنه في سورة «المائدة»: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقد جرت الإشارة إلى أن هذه الآيات ـ ونظائرها كثيرة في كتاب الله ـ تدل ـ فيما تدل ـ على المعيار الذي يجب أن يحكم علاقة المؤمن بالآخرين، وأن المحور الذي هو رأس الأمر في هذه العلاقة، على مستوى القرابة القريبة أو غيرها: ما توحيه الكلمة الطيبة **«لا إله إلا الله محمد رسول الله»**؛ لأنها هي جنسية المؤمن، ومقوم وجوده الذاتي، فلا بد أن تخضع المعايير لذلك. وقد ثبت بما لا يقبل الشك أن الالتزام بهذا من أهم مقومات البناء الحقيقي المثمر في حياة الأمة، وأن العدول عن ذلك أو المخالفة عنه في قليل أو كثير: له ماله من انعكاسات غاية في السوء وبواعث التفكك والضعف!

والأهمية التي تكمن وراء ترجمة القناعة الإيمانية بهذه القضية بالغة الخطورة تشي بضرورة استذكار موقف الصحابي العلَم ولد رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، وهو الموقف الذي لا يرتاب منصف: أنه كان برهاناً غاية في القوة على صدق موالاته لله ولرسوله وللمؤمنين، وأنه كان جاداً في بذل ما يقتضيه ذلك من تكاليف

نفسية وعاطفية قبل كل شيء، مهما كان الشأن في ذلك؛ الأمر الذي خرج به ظافراً في معركة الصراع، متميزاً بتواؤم سلوكه ـ رضي الله عنه ـ مع ما حدّدت الآيات البينات من معايير ومنطلقات، وما علم من بيانها النبوي الكريم فقهاً ودراية وتذوقاً.

وهذا الاستذكار لموقف كهذا الموقف ـ كان له الأثر العميق في استمرار وحدة الصف، والحيلولة دون أن يأخذ المكر الماكر من قبل أبرز المنافقين طريقه ـ لا سمح الله ـ إلى بعض القلوب ـ ما بدَّ أن تذكر معه ما سبقت الإشارة إليه من أن سلامة التصور لتلكم المعايير التي أفصح عنها وحدَّدها الكتاب الكريم على صورة غاية في الوضوح، حتى باتت من المعلوم من الدين بالضرورة، وبينتها السنة المطهرة قولاً وفعلاً، في شأن علاقة المؤمنين حملَة القرآن وبيانه بغيرهم، والأساس الذي تقوم عليه قضية الولاء والبراء؛ كل أولئك هو الضمانة الواقية ـ بإذن الله ـ مما يوجه إلى المجتمع المسلم، والأمة المسلمة من عوامل الأذى، أن لو صحب التصرف ما ينبغي من الحكمة المصحوبة بتبين الأمور، ومعرفة ما يدور حول الإسلام والمسلمين على الصعيدين الإقليمي والدولي، والأسباب الحاملة على ذلك!!

كما أنه السياج المنيع دون أن يُنال من مسيرة البناء التي تظللها راية التوحيد، ويجنِّد لها ما يجنَّد من الإمكانات البشرية والعلمية والاقتصادية وما إلى ذلك.

ولعل مما يزيد هذا الأمر الجلل توكيداً ـ وموقف الصحابي مدار العبرة عن أبيه رأس المنافقين ومواقف إخوانه من الصحابة بحسبان ـ: ما دلَّ عليه قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾[المائدة: ٥٦].

فالكلمات الهاديات هنا: تنطق بأن موالاة الله ورسوله والذين آمنوا، هي الطريق التي تسلم المؤمنين إلى الغلبة والانتصار في معركة الحق والباطل، على أعداء الله والإنسان.

كما تدل بفحواها على أن الصراع بين الحق والباطل واقع لا محالة، والابتلاء في جندية المؤمن على ساحة هذا الصراع: صنو الإيمان، ويحتاج إلى صبر ومصابرة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

ألم تر إلى قوله تعالى في فواتح سورة «العنكبوت» ـ وهي سورة مكية ـ ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ .وقوله في سورة «آل عمران» إحدى الزهراوين المدنية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

فإذا أراد المؤمنون الغلبة والتمكين قاصدين أن تكون كلمة الله هي العليا؛ فليكن في مقدمة الأخذ بأسباب النصر ـ وهي كثيرة وميزة ـ أن تكون موالاتهم ـ على الأصعدة كافة ـ لله ولرسوله وللمؤمنين.

وعندما يكونون كذلك: فهُم مع العقيدة والعلم والعمل، وقَدْر إنسانية الإنسان قدرها، والأخذ بأسباب القوة المستطاعة أخذاً لا ينأى عن معرفة الواقع كما هو، ولا ينقصه التساوق مع سنن الله التي لا تتغير ولا تتبدّل: كل أولئك مع التحرر الذاتي؛ لأنه فرض لازم لا محيد عنه؛ ذلك بأن الحفاظ على الموقف الذاتي الذي يثمر القرار المستقل الحكيم في الموالاة والمعاداة: لا بدَّ له من ذلك كله.

ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى به أمراً جازماً فقال: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[الأنفال:٦٠]

والملاحظ أن الله لم يرتب النصر على الإعداد؛ لأن النصر يمكن أن يكون في معركة، ويتخلف في غيرها لدواع وأسباب، ولكن الديمومة يجب أن تكون لحال من القوة عند المسلمين تجعل العدو يحسب ألف حساب قبل أن يُقدم على ما يريد الإقدام عليه في ميدان الصراع مع الحق وأهله، وقد يغني ذلك عن المواجهة القتالية؛ لأن قوة المسلمين ـ بشعبها المتعددة ـ تحقق ما يجب تحقيقه بعون الله! والأصل هو الدعوة، وإنما شرع الجهاد من أجلها ومن أجل الذود عن حياض الإسلام وكيان المسلمين في مواجهة التحديات للهدف الكبير وهو أن تكون كلمة الله هي العليا. وفي ذلك الخير كل الخير لا للمسلمين فحسب، بل للإنسانية جمعاء.

ثم لا بد من نظرة متأنية متدبرة لسياق الآيات وسباقها في الموضوع؛ فمثلاً نجد أن قوله تعالى في سورة «آل عمران»: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، قد سبق قبل بضع آيات بقوله جل شأنه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ والسياج الواقي لوجوده العملي، وأن تكون له الكلمة الحاكمة في كل جانب من جوانب الحياة، كيما يصوغها على الهدى وما فيه مصلحة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم...

أجل: السياج الواقي لذلك: أن يستقيم أبناؤه على الطريقة زيادة في الإيمان، وعملاً بالعلم، ومعرفة بحقائق الأمور هنا وهناك، ناهيك عن أصل الأصول وهو الالتزام بمعايير الكتاب والسنة وضوابطهما في تحركهم وممارستهم لشؤون الحياة، وهم يمهدون لأنفسهم ولأمتهم وللبشرية كلها، طرائق الخير وحماية الإنسان من العبودية للإنسان، تلك الطرائق الكفيلة ـ بإذن الله ـ بإقامة البنية الحضارية المتكاملة المتوازنة اللائقة بالإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وفضَّله على كثير ممن خلق تفضيلا.

وضمان الاستمرار تجدُّداً ونماءً مثمراً قائم، إذا ما استمر العطاء بعقول متفتحة على هداية الإسلام، وقلوب موصولة بالله، وأخذ بالأسباب وفق سنن الله، وعدم الغفلة عن أن بيده ـ سبحانه ـ مقاليد السماوات والأرض، وأنه ينصر من ينصره وهو القوي العزيز.

البناء.. والقاعدة الإيمانية للعمل

«١»

لعل من الأهمية بمكان ـ وتكاليف رحلة البناء والإنماء، جهودٌ تبذل، وأموال تنفق، وعقول تعمل، وسواعد تتحرك هنا وهناك بعلم وإفادة من كل المعطيات الحديثة.. لعل من الأهمية بمكان أن تتفتح البصائر على التحديد الذي ألمحنا إليه فيما سبق، وأن البناء العميق في جذوره، المتسع لكل الميادين في أبعاده وشموله: هو البناء الذي لا تغفل فيه الأمة ـ مع الأخذ بالأسباب ـ عن أمور الآخرة وقبول العمل عند الله تبارك وتعالى. فهو ـ جل شأنه ـ إنما يتقبل من المتقين؛ فما لم يقم العمل على قاعدة من الإيمان بالله وتقواه: فليس من القبول في شيء.

وقوله عز وجل في شأن الكافرين وما يكون لهم يوم القيامة:﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[الفرقان :٢٣] واضح في هذا الذي نقول: إذ كان من عدله سبحانه أنه لم ينف لهم ما عملوا من الخير في الدنيا من صلة رحم، وإكرام ضيف، وإغاثة ملهوف. وهي أخلاق يقدرها الإسلام حق قدرها، ولكن هذا شيء، وما يكون من وزن عند الله للأعمال شيء آخر.

وهذا ـ في الحقيقة ـ أمر جمُّ الفائدة في دنيا الواقع، فالمعلم القرآني يهدينا إلى تبيّن الأمور، والحرص على سلامة المنهج، وما يجب أن يتوافر فيمن يعتمد عليهم في وضع المناهج للتعامل مع حركة الحياة موضع التنفيذ في كل ميدان وفي كل زاوية من زوايا المجتمع تربيةً وتعليماً وإعلاماً، وتنظيماً لشؤون الثقافة والاجتماع والاقتصاد، وعملية التطوير جملة ـ إلى ما هو الأفضل، لأمة تواجه ما تواجه من التحديات وهي تحمل الرسالة الخاتمة رسالة الإسلام.

ومن النماذج العملية التي قدّمها لنا القرآن الكريم على هذه الساحة: ما جاء في سورة التوبة من قوله تعالى في الآيتين السابعة عشرة والثامنة عشرة: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

لقد عمرت قريش الكعبة عمارة مادية ـ ما في ذلك ريب ـ وكانت تعتز بذلك، وما هو منه بسبيل، أيّما اعتزاز، ولكن الآية القرآنية تنفي عن المشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾.

لقد نفى عنهم ذلك على هذه الطريقة في التعبير التي يسميها العلماء نفي الشأن، فليس من شأن المشركين الذين يشهدون على أنفسهم بالكفر بما يقولون وبما يفعلون من الشرك وما يتصل به.. أجل ليس من شأنهم ذلك؛ إذ لا يستوي في ميزان العقل السليم: أن تدّعى عمارة بيت الله، ويعبد غيره، وتقامَ الأوثان في ظل بيته وهو الكعبة. وبعد بيان العلة في هذا، قال جل جلاله: ﴿ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

لقد رفعوا قواعد البيت بالحجارة، ولكنهم ولغوا في جحيم المخالفة عن العمارة الحقيقية بالتوحيد، وملؤوه بالأوثان والعياذ بالله.

* * *

البناء.. والقاعدة الإيمانية للعمل

«٢»

أشرنا فيما سلف من القول إلى واحد من النماذج العملية التي قدمها القرآن على ساحة الأهمية القصوى لعقيدة التوحيد، وضرورة بناء الأعمال عليها، وأثرِ ذلك في قبول العمل عند الله عز وجل، وأنه ـ تباركت أسماؤه ـ إنما يتقبل من المتقين.

وذلكم ما جاء في سورة التوبة من نفي عمارة مساجد الله أو مسجد الله عن المشركين، وبيان أنه ليس من شأن من يشهدون على أنفسهم بالكفر ويجاهرون عقيدة التوحيد بالعداوة أن يعمروا بيتاً لتوحيد الله وعبادته، ومن أجل ذلك فما صدر منهم من العمارة المادية لا وزن له عند الله تبارك وتعالى في الآخرة لأنه عمل خالٍ عن القاعدة الإيمانية التي يجب أن يرتكز عليها وهي شرط قبوله عند الله، وبرهان أنه عمل يتسم بالخير والصلاح ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[المائدة:٢٧] .

فهؤلاء الذين يشهدون على أنفسهم بالكفر قولاً وعملاً وسلوكاً: يكون جزاؤهم يوم القيامة حبوط أعمالهم وهلاكها حتى كأن لم تكن، وأكثر من هذا: هم في النار خالدون، ولن ينجيهم من عذاب الله الذي حَقَّ عليهم بكفرهم وضلالهم أنهم قاموا بعمارة مسجد الله أو مساجد الله. وجدنا ذلك في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ ثم بين سبحانه أن العمارة الحقيقية وراء ذلك لن تكون إلا من أولئك الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامتلأت قلوبهم خضوعاً لله عز وجل لا للأوثان، وعسى أن يكون هؤلاء من المهتدين.

لقد نطق القرآن بهذه الحقيقة والمسلمون يتحركون في ميادين البناء، تثبيتاً للعقيدة، وعلماً، وتعليماً، وجهاداً في سبيل الله، وإعطاءً لشمول الإسلام مختلف،

جوانب الحياة، أبعاده الحقيقية عند التطبيق على صعيد الفرد والأسرة والمجتمع، وكل ما ينتظم أمور الدولة في شؤون الثقافة والاقتصاد والاجتماع، وكل ما يحكم علاقتها بالمسلمين وغير المسلمين في الداخل، وعلاقتها بالدول والناس الآخرين في الخارج.

وإذن فكل لبنة من لبنات البناء، وكلُّ طاقة ترادُ تنميتُها لتُسهم في دفع القافلة، واستمرارِ مسيرتها الخيرة.. ملحوظ فيها هذه الحقيقة، وهي أن العمل المنظورَ إليه في ميزان الله الذي لا يعول، هو ذلك العمل الذي نبت على نور عقيدة التوحيد وتقوى الله، أما ما وراء ذلك: فيصدق فيه قول الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[الفرقان:٢٣]

ولقد يكون من الخير أن نشير إلى أن هذه الحقيقة التي حملها المعلم القرآني في نفي عمارة المسجد والمساجد عن المشركين، جديرة أن تفتح بصائر الأمة على كل صغيرة وكبيرة وهي تعزم عزمَها على أن تبني قوتها الذاتية كيما تكونَ يقظة عند تقدير الأمور وتقويم المخططات والأعمال، فلا تؤخذ بالمظاهر الكاذبة، ولا يلبَّس عليها بزخرف القول والشائعات، وفي الوقت نفسه هي جديرة أن تكون المؤشر العميق لما يجب أن يكونَ القاعدةَ عند بناء الإنسان؛ فبناء القوة الذاتية التي تُخرج الأمة من وهدة الضعف في كثير من الميادين: كفاؤه جيل يُبنى بعمق وشمول متكاملَين على عقيدة التوحيد لتكون معتصمه عند المغريات، وعامل ثباته عند الشدائد.

وعندها يؤدي المعلم القرآني دوره الطبيعي ويعطي ثمراته على الطريق المبتغاة.

وعندها أيضاً يأخذ التخطيط والجهد والعلم التقني والمال الموقع الطبيعي في البناء الذاتي المنتج بعيداً عن العبث وإضاعة حقوق الأمة وقل مثل ذلك في كل الطاقات والإمكانات.

البناء.. والقاعدة الإيمانية للعمل

«٣»

القضية التي كنا نحوّم حولها من قريب: أخذاً من قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ هذه القضية وضعت العقل على المسار الصحيح ـ هنا ـ بعيداً عن التناقض؛ إذ كيف يعمرُ مساجدَ الله التي تبنى على اسمه وحده لا شريك له: من كفر بالله وعدل به فاتخذ من دونه وثناً يعبده، وجعل لربه الذي أوجده من العدم وخلقه في أحسن تقويم نداً يتخذه إلهاً.. إن ذلك أمر لا يُقْبَلُ في ميزان العقل السليم، وهو التناقض الفاضح بعينه.

وعلى هذا: كم تبدو الحاجة ماسة لأخذ العبرة من عطاء الآية دفعاً للتناقض عند التقويم الشامل لعلاقة الأمة بالآخرين، وارتباط ذلك بمسيرة البناء والإنماء.

ولقد نجد في سورة الأنفال عوناً لنا في إعطاء هذه النقطة مزيداً من الوضوح، كيما يكون الدرس ضياءً على طريق الواقع الذي تشعبت فيه مسالك البناء في أسسه وأهدافه ووسائله، وكذلك في ساحاته وميادينه والطاقات المؤهلة لأن تؤتمن عليه تخطيطاً وتنفيذاً، يرتفعان بالمجتمع المسلم ـ ومن وراء ذلك بالأمة المسلمة ـ إلى حيث تودِّع حالة الضعف والتبعية وعدم الاستقلالية في صنع القرار، وتنهضُ من العِثار الذي ألم بها، فتمتلك الإرادة والتحرك بدوافعها الذاتية تحت راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وتمتلك ـ بجانب ذلك ـ القدرة الذاتية التي تحقق لها ـ بعون الله ـ ما تريد.

وما نعنيه من سورة الأنفال هو قوله تعالى في الآية الرابعة والثلاثين بشأن المشركين وما ينتظرهم من سوء العاقبة بشركهم وضلالهم: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

إنهم يدَّعون عمارة المسجد الحرام، ولكنهم يصدون عن المسجد الحرام ـ وذلك ديدنهم مع كل بيت من بيوت الله يصدون عنه قولاً وعملاً؛ عدواناً على حملة عقيدة التوحيد ومنعاً لهم من العبادة، فضلاً عن أن تكون العقيدة هي المرجعَ والحكم، وذلكم هو الهدم الحقيقي.. فأين من حراسة عقيدة التوحيد وحمايتها في بيت الله وصيانة هذا البيت عن عبث الوثنية: هذه العمارة المدعاة؟

من أجل ذلك جاء التعبير القرآني ليكشف عن هذا التناقض بين الدعوى والسلوك، وليضع العقلَ ـ كما أسلفنا ـ على المسار الصحيح في مواجهة هذه الحقيقة التي تتصل أيَّما اتصال بطبيعة الصراع بين المنهج الحق القائم على عقيدة التوحيد وبين مناهج الباطل.

وإنها لشُقَّةٌ بعيدة بين البناء والهدم.

كان ذلك كله كيما تأخذ هذه الحقيقة أبعادها في حياة الأمة التي تحمل رسالة الله إلى الإنسانية جمعاء، بناءً خيراً للإنسان وما وضع تحت يده على هذا الكوكب وسُخر له في ضوء منهج كامل للحياة جاءت به معالم الكتاب الكريم، وإنماءً لكل الطاقات البشرية والمادية وكل ما يتصل بذلك، كيما تكون في خدمة ذياك البناء.

إن كل ما صنعه أولئك الكفرة في الدنيا لم يرشحهم للنجاة من عذاب الله الذي خلقهم وأعطاهم ما أعطاهم، فتبدلوا الكفر والصد عن بيت الله بتوحيده وعبادته وشكره على ما أنعم ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾. والحال هم يصدون عن المسجد الحرام.

إنها الجريمة التي استحقت هذا الجزاء؛ فمحاربة التوحيد وأهله، ومنعُ المسلمين من العبادة في المسجد الحرام: صد عن هذا المسجد، وجزاء ذلك عذاب الله يوم القيامة، ناهيك عن عذابهم في الدنيا بما كان من فتح مكةَ ـ كما يقول العلماء ـ الذي كان تحولاً عميقاً في تاريخ الدعوة والبناء والحمد لله.

البناء.. والقاعدة الإيمانية للعمل

«٤»

هؤلاء المشركون الذين أسلفنا الحديث عنهم فيما سبق من القول: كان من العجيب دعواهم ـ مع كل ما يقترفون من محاولة آثمة لتصديق مسيرة الخير، والقضاءِ على أولئك الذين يبنون حضارة الإنسان في ظل عقيدة التوحيد ـ كان من العجيب دعواهم أنهم أهل المسجد الحرام؛ أما الذين هاجروا بدينهم درءاً للفتنة بعد أن صُدوا عن ذلك المسجدِ، وتابعوا ـ على الجهد والصبر ـ طريق العقيدة التي من أجلها رفع أبراهيمُ عليه السلام قواعد البيت ـ أما هؤلاء: فليسوا أهلَه على ما يزعمون.

ولكن الآية الكريمة في سورة الأنفال بعد أن أتت على استحقاقهم العذابَ بما كسبت أيديهم: كشفت زيف هذا الادعاء وأعلنت أن المتقين هم الجديرون بتكرمة أن يكونوا أهل المسجد الحرام؛ ذلكم قوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

إن أولياء البيت هم أولئك الذين يتجهون في عقيدتهم وعملهم وممارستهم شؤون الحياة صوب مرضاة الله تعالى ربِّ هذا البيت، وذلكم هم التوافق الكامل بين الدعوى والسلوك.

أما منهج أهل الشرك: فقائم على التخالف والتناقض، ولذلك خوطب العقل السليم بربط المقدمات بالنتائج، والكشف عن العلاقة بين الحكم عليهم وأسبابه، ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

هذه واحدة، أما الثانية: فنجدها في قوله جلت حكمته:﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ .

وفي عود على بدء: يبصر الناظر المتأني في كتاب الله ما نجد هنا في سورة الأنفال وبين الذي رأينا في سورة التوبة من قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ من التناسق في تحريك العقل السليم ليعمل عمله، وهذا من أحقية هذا الدين. فكأن الكلمة الهادفة تقول: إذا كان الأمر كذلك، فكيف يكون هؤلاء أهل البيت وأولياءه:﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ جاء ذلك على سبيل الحصر حيث النفي المقترن بإلا؛ ولذلك قال العلماء عند تفسير هذه الآية: أي هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهله النبي ﷺ وأصحابه كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

هكذا تسقط البراقع، وينكشف الزيف، وتقفنا كلمات الهداية على التناقض بين دعاوى الكفار وبين سلوكهم ومجموع تصرفاتهم على ساحة ما يدّعون، بل تظهر عوارَ هذه الدعاوى التي يقوم الدليل على ضدها.

واليوم تبدو الوقائع من صنيع أعداء الحق وهي تذكّر بشكل فاضح على صعيد الدعاوي والواقع: بقول من قال: ما أشبه الليلة بالبارحة.. وإن كان الحاضر أكثر شدة وغطرسة وأذى من الماضي بما لا يقاس!!

ومن خلال وقائع حدثت للرعيل الأول وهو يخوض معركة البناء، يأخذ المعلم القرآني بيد الأمة إلى ساحة الوعي واليقظة، كيما تتبيَّن مواقعَ أقدامها، وهي تدفع ثمن كل خطوة تخطوها مالاً وجهداً وعرقاً وصبراً على وعورة الطريق، وكيما تكون على المحجة البيضاء في التعامل مع الحقيقة ـ كما هي ـ لا مع الباطل الذي يزخرفه أهلوه ويلبسونه لبوس الحق، حيث تكون الدعاوى الباطلة في واد، والعملُ البناء المثمر في واد.

ألا وإن هذا الإعلان الذي يحمله المعلم القرآني، نبراسٌ يهدي إلى مزيد من التشبُّثِ بالحقيقة القرآنية التي تريد من المسلمين أن يحسنوا استخدام عقولهم في

ربط النتائج بالمقدمات، وإحلال العقيدة الصحيحة محلّها اللائق في بناء الأجيال، مراعية ذلك بعلم وأمانة في وضع المناهج والتطبيق، وعدم الاغترار بالعناوين المصطنعة التي تكون في حقيقتها حرباً على عقيدة الأمة ووجودها.

أعيذها نظرات منك صادقة   أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

والحمد لله رب العالمين.

* * *

البناء.. والقاعدة الإيمانية للعمل

«٥»

يا عجباً عجباً لا ينقضي لأمر هذه الأمة المحمدية التي أكرمها الله بأن جعلها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وبناها من أجل ذلك بكتابه الكريم وبيانه من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان الواقع من هذا البناء بحسبان؛ وأجدر بها أن تكون قوّامة بحق على هذا البناء، شكراً له سبحانه على هذه المنة منقطعة النظير.

أقول هذا وأمام ناظري ما سعدنا به على هذه الساحة في كلام قريب: من وضع أولئك البررة الذين طرق بهم رسول الله أبواب البناء.. أمام الحقيقة في بعضٍ من دعاوى المشركين، كيما يتبينوا وتتبيّن الأمة من ورائهم ـ وهم يمارسون عملية البناء الكبرى ـ أبعاد تلك الحقيقة ومنطلقاتها، وكيما يحسنوا التعامل معها بوصفهم رواداً يعبّدون الطريق لمن بعدهم؛ لأن رسالة الإسلام ليست مقصورة على زمان دون آخر، وليست محدودة ببقعة من العالم أو مكان، وفي الوقت نفسه هي ـ كما شاء الله لها أن تكون ـ منهج للحياة لا يغادر شاردة ولا واردة من كل ما يحقق بناء الإنسان والحياة على هدي عقيدة الفطرة عقيدة التوحيد، إلا جعلها تأخذ موقعها كما شاء وهو الحكيم الخبير.

وكان الواقع من ذلك بحسبان، واقع ما حدث على أرض الجزيرة من التحول، الذي رافقه تعنت المشركين وزعمُهم عمارة المسجد الحرام وأنهم أهله، ووجّهت معالم الكتاب أبناء الدعوة إلى التغيير.. التغيير المنهجي الموضوعي، الذي يعفّي على آثار الجاهلية، ويضع كل أمر موضعه، ويحرك العقل إلى تبين النتائج من خلال المقدمات، وكان من ذلك رد هذه الدعاوى بالحجة الواضحة التي كشفت التناقض والزيف.

غير أن المشركين كانت لهم مزاعم أخرى: منها أنهم قائمون على الصلاة عند المسجد الحرام، فدعوى أنهم أولياؤه دعوى تتسق مع قيامهم بالعبادة والنسك. وجاء الرد الحاسم في الآية الخامسة والثلاثين من سورة الأنفال بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ تبين الآية الكريمة أن الصلاة التي كانوا يصلونها عند البيت لم تكن إلا مكاء وتصدية.. هكذا على سبيل التعبير بالنفي المقترن بإلا ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ والمكاء والتصدية ـ روى الطبري وغيره كما عن كثير من الصحابة والتابعين ـ: التصفير والتصفيق، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانت قريش تطوف البيت عراة تصفر وتصفق، والمكاء الصفير، والتصدية التصفيق» وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون» رواه ابن أبي حاتم. وذكر الحافظ ابن كثير عن عكرمة قال: «إنهم كانوا يطوفون بالبيت على الشمال» قال مجاهد: «وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته».

أما الزهري رحمه الله: فقد فسّر المكاء والتصدية بالاستهزاء بالمؤمنين، وفسّر عبد الرحمن بن زيد التصدية بالصد عن سبيل الله عز وجل.

ولا تعارض بين هذه الآراء فهم يصفقون ويصفرون مستهزئين بالمؤمنين صادين لهم عن سبيل الله، صورةً عن الجاهلية والعبث الذي لم يدع زيادة المستزيد..

أما بعد: أرأيت إلى هذه العناية بكشف الحقيقة ليكون المسلمون على بينة من أمرهم من خلال الواقع والممارسات العملية فيه، هذه العناية نبصرها في سورة الأنفال سورة الجهاد، وإعطاء كل قضية نصيبها من التقويم، تثبيتاً على الحق، وتصويباً للخطأ.. أليس ذاك دليل النظرة المتكاملة في المنهج الرباني، وأن على المسلمين أن يكونوا على ذكر من العقيدة حين يمارسون مهمتهم في البناء وحين يواجهون تحديات الأعداء، وأن يكونوا على مثل الجبال الرواسي في الانتصار للحقيقة والثقة بما هم عليه ضد الباطل والزيف.

ويكون هذا بعضاً من عطاء الماضي التقليد للحاضر العتيد، حين تُفقه الوقائع بعقول متفتحة وقلوب حاضرة مع الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

ممارسة الواقع.. والقاعدة الإيمانية للعمل

«٦»

لا يعوزك ـ وأنت تصطحب الكلمة الهادية ـ أن تقع على ما كشفت عنه من أن الممارسة العملية في رحلة الدعوة إلى الله وإحكام البناء على قواعدها: كانت من أولئك البررة الأولين بحسبان، جلاءً للحقيقة التي لا بد أن تنعكس دلالتها على مواقف المسلمين من دعاوى الكفار، سيما وأن المسلمين حملة رسالة تنأى بهم عن العبث والتناقض، وتحملهم بشكل تلقائي إلى ميادين المعرفة والجهاد.

ولما كان الاقتناع الفكري لبنة منظورة في مقدمات العمل والتحرك المجدي، فإن القرآن الكريم لم يكتف وهو يردُّ مزاعم المشركين عمارةَ المسجد الحرام، بأن نفى ذلك عنهم، وكشفَ عن تناقض سلوكهم مع ما يدَّعون ويزعمون، وحكم على أعمالهم بالحبوط وأنهم في النار خالدون.. لم يكتف بهذا بل بيَّن بعد ذلك أن العمارة الحقيقية لمساجد الله وراء ذلك، وأن من يعمرونها هم المؤمنون الصادقون، الذين يجمعون إلى الإيمان عبادةَ الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وتجدهم وخشيةُ الله تملأ قلوبهم، ومن أجل ذلك كانوا هم المهتدين.

ذلكم قوله تبارك وتعالى في سورة التوبة: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ أجل: المؤمنون بالله واليوم الآخر والكافرون الجاحدون، والمقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة، لا الذين يطوفون بالبيت عراة وهم يصفرون ويصفقون وفي المجتمع يتظالمون.

والأقوياء الأمناء الذين لا يخشون إلا الله والمتخاذلون العابثون الذين يستخدمون أمام الخرافة والكهانة والأباطيل.

هؤلاء المهتدون هم المؤهلون لعمارة بيوت الله التي قامت على وحدانية الله ونبذ الوثنية والأوثان.

إن إتيان الآية على ذكر بعضِ أركان الإيمان، وبعضِ أركان الإسلام وخشيةِ الله عز وجل: دليلُ الارتباط العملي بين المسجد وبين رسالة المسلم وما الذي يجب أن يكون عليه في حياته الخاصة، وفي علاقته بالمجتمع، وكيف أن ذلك كلَّه لا بدَّ أن تصحبه خشية الله التي يُضمن معها الإخلاص والاستمرار. وإذا نظرنا إلى الواقع من خلال ذلك: أمكن أن نبيّن أمرين اثنين:

أولهما ـ الحرص على أن تأخذ الحقيقة أبعادها عن اقتناعٍ وتبيُّنٍ لما يجب من التوافق بين ما يُدّعى وبين السلوك. وذلك ما نجده في الآيتين الكريمتين في سورة التوبة حيث نفى القرآن عمارة مساجد الله عن المشركين وبيَّن سبب ذلك. وفي المقابل أثبت الشرائط التي لا بد أن تتوافر فيمن يراد لهم أن يقوموا بعمارة تلك المساجد عمارةً حقيقيةً هي صورة عن العقيدة وانعكاساتها على منهج الحياة ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾[التوبة:١٧-١٨] .

فانظر إلى هذه المقابلة في هذا الكلام المعجز الذي يهدي دائماً للتي هي أقوم!

ثانيهما ـ أن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ، والمسلمون اليوم ـ ممثلين في أهل الصلاح والإصلاح ـ وهم يتجهون صوب البناء الحقيقي الشامل، ويشهدون تحسبات الأعداء من تباشير اليقظة، التحسباتِ التي تَخرجُ إلى حيِّز الواقع عدواناً سافراً حيناً، ومُقنَّعاً حيناً آخر.. إن المسلمين وهم يتجهون صوب استئناف المسيرة الخيرة ضمن هذه الظروف والمؤشرات: مدعوون إلى إحكام الربط بين حلقات التاريخ، وإلى مراجعة صحيحة لذلك التاريخ، وخصوصاً تلك الحقبة التي حمل الرعيل الأول فيها عبء البناء، فلقد كان العبء ـ بجانب الاقتناع ـ عملاً دائباً، وجهاداً مستمراً على أرض صلبة سداها ولحمتها العقيدة الراسخة التي تقوم عليها بيوت الله، لتكون روحُ المسجد حياة كل جانب من جوانب الواقع في مسيرة الحياة وخاصية النماء لكل الطاقات التي تتحرك في ظل هذه العقيدة.

من لمحات الإعجاز.. على طريق البناء على القاعدة الإيمانية

«٧»

من لمحات الإعجاز في الكتاب الكريم: أنه كلما أوغل المؤمن في فهمه وتدبر آياته، تبدّى له ما يؤكد أن الهداية في القرآن تستعلي على محدودية الزمان والمكان، وأن معالمها الخيرة هي النورُ الذي يضيءُ المسالك، مهما أحدث التطور من جديد في حياة الناس وممارساتهم اليومية على كل صعيد.

أقول هذا بعد أن وقَفَنا المعلم القرآني الهادي المكين، وفي واحدة من آيات سورة التوبة وهي سورة مدنية كلها، على صفات من يكرمهم الله بعمارة مساجد الله، ذلكم قوله جلت قدرته بعد أن نفى عمارة المساجد عن الكفار: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾[التوبة: ١٨] .

وإذا كنا على ذكر من رسالة المسجد في الإسلام وأنها تتناول فيما تتناوله بالتبليغ والتربية ـ الإعدادَ المتكامل الشامل للفرد والجماعة كي تكون شريعة الله هي المحكّمة في المجتمع.. إذا كنا على ذكر من ذلك وكنا غير غافلين عن واقع المسلمين اليوم.. أدركنا الأهمية البالغة لوصف من يعمرون مساجد الله بالإيمان بالله واليوم الآخر، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وخشية الله وحده دون سواه.

فالمؤتمنون على رسالة البناء التي تشيعها روح المسجد والقائمة على عقيدة التوحيد وأنه لا معبود في الاعتقاد والتشريع وتنظيم السلوك إلا لله عز وجل.. المؤتمنون على هذه الرسالة هم أولئك الذين خالطت بشاشةُ الإيمان قلوبَهم، واقترن العمل في سلوكهم بالإيمان، وكانوا بإيمانهم ونفاذ بصيرتهم أقدرَ من كل المعوقات والصوارف ترغيباً أو ترهيباً؛ لأنهم ـ مع الأخذ بالأسباب ـ لايخشون إلا الله.

والأمة لا تنقضي حاجتها إلى تربية الأجيال وإعدادها على هذه الشاكلة بما يتلاءم مع العطاء الزمني وطبيعة المرحلة، كيما تكون روح المسجد ضياءَ كل خطوة يخطونها على طريق البناء، وقدرةٌ فعالة مؤثرة تنمي الإمكانات المنتجة على كل صعيد، دونما جهل أو تجاهل للواقع خاصّه وعامّه.

وقوله تعالى في خاتمة صفات من يعمرون مساجد الله ﴿ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ يدلُّ دلالة واضحة على الشمول الذي نشير إليه إذ إن الهداية لا تنحسر عن أي باب من أبواب الخير للفرد والمجتمع والأمة في بُناها الروحية والمادية، وما تحتاج إليه من مقومات التمكين في الأرض في ثقافتها وقضاياها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وقدرتها الذاتية على التعامل باللغة المناسبة في حالات السلم والحرب، و«عسى» في القرآن الكريم تفيد التحقق؛ فالقرآن بهذا يشهد لمن توافرت فيهم تلك الخصال أنهم من المهتدين.

إنها ـ كما أشرت من قبل ـ لمحة من لمحات الإعجاز نبصرُها في حاجة الأمة الملحة إلى تطبيق هذا اللون من الهداية في حياته، وهي تبدأ مرحلة جديدة تأتي في أعقاب كثير من المتغيرات في عالمنا الكبير.

*   *   *

المسجد.. والبناء والقاعدة الإيمانية للعمل

«٨»

الارتباط الذي رأينا مؤشراته ـ فيما أسلفنا ـ بين العقيدة وعمارة مساجد الله، بل بين العقيدة والعمل الذي هو من حقها، وبين عمارة مساجد الله كما جاء في سورة التوبة... هذا الارتباط يزيدنا استمساكاً بما ألمحنا إليه في أكثر من مناسبة، وهو ضرورة أن يكون للمسلم طريقته المتميزة في التفكير. وهذا الأمر ليس بدعاً نبتدعه من عند أنفسنا، وإنما هو دلالات النصوص والتطبيق العملي للإسلام بدءاً من الصدر الأول حيث كان رسول الله ﷺ، يبني كلاً من المسلم والمسلمة على هذا التميز في طريقة التفكير والاستقلال في الحكم على الأشياء من خلال العقيدة الراسخة، الأمر الذي يجعل أقوال وأفعال الإنسان المسلم وسائر تصرفاته، صورة عملية لما يمليه التوحيد والعبودية لله عز وجل.

أما العدول عن ذلك: فهو لبس المرقّعيات من هنا وهناك، وذلك من بعض الظواهر المرضيّة في عديد من بلاد المسلمين، حيث ترى التبعية البلهاء، والبعد عن الذاتية وصدق الانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس!!

في ضوء ذلك يتبدى لنا سمو ما دعا إليه النبي ﷺ ـ وهو يبين عن الله ما أراد ـ من بناء المساجد وعمارتها العمارة الحقيقية للعبادة والذكر والعلم النافع، وتهيئة المناخ النفسي والواقعي لتكون شريعة الله هي التي تحكم المجتمع، في كل مناحي الحياة، دونما استثناء، وإنما يتحقق ذلك بأن تشيع روح المسجد في جزئيات البناء وكيانه، وأن توظف بدقة وموضوعية في مناهج الإعداد والتكوين، وتحديد الصيغة الحضارية التي يرتاد المسلمون سبلها في ظل دعوة الإسلام. ففي شأن العمارة المادية للمسجد، روى البخاري ومسلم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله تعالى، بنى الله له بيتاً في الجنة» وفي رواية: «بنى الله له في الجنة مثله»** .

وأخرج الترمذي عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**من بنى لله مسجداً صغيراً كان أو كبيراً بنى الله له بيتاً في الجنة**».

وعند النسائي عن عمرو بن عنبسة أن رسول الله ﷺ قال: «**من بنى لله مسجداً ليذكر الله فيه، بنى الله له بيتاً في الجنة**».

أما بشأن العمارة المعنوية التي من أجلها تبنى هذه المساجد: فمما ورد من الأحاديث بياناً للآية الكريمة التي أشرنا إليها في صدر هذا الحديث، ورد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان فإن الله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ ...الآية**». أخرجه الترمذي وقال حديث حسن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح**» متفق عليه.

ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله كما ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما: «**رجل قلبه معلق بالمساجد**».

ألا إن ذاتية التفكير تقتضينا أن نصوغ مقولة بناء المساجد وعمارتها العمارة الحقيقية ـ بدقتها وشمولها ـ صياغة عملية يحكمها المنهج الرباني، تصل بنا إلى حيث يسهم ذلك في استئناف المسيرة الخيرة ومواجهة التحديات.

* * *

البناء والواقع.. والحقيقة القرآنية في أهمية القاعدة الإيمانية

«٩»

مع كل آية من كتاب الله ـ وعند كل واحد من معالمه ـ تبصر اتصال الحقيقة القرآنية ـ وهي ترسي قواعد الهداية والبناء الخيِّر النافع في كل ميدان ـ بالممارسة الواقعية التي يراد تثبيتها إن كانت تنتسب إلى الصواب، والتحوُّل عنها إن كانت من الخطأ وإليه.

فالحقيقة التي طرحها القرآن في شأن عمارة المساجد، من نفي العمارة المدعاة من أهل الشرك ثم حصرِ العمارة ـ التي لها وزنها عند الله ـ بمن آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة، ولم يخش إلا الله، وبيان أن من كانوا على هذه الشاكلة هم المهتدون.

هذه الحقيقة بشعبيتها نفياً وإثباتاً: صَحِبَها على صعيد الواقع بعضُ الدعاوى، وكان في جواب القرآن عن ذلك مزيد من الوضوح يكفل أن تأخذ الحقيقة وجودها العملي في حياة المسلم، وهو يعمر الأرض ويعمل على أن تكون كلمة الله هي العليا.

ذلك بأن رسالة الإسلام التي يأتي المسجد في مقدمة ما يجب عمله لتحقيقها ـ كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام فور حط الرحال في المدينة بعد الهجرة ـ تدعو إلى ما يحقِّق سريان روح المسجد في كيان المجتمع ومؤسساته الثقافية والاجتماعية والسياسية وغيرها؛ الأمر الذي يحول دون أن يكون خطاب الدعوة الإسلامية ـ وهي تعلي شأن المنهج الرباني ـ كلماتٍ مجردة تذروها الرياح، ولكن بناءً واضح المعالم ثابت الأركان، هو على وجه اليقين، ترجمة لمضمونات ذلك الخطاب

إلى واقع حي يصحبه وضوح الرؤية في جميع الميادين، واقع يكون من ثمراته ما يجب من إحكام بناء الفرد والأسرة والمجتمع إحكاماً يتحقق معه أن يكون القدر المشترك على هذه الساحة: عنواناً على صورة عملية لتلك المضمونات.

ولعل من الخير أن نعرض لواحدة من تلك الدعاوى التي سلفت الإشارة إليها، وموقف القرآن منها.

فبعد الآية التي كنا بصددها من سورة التوبة، والتي اختتمت بقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

إن رسالة البناء المرضيِّ لله ولرسوله في الإسلام تقتضي أن يكون العمل قائماً على عقيدة التوحيد ـ كما أسلفنا من قبل ـ؛ ولذلك آذنت الآيات أن بنفي أن تكون الأعمال المبتورة عن تلك العقيدة في حيز القبول عند الله؛ إذ المقبول عند الله وراء ذلك، فقد روى أهل التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل هذه الآية ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾[المؤمنون:٦٦-٦٧] .

يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم؛ لقد كانوا يسمرون به، ويهجرون القرآن والنبيَّ ﷺ.

فأوضح لهم ولغيرهم أيَّ الأعمال خير، وخيَّر الإيمان والجهاد مع النبي ﷺ على عمارة المشركين البيتَ، وقيامهم على السقاية.

وأكَّد أن ذلك كلَّه لم يكن لينفعهم عند الله مع الشرك به، وعبادة الأوثان من دونه، وتحكيم الأهواء وعوادي الجاهلية في حياتهم، وإن كانوا يعمرون بيته ـ سبحانه ـ ويحرمون به ﴿ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[التوبة:١٩] .

والظالمون هم أولئك الذين زعموا أنهم أهل العمارة.

وكان من إعطاء القضايا حدودها الصحيحة، وأبعادها الممتدة هنا وهناك قطعاً لدابر التخالف بين الأسماء والمسميات: أن سماهم ظالمين بشركهم؛ من أجل ذلك لم تغن عنهم تلك العمارة المقطوعة عن الإيمان شيئاً، ويوم القيامة يردُّون إلى أشد العذاب.

* * *

القاعدة الإيمانية.. وإقامة الحجة على المشركين.. والبناء

«١٠»

قضية الحوار التي حملتها إلينا معالم القرآن الكريم لتبيين الحقائق وجلائها من خلال الرد على أباطيل المشركين وأعداء الإسلام ـ عموماً على تعدد الصور والألوان ـ بالحجة الدامغة والسلطان المبين؛ هذه القضية كان لها دورها في التحول الجذري الذي طرأ على الإنسان يوم خوطب بدعوة الإسلام وأسعده الله بحسن الاستجابة لها.

وإنما كان ذلك: لأن كل نقض لما كان عليه أهل الشرك وما هم عليه دائماً في مختلف العصور والبيئات، في مجال البنية الفكرية عند الفرد والجماعة، أو في مجال البنية المادية وعناصر التكوين في المجتمع.. عروة مباركة قوية في سلسلة التكوين الثقافي والفكري عند المسلم، ناهيك عن أنه يعني لوناً من ألوان الانتصار للإنسان ورسالته الخيرة في البناء الذي لا ينأى عن الفطرة ولا يعوزه مع كل اللبنات المادية: استمساكٌ بإنسانية الإنسان، وتحكيم أخلاقية العقيدة في سلوكه ومراعاة الحوار النقي السليم.

ولقد كان من آثار ذلك عند أولئك الذين حملوا عبء البناء على أنقاض الجاهلية بكل مقتضياته وما يولّد من تبعات.. كان من آثار ذلك عندهم مزيدٌ من تحرر المسلم من أوضار تلك الجاهلية وعقابيلها، وتنميةٌ لقدرته الذاتية في التفكير وسعة الصدر، والحرص على سلامة المنطلقات ووضوح الغاية.. نتيجة تحرره من الخضوع! إلا لله عز وجل.

وعلى صعيد الحركة ووضع المبادئ موضع التطبيق: تبع ذلك تهيئة المناخ المناسب، كيما يسير المجتمع في الطريق الآمنة لبناء وجود ذاتي قوي، بعيد عن عناصر الهدم التي تنطوي عليها الجاهلية في الثقافة والاجتماع والاقتصاد، وكل ما يمت إلى ذلك بصلة.

وأقرب النماذج لهذا الذي قلناه في مقدمة الحديث ما جاء في سورة التوبة ـ كما رأينا من قريب ـ من رد لواحدة من دعاوى المشركين وإنكار ذلك عليهم وهو قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

لقد صُدِّر هذا الرد على المشركين بالاستفهام الإنكاري «أجعلتم» وهذا الاستفهام الإنكاري يشي باستثارة للعقول، إن كانت هنالك عقول!!

فكيف تستوي سقاية الحاج ـ أي الحجيج ـ وعمارة المسجد الحرام على أساس من الشرك والجحود برب البيت الحرام الذي رفع إبراهيم عليه السلام قواعده ليكون مثابة التوحيد.. كيف يستوي ذلك مع الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله..

هذا على تأويل من ذهب إلى أن «من آمن» تعني إيمان، من آمن، وذهب البعض إلى تأويل المصدر باسم الفاعل ويكون المعنى: أجعلتم ساقي الحاج عامر المسجد الحرام بلا عقيدة صحيحة، كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سيبل الله؟!

وحظ الفئة المؤمنة التي تضرب في أرض البناء تحقيقاً لرسالة الإسلام: حظٌّ كبير من جلاء هذه الحقيقة وأمثالها، فمعالم القرآن يستعلي ضياؤها على التحديد لأنها من كلمات الله وكلمات الله لا تنفد والله الموفق.

* * *

المخالفة عن القاعدة الإيمانية الظالمون.. والبناء

«١١»

في الآية الكريمة التي أسعدنا ضياؤها على ساحة التقرير الإيماني واستثارة العقل لمعرفة الحقيقة: بجانب نعيها على المشركين جعلَهم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بلا عقيدة: كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله..

في هذه الآية بجانب هذا الإنكار رداً لتلك الدعوى.. تحريكٌ للملكات الفاعلة أن تعمل عملها، وزناً للأمور ووضعاً لها في نصابها الصحيح.

ولذلك ـ والله أعلم ـ جاء بعد الاستفهام الإنكاري في قوله جلت حكمته: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾. قوله سبحانه: ﴿لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾ تقريراً واضحاً لهذه الحقيقة بنفي التسوية المدّعاة، وختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

لا يستوون عند الله، ومن سلامة العقل وحسن استخدامه أن يَحكُمَ بأنهم لا يستوون، قد يحكم بالتسوية ـ بل حكم بها ـ أولئك الغافلون الذين لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها. ولكن حكمهم شيء والحقيقة الناصعة شيء آخر.

الإيمان بالله، حيث التحرر من عبودية العباد والخضوع لجماد أو حيوان وما إليهما مما يصنعه العابد نفسه أو يُصنع له أو يُدَلُّ عليه.. وحيث التساوق مع الفطرة، والاستمساك بعرى الكرامة الإنسانية، والمعزة التي تحرِّم العبودية إلا لله.

والإيمان باليوم الآخر؛ حيث تتحقق العدالة المطلقة، وتجد كل نفس ما كسبت، ويسعد المؤمن بحوافز العمل الصالح كداً ودأباً بما ينفع نفسه ومجتمعه وأمته.. ناهيك عن كون هذا الإيمان نتيجة طبيعية للإيمان بالله.

والجهاد في سبيل الله؛ وما أدراك ما الجهاد في سبيل الله، برهان الصدق، ودليل الإيمان، وطريق تحقيق البناء الذاتي للأمة، وحارسها ضد العاديات..

هذا كله على ساحة الإيمان والجهاد!! هل يستوي مع أي عمل مهما كان شأنه حين يكون مبتوراً عن العقيدة الصحيحة، بل هو ذو نسب إلى تلك الكلمة الخبيثة التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾[ابراهيم:٢٦]، وإذا كان العمل ذا نسب إلى الكلمة الخبيثة: فهو عند الله من نوعها، لأنه عديم الأصل، مقطوع عن العقيدة التي تضعه على طريق الغاية الحقيقية للحياة، وتجعل له ثقيل يوم توزن الأعمال بالقسطاس المستقيم عند الله.

فالكلمة الخبيثة كتلك الشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الأرض فما لها من جذر ولا قرار.

وهذا النوع من الأعمال: كذلك مجتث مبتور ماله من وزن ولا قرار.

من أجل ذلك ختمت الآية بعد التقرير الحاسم بخبث تلك الكلمة من طريق هذا التشبيه الواضح.. ختمت بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

لقد فتحت أمامهم أبواب الهداية فأعرضوا، وأقيمت لهم الأدلة فتعنتوا وجَحَدوا وذلك ظلم ما بعده ظلم، وإن الشرك لظلم عظيم والله لا يهدي القوم الظالمين.

إن هذا العطاء من خلال الحوار في الآية: قائم لنا ولمن بعدنا كما كان لأولئك الذين ارتادوا للإنسانية الطريق، طريق البناء السليم الذي لا ينقض على رؤوس أصحابه؛ لأنه لا يحمل بذور هدمه ونقضه ولكن يحمل مقدِّمات استمراره ودوام إحكامه بعون الله رب العالمين .

سلامة المقاييس.. على سلم البناء

«١»

لم يكن عجباً من العجب ـ والمشركون مقيمون ومقعدون على عبادة الأوثان والإعراض عما دعاهم إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام من الإيمان والتوجه وجهة السلامة في البناء والبعد عن فوضى الجاهلية.. لم يكن عجباً من العجب ـ والأمر كذلك ـ أن يكون حكمهم على الأعمال امتداداً لهذه الخلل الفكري والسلوكي الذي يلف حياة الفرد والمجتمع.

غير أن الله تبارك وتعالى ـ وهو الرحيم بعباده ـ كان ينكر عليهم ما هم فيه، توجيهاً لهم إلى الصراط المستقيم، وتبياناً للناس عموماً ما هي مقاييس الخير والأعمال المقبولة عند الله، وما هي مقاييس الشر والأعمال التي لا وزن لها عند الله.

ومحور ذلك كله: أن تكون عقيدة التوحيد أساس البناء والمقوِّم الأول من مقومات النماء. ومن هنا كان ما رأيناه في سورة التوبة من الإنكار على هؤلاء المشركين جعلهم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله. علماً بأنهم يعملون ما يعملون وهم على شركهم مقيمون مقعدون، يصحب ذلك استكباراً واستعلاء على الآخرين، يدلان على أن النية الخالصة ليست من عملهم في شيء.

وما دامت القضية ترتبط بمقاييس تتصل بوحي السماء؛ فهي نور لا ظلام فيه، وصفاء لا غبش ينتمي إليه: فأجدر بأمتنا اليوم أن تكون تلك المقاييس نصب الأعين عند تحديد المنطلقات وعند تقويم عمل الآخرين..

يحملنا على هذا التذكير: أن قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾... الآيات لم تقتصر أبعاده على العهد المكي، بل

كانت له حتى في العهد المدني بعض الظلال؛ فقد أقبل المسلمون ـ كما روى الطبري ـ على العباس وأصحابه الذين أُسِروا يوم بدر يعيِّرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونفك العاني، ونحجُّ البيت ـ ونسقي الحاج ـ أي الحجيج ـ فأنزل الله ـ كما يقول العلماء ـ ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يعني أن ذلك كان في الشرك، ولا أقبل ما كان في الشرك.

لقد خرجت الفئة المؤمنة وهي قليلة العدد والعُدَّة تقاتل في بدر تحت راية لا إله إلا الله، وخرج المشركون يقاتلون، عدواناً على الحق وبطراً ورئاء الناس تحت راية الشرك والعناد.. هذه هي الحقيقة.. فماذا عسى أن تصنع تلك الأعمال التي يقومون بها وهم على هذه الحال من معاداة الله ورسوله والمؤمنين؟!

إنها لن تصنع شيئاً ينفعهم عند الله ما داموا معرضين عن الحق يحاربونه وأهله ويعملون على هدم ما تريد أن تبنيه يد الإنسان الذي أشرقت في نفسه عقيدة التوحيد.

إنه الدرس البليغ الذي يجب أن يعيَه كل أولئك الذين يرتادون لأمتهم المسالك التي يستكمل من خلالها البناء، وتوضع الطاقات البشرية بأنواعها والثروات المادية موضعها الطبيعي الذي يجعلها في نماء يضاعف ـ على المدى ـ قدرة الأمة الذاتية، ويزوِّدها بما تحتاج إليه في رحلة المواجهة التي تطلع كل يوم بجديد.

وأقول: الدرس البليغ لأن أسباب نزول الآيات تشعر بأن الأمر مرتبط بالأصول التي يجب أن تكون ملحوظة عند أولئك الذين تؤرقهم هموم الأمة في كل عصر، كيما يتابعوا الطريق حتى يتحقق نصر الله لأهل الإيمان من جديد. فقد أخرج مسلم وأبو داود وعبد الرزاق في مصنفه وغيرهم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رجلاً قال: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم. فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلتُ

على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل فأنزل الله عز وجل: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ..إلى قوله: ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

هناك إنكار على المشركين وهنا إنكار على بعض المؤمنين ولكن أين هذا من ذاك، وهل تستوي الظلمات والنور؟!

* * *

سلامة المقاييس على سلم البناء

«٢»

تعدد الروايات في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾... الآية: لا يقلل من الأهمية القصوى لارتباط العمل بالعقيدة الصحيحة، وضبط المعايير في منطلقات البناء وتوجيه الكفايات على أساس من هذه القاعدة العريضة سيما وأن ذلك على خط سواء مع وجوب أن تعمل الأمة دائماً على توفير الكفايات العلمية والعملية في كل ميدان من ميادين البناء الذي تقتضيه رسالة الإسلام، الرسالة التي توجه أبناءها إلى أن يتمثلوا دائماً قوله تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[القصص:٧٧] .

أقول: تعدد الروايات لا يقلل من تلك الأهمية؛ لأن الروايات المرتبطة بمفاخرة المشركين يصنعون، وزعمهم أن صنيعهم المبتور عن عقيدة التوحيد يساوي الإيمان بالله والجهاد في سبيله، تلك الروايات تسير في اتجاه واضح لتبيان الحقيقة الأولى من حقائق البناء على صعيد الإنسان، وعلى صعيد المجتمع الذي يناط بالإنسان أن يرفع قواعده في الثقافة والاقتصاد والاجتماع وما إليها .. هذه الحقيقة أن العمل المرضيّ عند الله هو العمل المنبثق عن العقيدة الصحيحة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

أما الرواية التي تتحدث عن أن رجلاً من المسلمين قال: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وأن آخر قال: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم، فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله

ﷺ وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا على النبي ﷺ فسألناه، فنزلت: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

أما هذه الرواية: فتضع المسلمين ـ وهم مؤمنون بالله واليوم الآخر ـ تضعهم على الجادة في تحديد القيم والمعايير ليكون سلوكهم العملي في صوغ الحياة، وفق الرسالة التي آمنوا بها منهج حياة من عند الله عز وجل.

ومن هنا منعت الآية أن يقعد القادر عن الجهاد بالنفس والمال متذرعاً بأنه يعمر المسجد الحرام أو يسقي الحاج؛ فالذي قاله الرجل الأول من أنه لا يبالي أن لا يعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن يسقي الحاج..

والذي قاله الآخر من أنه لا يبالي أن لا يعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن يعمر المسجد الحرام، كلا القولين فيه عزم على خير، ولكن بانحسار عن ساحات العمل والجهاد ـ مع القدرة ـ والاكتفاء بالتحرك المحدود.. إن الآية لا تبعث على الاستهانة بالعمارة أو السقيا، ولكنها توجه المسلمين ـ وهم يحملون أمانة البناء على أنقاض جاهلية يعانون من رواسبها في حياة الفرد والمجتمع، وفي جو عالمي مثقل بطغيان الوثنية وإهدار كرامة الإنسان.. ولكنها توجه المسلمين ـ والأمر كما وصفنا ـ إلى أن الجهاد بمقدماته وحوافزه، وحقيقته العملية بذلاً وتضحية في سبيل الله لا بد أن يكون في مقدمة الأولويات التي تستأثر بالاهتمام. فالإنكار هنا حفز إلى علو الهمة وبيان لقيمة الجهاد؛ لأن عمل المؤمن ـ أياً كان شأنه ما دام قائماً على العقيدة له وزنه عند الله، ولكن أمة يكرمها الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس ويضعها على الطريق النيرة في بناء حضارة الإنسان، هذه الأمة لا بد أن تكون الأمة المجاهدة قبل كل شيء علماً، بأن الجهاد في سبيل الله لا يقتصر خيره على المسلمين، بل يعمّ غيرهم؛ لأنه نصرة للتوحيد والحق وإنسانية الإنسان بعيداً عن أي اعتداء أو ظلم

الأمـر، الذي يذكـر بقـوله جل شـأنه في أعقـاب الآية التي أضـاءت بالإذن بالقتـال: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[الحج: ٤٠] .

وعلى صعيد الواقع لابد للجهاد اليوم من العقيدة والعلم وتنمية كل الطاقات الفاعلة التي تكون ذاتية الأمة وقدرتها على صنع قرارها بنفسها دون وكس ولا شطط، وهي على طريق الدعوة إلى الله وتحقيق الخير للجميع.

* * *

الإيمان.. ومقاييس البناء الحضاري

«٣»

في متابعة لما سلف من القول في هدي المعلم القرآني في سورة التوبة، نعود إلى مزيد من الاستنارة بالآية الكريمة التي بدئت بقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ وختمت بقوله جل جلاله: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾لنؤكد أن عطاءها متسق تمام الاتساق مع رسالة الأمة المحمد ية التي لا تستوي على سوقها في ميدان العمل والتطبيق، لتكون هي التي تنشىء الواقع: إلا بأن تتوافر لهذه الأمة عناصر الأمة المجاهدة كيما تكون بحق جديرة بالخيرية التي حملها قول ربنا في محكم كتابه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران:١١٠]

فكما أنكر القرآن على المشركين دعواهم التسوية بين أعمالهم ـ وهم على شركهم ـ وبين الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله: أنكر على بعض المؤمنين أن يغفلوا عن سلم الأولويات في رحلة البناء التي تتجاوز كل الحدود الصعبة، لتكون رحلة البناء للإنسانية كلها في ظل عقيدة التوحيد.. أنكر على بعض المؤمنين أن يغفلوا عن ذلك ـ إنكار الدفع إلى ما هو الأفضل على سلم الأولويات ـ وظهرت حقيقة ما ذهب إليه من قال: بل الجهاد أفضل كما في رواية النعمان بن بشير عن أولئك الذين تكلموا عند منبر رسول الله ﷺ وزجرهم عمر رضي الله عنه عن رفع الصوت ووعدهم بأن يستفتي رسول الله ﷺ بعد صلاة الجمعة فيما قالوه.

وحين نصحو على واحدة من أبجديات رسالة الإسلام من أنها هي التي يجب أن تنشىء الواقع وترسم حدوده وأبعاده، وإذا واجهته تنظر إليه من خلال قيمها لترقى به إلى ما هو الأفضل. حين نصحو على هذه الأبجدية ندرك أن إنشاء حضارة الإنسان على هدي عقيدة التوحيد التي تنشد التكامل والتوازن في بنية الإنسان وفي بنية المجتمع: نتيجةٌ طبيعة لوضع الهداية القرآنية في معالمها الخيرة موضع التطبيق

العملي حيث يكون الإسلام ـ فعلاً ـ هو منهج الحياة الذي تصاغ حياة الفرد والجماعة وفق كلياته وجزئياته بحيث لا ينعزل أيٌّ من الميادين العلمية والعملية ولا كلُّ ما فيه تنمية القدرة الذاتية للأمة: عن أن يكون مصحوباً بما يخصه من ذلك المنهج على شكل موضوعي تتوافر له النية الخالصة والتخطيط المنهجي الدقيق.

من هنا ندرك حكمة تفصيل القول في أفضلية الإيمان والهجرة والجهاد في سنن لله بعد الآية المشار إليها في سورة التوبة، حيث قال الله تبارك وتعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

الأمة المجاهدة: هذا التعريف المشرق المبارك هو الذي يجب أن يكون التعريف ذا المدلول الصادق النيِّر لأمة شاء الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس، وجعلها أمة وسطاً تشهد على الناس..

وتغيير واقع الأمة أمام تحديات لا يرعوي أصحابها. منوط بأن يَعود المسلمون إلى صدق الانتماء، فيكونوا أمة مجاهدة بالمعنى الحقيقي، وليس هذا فحسب، بل إن الإنسانية قد طال انتظارها لعودة أمة محمد بن عبد الله عودة واعية مظفَّرة تقضي على ما أصاب ويصيب الإنسان من هرج ومرج، كما تضع حداً للعدوان على المسلمين في عقيدتهم وأرضهم وثقافتهم.. تضع حداً لهذا الاعتداء الصارخ على الحق والحرية وكرامة الإنسان من أولئك الذين يزعمون أنهم حماتها، فباسم الإنسان بهموم الإنسان، وتحت الشعارات الحضارية، ودعاوى الديمقراطية: تنتهك حرمات الشعوب، ويُقضى على المد الحضاري المتوازن البعيد عن العَرَج، وباسم الحقوق والحريات تغتصب الحقوق، وتصادر الحريات.

إن الآيات الكريمة تقود هذه الأمة ـ وهي تحاول أن تستكمل بناء وجودها الذاتي من جديد ـ .. تقودها إلى أن تكون الأمة المجاهدة للعدو الداخلي من داخل النفس، والعدو الخارجي لا من أجل نفسها فحسب ولكن من أجل الإنسانية جمعاء في مواجهة أعداء الإنسانية والحق والحرية كائناً من كان المظلوم الذي تنوشه سهام المؤذين الذين تكذِّب تصرفاتُهم دعاواهم المتحدة على الزخرفة والافتراء والتمويه!!

الرسالة الإنسانية.. والبناء الحضاري

«٤»

كان مما أشرنا إليه من قريب: أن الأمة المسلمة عندما تستأنف طريقها لتكون المجاهدة بحق ـ على ما لهذه الحقيقة من شمول ـ لا تكون وفية لنفسها فحسب، ولكن تكون وفية للإنسانية كلها؛ لأن رسالة الإسلام رسالةٌ إنسانية تستعلي على الحدود والقيود. ونحن نرى في عصرنا الحديث ـ بجانب النكبات التي تلم بأمتنا من هنا وهنا ـ عَرَج الحضارة المادية؛ لأنها أهملت وتهمل الحقيقة التي يجب أن يقوم عليها البناء الحضاري بشقيه المادي والروحي مدنية وثقافة. لقد أهملت العقيدة التي تضمن سلامة المنطلق في التفكير والثبات في كريم الأخلاق، وسلامة الحركة في الإفادة من تسخير الكون للإنسان كما أراد الله تعالى، كما تضمن لوناً من التكامل والتوازن ـ في بنية الإنسان وعلاقته بالكون والحياة ـ يباعد بين تلك الحضارة وبين أن ينمو جانب على حساب جانب آخر، وأن تضيع القيم في غمرة التسابق على المادة، والأثرة في السلطان والتحكم في مصائر الشعوب.

وغير خافٍ أن الحضارة التي تهمل الجانب الروحي، تُضيع الإنسان الذي هو عمدة الأمر وعماده ـ كما أراد الله ـ وفي الوقت نفسه تجعل منه مخلوقاً يستخدم منجزات الحضارة المادية ومعطيات العلم التقني فيما لا يجوز استخدامها فيه من الأذى وطغيان الإنسان على أخيه الإنسان. ناهيك عن فقدان الشعور بالسعادة مبتغى الجميع.

وبذلك تختل القيم، وتهتز المعايير، وتصبح الجماعات البشرية في وضع لا تغبط عليه؛ لأنها نهب مقسَّم بين ظالم ومظلوم. أجل تصبح تلك الجماعات في وضع لا تغبط عليه، مهما توافر لها أو لبعضها من وسائل الترفيه ومظاهر الحياة المادية بألوانها وأشكالها.

وتعدد المكاييل عند أكبر قوة دولية مسيطرة اليوم لا تخفى!!

من هنا يجد المرء نفسه مشدوداً إلى معاودة النظر في تلكم الآيات التي في سورة التوبة استجلاءً للغرض الذي من أجله ـ والله أعلم ـ كان تأكيد فضيلة أولئك الذين جمعوا إلى الإيمان هجرةً إلى الله ورسوله، وجهاداً في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم؛ فهم أعظم درجة، ولهم مالهم في الآخرة من النعيم المقيم في جنات الخلد يفوزون به عند أحكم الحاكمين! ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

الإيمان والهجرة إلى الله ورسوله قبل فتح مكة، والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، هذه الأمور العظام على ساحتي الدعوى والعمل: كانت شاهد صدق على أن الإيمان قد خالطت بشاشته القلوب، وبرهاناً يقينياً على حال من القيام بمقتضياته سمت بأصحابها ليكونوا أعظم درجة عند الله.

وليس هذا فحسب، بل ختمت الآية بأن جعلتهم هم الفائزين بما توافر لهم من الإيمان الصادق ومستلزماته، قال تعالى: ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾.

وما أحيلاها بشارةً كريمة من ربهم سبحانه برحمة منه ورضوانٍ وجناتٍ لهم فيها نعيم لا ينقضي، وهم خالدون في هذه الجنات أبداً.

وذلك كله أجر من الله الكريم المنان؛ لأنه جل وعلا عنده أجر عظيم ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ألا ما أكرم هذه الحوافز التي تنشئها العقيدة، وما أعظم ما تدفع بأصحابها إلى ميادين البذل والعطاء على كل صعيد؛ لأن ما عند الله خير وأبقى، والله تبارك وتعالى قد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن.

إن انطلاق الأمة في ميادين العلم والبناء ـ بكل مضامينه ومفهوماته ـ إعداداً للقوة واستعداداً للجهاد في سبيل الله: هو المؤشر الفيصل بين مرحلتين؛ لأنه يعني أن الأمة قد بدأت تضع أقدامها على الطريق، لا من أجل أغراض دنيوية قريبة يلهث وراءها المتبطلون، أو اعتداء وتجاوز للحق وإنسانية الإنسان ولكن لله وفي سبيل الله، وذلكم وحده أبداً إيذان بانتصار الحق على الباطل في النفوس، وهو الخطوة الأولى للانتصار العظيم في الداخل والخارج، في تحقيق للوجود الذاتي الذي يضمن استقلالية القرار، وسلامة الوجهة معاً تلبَّدت غيوم الفتن وتداعيات السوء. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

والله غالب على أمره ولكن كثيراً من الناس لا يفقهون.

* * *

أولو الألباب.. والبناء.. وسورة الرعد

«١»

آيات سورة الرعد التي أسعدنا بدء اصطحابها فيما سبق، والمبدوءة بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩] تؤذن بصورة واضحة ـ كما سلفت الإشارة ـ إلى أن من جرى وصفهم في هذه السورة بأنهم أولو الألباب ـ العقول الراجحة ـ من عيون ما تزدان به خلائفهم: أنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل؛ وما من ريب في أن «صلة الأرحام» تأتي في مقدمة ما يعنيه قول الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ [الرعد: ٢١].

غير أن الذي يوحي بمزيد من التأمل: أن الصفة المشار إليها، جاءت ـ كما سبق ـ ضمن مجموعة من الصفات السنيَّة المباركة التي يتصف بها أولئك المؤمنون، ولها مالها من السلطان على سلوكهم في علاقتهم بالعباد ورب العباد!

وجميل أن نتنبه إلى أن ذكر تلكم الصفات جاء بعد الذي صدرت به الآيات التي اشتملت عليها ـ كما رأينا ـ من قوله جل وعلا: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾.

فالذين يتذكرون هذه الحقيقة حقيقة أنهم يعلمون أنه لا يستوي من يعلم أنما أنزل إلى النبي ﷺ من ربه الحق ومن هو أعمى والغ في البعد عن الحق: هم أهل العقول الراجحة.

وبسبب من هذا التذكر الذي يفضي إلى العلم بهذه الحقيقة، جاء إسناد صفة أولي الألباب إلى هؤلاء العقلاء بصيغة الحصر وذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾.

وعلى سنن الأسلوب القرآني المعجز: جاء بعد ذلك ذكر تلك الطاقة من صفاتهم فقال تعالى في السورة نفسها: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾.

إن مجتمع العقيدة التي تحرر الإنسان من العبودية لغير الله، وتحرر العقل من إسار الجاهلية والتقليد الأعمى، ذاك الذي كان من مهمة النبي ﷺ إرساءُ قواعده: عماد وجوده الحقيقي المثمر: أولئك الذين يحملون تلك العقيدة بصدق، وينطلقون على هديها، عملاً بحقها في الحياة، فيملؤون بكفاياتهم، وأمانتهم على نور من الله عز وجل وتقواه، كل ميادين العمل والبناء. وتراهم ـ وهم في ذلك كله ـ على بصيرة من أمرهم، ويقظة عقلية علمية في تصرفاتهم تضمنان ـ بعون الله ـ جودة ما ينجزون مما يجب إنجازه، والبعد عن مزالق الانحراف.

ولذلك قررت الآية الآنفة الذكر أنه لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي أنزل إلى الرسول ﷺ من ربه هو الحق الذي لا مرية فيه، ولا لبس ولا اختلاف؛ بل هو كله حق يصدِّق بعضه بعضاً، لا يضادُّ شيء منه شيئاً آخر﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النساء:٨٢] .

فأخباره كلها حق بعيد عن شائبة الباطل، وأوامره ونواهيه وتكاليفه كافةً عدل لا عول فيه، كما جاء في سورة الأنعام: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الأنعام:١١٥] أي صدقاً في الأخبار. وعدلاً في الطلب؛ فكل ما أخبر به فحقٌّ لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر فهو العدل لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل.

أجل لا يستوي من استشرف قلبه إلى الهدى، وعقله إلى معرفة الصراط السوي، فتحقَّق صدقَ ما جئتَ به يا محمد.. ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير، ولا يفهمه، ولو فهمه ووعاه، ما انقاد له، ولا صدَّقه ولا اتبعه، بل أصرَّ على عناده وكفره. وأين عاقبة هذا من عاقبة ذاك؟! وصدق ربنا جل شأنه مخبراً عن عدله المطلق في ذلك فيقول: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[الحشر:٢٠]

وليس من نافلة القول هنا: أن نزيد الأمر وضوحاً بالتذكير مرة أخرى بآية سورة الرعد مفتاح المسألة المطروحة في المعلم القرآني وهي قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾....الآية. حيث نرى من عطائها نفي التسوية بين الاثنين من طريق هذا الاستفهام التقريري الإنكاري؛ أي أفهذا كهذا؟ لا استواء!!

إن رسول الله ﷺ الذي كان يضيء للإنسانية طريقها بهذا الدين بلاغاً وبياناً، لم يكن همه أن يجمع أكداساً من البشر، لا تعي رسالة الإنسان في الحياة، ولكن همُّه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن يزيل الغشاوة عن الأعين، وتلك الحجب الجاهلية الكثيفة عن العقول والقلوب، ويقدم للدنيا كلها إنسان العقيدة الخالصة، الذي يقوى على بناء الحضارة المثلى لبني الإنسان؛ ولذلك ـ والله أعلم ـ ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ ﴾.

أي إنما يتعظ، ويعتبر، ويعقل سوء ما عليه الناس من أمور الجاهلية، وما يجب أن يكونوا عليه حيث تشرق شمس الإيمان، وتتحرك العقول، وتنطلق الكفايات على طريق الحق.. إنما يفعل هذا أولو العقول السليمة الصحيحة على هدي ما جاء به من أنزل عليه الحق من ربه محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. وذلكم هو التذكُّر الحقيقي الذي يجمع أطراف السليم والعمل السليم.

لقد كانت هذه الآية مؤشراً واضحاً على طريق التغيير الذي أراده صاحب الرسالة الخاتمة صلى الله وسلم وبارك عليه، وهو يمزق بالهداية المستنيرة ظلام القرون في حياة الفرد والأسرة والمجتمع في أصقاع الأرض.

فالقادرون ـ بتوفيق الله ـ على أن يكونوا من جند تلك المهمة الكبرى: هم أولئك الذين يضعون أقدامهم على الطريق الصاعدة، بقلوب متفتحة إلى الخير، وعقول تتجاوز التبعية البلهاء والتقليد الأعمى ـ ولو كان المتبَّعون لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ـ ولديهم من الشجاعة الذاتية ما يجعلهم ـ وهم ينصرون الحق ويحرسونه ابتغاء مرضاة الله ـ أن يدوروا مع هذا الحق حيث دار، مهما كلفهم ذلك من ثمن، والله معهم ولن يَتِرَهم أعمالهم.

أولو الألباب.. والبناء وسورة الرعد

«٢»

حين نصحب مع المعلم القرآني أولئك البررة الذين أشار إليهم على سبيل الحصر بـ «إنما» قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ نعلم يقيناً أن الذين لا يتذكرون ليسوا من أولي الألباب؛ لأنهم لو كانوا عقلاء ـ كما ينبغي ـ لاستشرفوا إلى الحقيقة وانشرحت صدورهم لما جاء به محمد ﷺ من الهدى والبينات من ربه، حيث كان يقيم لهم مالا قِبَل لهم برده من الأدلة الناصعة على ما يقول.

ويقتضينا الحرص على الاستنارة بهدي المعلم القرآني ـ وقد ذكرت جملة مباركة من صفات أولئك الذين سما بهم التذكُّر لأن يكونوا أولي الألباب ـ: أن نتابع الرحلة العجلى التي بدأناها مع تلك الصفات التي ازدان بها سلوكهم، وهم يؤدون أمانة الريادة على طرائق الخير، ويمتثلون أمر الله ورسوله بأن يكونوا ساعد التحوُّل في حياة الفرد والجماعة إلى ما هو الأفضل والأقوم سبيلاً.

يقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ إنهم ـ وهم يحملون عبء المهمة الكبرى في تحويل طريق الأمة من الجاهلية إلى الإسلام في الميادين كلها عقيدةً، وتشريعاً، وسلوكاً وأخلاقاً، ويعملون على أن يرقَوا بها إلى مصافِّ القيادة والكلمة الذاتية المسموعة.. إنهم ـ وهم يفعلون ذلك ـ: لا يزيفون ولا يخونون، بل يوفون بعهد الله، فيطيعون ويبذلون، ويلتزمون، ولا ينقضون الميثاق.

أجل لا ينقضون الميثاق الذي أعطوه من أنفسهم لله ولرسوله بأن يؤدوا حق الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وحق «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» لا ينحسر عن جوانب من جوانب الحياة؛ لأن هذه الكلمة الطيبة بدلالتها وأبعادها: منهج حياة يشرق في كل ما هو من صلاح الدين والدنيا والآخرة.

هكذا يتسم هؤلاء المؤمنون الصادقون ـ بما تفضل الله به عليهم من استنارة العقول وصفاء القلوب ـ بالوفاء بعهد الله وعدم نقض الميثاق؛ فهم ليسوا كالمنافقين الذين إذا حدَّث أحدهم كَذَب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا ائتمن خان؛ فضلاً عن خيانتهم للكلمة التي تنطق بها ألسنتهم، وتكفر بها قلوبهم، ويجفوها سلوكهم ـ والعياذ بالله ـ؛ فكلمة التوحيد «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» في واد وهم في واد. وبهذا كانوا بنفاقهم أبعد ما يكونون عن الانتماء إلى أولي الألباب.

بل إنهم عبء على الأمة، يعوقون مسيرتها على دروب الهداية والتمكين، ويشكلون بؤرة من بؤر الضعف الذي ما لها بد من معالجته الحازمة في حياتها.

ثم إن المؤمنين الصادقين الذين هم بحقٍ أولو الألباب: يسهمون في أن يكون البناء الاجتماعي سليماً معافىً قادراً على الاستمرار المنشود؛ لأن الجماعة في هذا المجتمع المبتغى يسودها التعاون على البر والتقوى والتكافل والتضامن؛ فأبناؤها يصلون ما أمر الله به أن يوصل، من صلة الأرحام، والعمل على إنقاذ البائسين والمحاويج، وفعل المعروف بشتى أبعاده، مهما كلف ذلك من ثمن ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾.

إنهم يفعلون ذلك كله عن طيب نفس، وانشراح صدر امتثالاً لأمر الله تعالى راجين منه القبول.

وتراهم يخشون ربهم ظاهراً وباطناً، سراً وعلانيةً، فيما يأخذون وفيما يذرون من الأقوال والأفعال وسائر التصرفات، ويراقبونه ـ جل وعلا ـ في ذلك مراقبة من يعلم أنه مطَّلع على ما يسرُّ وما يعلن، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وفي الوقت نفسه: لا يلهيهم الأمل، ولا تغرُّهم الحياة ومتاعها الزائل، بل إن الآخرة أبداً منهم في حسبان، ويخافون سوء الحساب فيها، وأن يكونوا لا قدَّر الله من أهل السعير!!

ولهذا كان أمرهم على السداد في أنفسهم وأهليهم ومجتمعهم، وجميع أحوالهم؛ ما كان من ذلك في خاصة أنفسهم، وما كان متعدياً إلى غيرهم؛

وذلك ما ختمت به الآية الكريمة حيث قال تعالى: ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾.

وبعد: فتلكم هي الحوافز الذاتية غير المتكلفة التي تنشئها العقيدة، فتجعل من أصحابها ـ بما يتصفون به من خلال الخير ومقومات البناء المشرق بالعطاء ـ: رواداً أقوياء أمناء، ينطلقون في ساحات العلم والعمل، والتوجه الحضاري السليم: بناة قادرين ـ وقد جمعوا إلى المنهجية الإخلاص والتفاني ـ على تحويل مسار الأمة، كيما تكون على الجادة أبداً، توظف إمكاناتها، وطاقاتها البشرية والعلمية والمادية وغيرها على الطريق المنتجة المرضيَّة لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام في عمارة الأرض والبناء الحضاري، المشرق بنور الإسلام، الطريق التي لا يغني غناءها الوافد المزخرف، وتنتهي ـ بفضل الله ـ بعد التمكين في الدنيا بجنة عرضها السماوات والأرض يوم الدين.

* * *

التناسب بين المؤمنين..
وبين رسالة البناء الحضاري
وسورة الرعد

«٣»

النظرة المنهجية الواعية لأبعاد المهمة التي انتدب لها المؤمن من تحقيق كلمة الله في الأرض؛ علماً وعملاً وبناءً متكاملاً للإنسان والحياة على قاعدة من سلامة المقصد جدّ سليمة وعظيمة، بحيث لا يتقاصر هذا البناء عن جانب من الجوانب تقتضيه علاقة الإنسان بالكون والحياة، وأن تكون عمارة الأرض في ظل المد الحضاري على كلمة سواء في أن تكون مخافة الله واليوم الآخر بحسبان!

النظرة المنهجية الواعية من هذا الطراز.. تكشف أكثر وأكثر عن التناسب بين الصفات التي تضفيها معالم الكتاب العزيز على المؤمنين، وبين رسالتهم في الحياة.

لذا كان المجتمع القدوة الذي بناه النبي الأمي محمد عليه الصلاة والسلام بأيدي البررة من أولئك المؤمنين الذين جاء ذكرهم في التوراة والإنجيل، بقيادته صلوات الله وسلامه عليه: صورة حية لضرورة التناسب بين الغاية المنشودة، وطبيعة الإعداد الذي يجب أن يتحقق على طريق الهدف الكبير الذي ينشده الفرد والجماعة طاعة لله عز وجل.

وددت التذكير بهذه الحقيقة وأنا بسبيل أن يكون الحديث موصولاً بما وقفنا عليه المعلم القرآني في كلمات سبقت من بعض صفات أهل الإيمان الصادقين عبر آيات من سورة «الرعد» كان منها قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾.

هكذا وصفهم جل شأنه بالصبر عن المحارم والمآثم والبعد عن كل ما يسخط الله، حيث فطموا أنفسهم عن ذلك لله الذي يعلم السر وأخفى، ابتغاء مرضاته، والظفر بجزيل ثوابه. كما وصفهم ـ سبحانه ـ بأنهم أقاموا الصلاة بحدودها كاملة، وخشوعها على الوجه الشرعي المطلوب، وأنفقوا كذلك مما رزقهم الله سراً وعلانية؛ فتعدَّى النفع ذواتهم إلى المجتمع، ومن خلال ذلك، تراهم وقد أسهموا في رفع سوية الإنسان طاعة لله تعالى، وفي تكامل المجتمع الاقتصادي والاجتماعي على هذا السنن نفسه، وكانوا نعم القدوة في ذلك على صعيد التربية والإعداد!!

وبعد ذلك: ها هم أولاء لا يفتؤون يأخذون أنفسهم بالسلوك الأقوم والخلق الكريم في تعاملهم مع الآخرين؛ فيدرؤون بالحسنة السيئةَ، حيث يقابلون الأذى من إخوانهم، بالصبر الجميل والصفح عن الزلات.

وكم لذلك من آثار ليس أقلَّها تمتين الأواصر، وإحكام الترابط بين الإخوة في مجتمع العقيدة، وإعطاء المثل الطيب يصنعه سلوك الفرد والجماعة في هذا المجتمع.

ومما يؤكد ذلك ويزيد هذه الحقيقة وضوحاً ونصاعة قول الله تبارك وتعالى في سورة «فصلت»: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾.

وإذاً كان الخير ـ يجلب الخير: فلا بدع أن تذكرنا هذه الكلمات الهاديات قوله تعالى في سورة الأعراف خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[الأعراف :١٩٩] وموقفاً لعمر رضي الله عنه لم يبارح هديَها.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحرٌ بن قيس ـ وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحابَ مجالس عمر ومشاورتِه كهولاً كانوا أو شباناً ـ فقال عيينة لابن أخيه: يا بن أخي لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه.

قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر؛ فلما دخل قال: هي يا بن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ أن يوقع به؛ فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقَّافاً عند كتاب الله عز وجل. قال ابن كثير: انفرد بإخراجه البخاري.

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن مالك بن أنس عن عبد الله بن نافع أن سالم بن عبد الله بن عمر: مرَّ على عير لأهل الشام وفيها جرس، فقال: إن هذا منهيٌّ عنه؛ فقالوا: نحن أعلم بهذا منك؛ إنما يكره الجلجل الكبير، فأما مثل هذا: فلا بأس به.

فسكت سالم وقال: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

هذا: والله الذي لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى من المؤمنين: أخبر عن أولئك العاملين الذين توافرت لهم ـ بتوفيقه تعالى ـ تلك الصفات مجتمعة، بأن لهم عقبى الدار، وما أعظمها بشارةً؛ فقد كشفت الكلمة الهادية المنيرة عن عقبى الدار هذه بقوله سبحانه: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

هذا في الآخرة دار القرار، ناهيك عما يحققون لأنفسهم ولأمتهم من الخير في الدنيا، حين تراهم وقد أخذوا على أنفسهم أن يكونوا حراس الحقيقة، الذائدين عن حمى الإسلام، مهما كلّفهم ذلك من ثمن؛ لأن المبتغى أولاً وآخراً أن لا يكون بالله سخط عليهم، وأن يكونوا في زمرة أهل الرضى الذين يحبهم ويحبونه، وهم ـ في الأحوال كافة ـ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

والحق أن الأمة ـ كما تتطلّع إلى وجود العناصر المؤهلة بكفاياتها العلمية والعملية لسدّ الفراغ ـ بإخلاص ـ في ميادين الحركة وبناء الذات: فهي تحتاج ـ على خط سواء ـ أن يوسع لخلائق المؤمنين ـ التي رأينا صفحة مشرقة من تكاملها في الكتاب

الكريم ـ عند أصحاب تلك الكفايات، كيما تغنيَ حياتهم الحافلة بالحركة والإنجاز، بالصدق وخلوص النية، وبواعث الاستمرار مهما تفاقمت عقبات الطريق، وتنمي الحوافز التي تستعصي على المغريات والمعوقات في حالتي الرغب والرهب!

وحين يتوافر للأمة هذا التكامل العلمي الأخلاقي ـ على هدي العقيدة ـ في جيل البناء: يكون لأهل الصلاح والإصلاح، وهم يطمعون أن ترتفعَ قواعد البناء السليم من جديد؛ أن يتفاءلوا ـ وكان عليه الصلاة والسلام يحب الفأل الحسن ـ بأن الخطوات المتقدمة بدأت تثبت وجودها على طريق يمكّن الأمة بعون الله أن تظفر بذاتيتها على الوجه الذي ينبغي، وأن تملي كلمتها ـ وهي على استقلال فيما تمليه ـ أن تملي كلمتها على التاريخ من جديد. والحياةُ الطيبة في الدنيا وعقبى الدار للعاملين المخلصين.

* * *

تنمية الحوافز.. والبناء وأولو الألباب وسورة الرعد

«٤»

الحوافز الذاتية التي نلمح إليها بين الحين والآخر: مرتبطة أيَّما ارتباط بالعقيدة، كما تدل على ذلك معالم القرآن الكريم. وإذا كان بناؤها في النفوس ضرورة يمليها الواجب والمصلحة الشرعية، بحيث تنمو وتتعاظم مع نمو التبعات وتعاظمها: فإن من الضرورة بمكان: أن يلحظ ذلك عند كل خطوة في عالم المناهج أياً كانت الساحة والموضوع، وفي عالم التنفيذ وترجمة فقرات المنهاج إلى حركة وعمل.

وفي الآيات التي سعدنا بصحبتها من سورة الرعد، والتي حملت العديد من صفات المؤمنين الذين خصهم القرآن بسمة أولي الألباب ـ كما سبق من قبل ـ وهم أولئك الصفوة الذين علموا أن ما أُنزل إلى رسول الله ﷺ من ربه الحقُّ، وكانوا أولي الألباب بهذا التذكر الذي هو بريد الخير والعطاء. ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ ﴾.

في تلك الآيات المباركات تُشرقُ عليك تنميةُ الحافز الذاتي من طريق إحكام الصلة بين المؤمن وبين مولاه عز وجل، والتذكير بالآخرة وما أعد الله لأحبائه المؤمنين؛ فترى مثلاً: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ ومن ذلك ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾.

ويبلغ الأمر ذروته حين يبشر الله هؤلاء المؤمنين الذين تَحكُم أعمالَهم وسلوكَهم هذه الخلائقُ المباركةُ فيقولُ تعالى: ﴿ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وما من ريب في أن هذه البشارة ـ وأمثالها كثير في الكتاب الكريم والسنة المطهرة ـ تعمل عملها في المزيد من تلك التنمية التي يريدها المصلحون، وأعني بها تنمية الحوافز المشار إليها والتي تنبع من أعماق النفس بدافع العقيدة، وتكون لها انعكاساتُها على العمل من ناحيتي الكم والكيف.

وعلى هذا: فكلما ازدادت العنايةُ بزيادة الإيمان، وتأصيل معاني العقيدة الصحيحة في النفوس: كان ذلك أعونَ على أن ينقاد جيل البناء بالمنهج الرباني ترغيباً وترهيباً، كما تبرزه معالم القرآن الكريم.

ومهما يكن من أمر: فإن ذلك لا يعني إهمال الحقوق، والحيلولةَ دون العاملين، ودون أن يكون لهم من أمور الدنيا ما يحفزهم إلى تجويد العمل والاستمرار في رحلة البناء!!

ولكن تظل العقيدة هي النبع الأصيل الذي يفيض على المؤمنين بالخير، ويدفعهم إلى ساحات البذل والعطاء عن رضىً وطمأنينة، طمعاً بفضل الله عز وجل وابتغاءً لمرضاته.

وأين من ذلك من لا همَّ لهم إلا العبث والاستهانة بالوقت، والغفلة عن واقع الأمة!

وماذا لو حاولنا أن نستذكر أن الذين صنعوا تاريخنا بدمائهم، وأموالهم، وما أثمرت عقولهم وهممهم، ما كان لهم أن يقدِّموا ما قدّموا، ويكونَ من وراء ذلك على صعيد المجتمع والأمة ما يكون، لولا تلك الحوافز الذاتيةُ التي صنعتها العقيدة فاستطاع أصحابها أن يصنعوا التاريخ.

ألا وإن ثقل المسؤوليات اليوم وما تقتضيه المراحل المقبلة، على صعيد البناء ومواجهة التحديات: كل ذلك يوجب أن تُستكمل عناصر البناء من جميع أطرافها، ومنها التربيةُ على مراقبة الله وتذكُّرِ اليوم الآخر، وتنميةِ الحوافز التي هي من بعض عطاء الإيمان.

وكم هي كثيرة وفيرة ألوان هذا العطاء. في الدنيا ويوم يقوم الناس لرب العالمين.

أولو الألباب.. والنقيض من صفاتهم عند الهدامين وسورة الرعد

«٥»

لم تدع الآيات الكريمة في سورة الرعد ـ كما رأينا فيما سبق من القول ـ وهي تمدُّ الأمة على طريق البناء، بالكشف عن عددٍ من صفات المؤمنين الصادقين، وما أعد الله لهم في الآخرة من العقبى الكريمة التي تتعداهم إلى من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.. لم تدع هذه الآيات أن تعرج في أعقاب ذلك، على صفات من هم على النقيض من أولئك، حيث حقت عليهم الضلالة بعنادهم وإصرارهم على الباطل، وكانت لهم اللعنة وسوء الدار في الآخرة والعياذ بالله؛ ذلكم قوله تبارك وتعالى في الآيتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين: ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾ هؤلاء هم الأشقياء، اتصفوا بخلاف ما اتصف به السعداء، فكانت لهم العاقبة السيئة والمصير المناسب لما هم عليه في الدنيا، يوم كانوا يواجهون القرآن بقلوب مريضة وعقول مغلقة، فزادهم رجساً إلى رجسهم وما تواوهم كافرون.

فالمؤمنون يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، وهؤلاء ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه. والمؤمنون يصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، والمؤمنون يديمون صلتهم بالله عز وجل، بالعبادة الخالصة المنيرة، بدنيةً كانت أو ماليَّة، فينفعون أنفسهم وينفعون المجتمع، ويسلكون المسلك الذي تحكمه أخلاق الإسلام.

أما هؤلاء: فهمُّهم الفساد والإفساد في الأرض. إنها حلقات هدم ثلاث: فهم في أنفسهم: ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويجاهرونه بالعداوة، ومع البناء الاجتماعي حيث وجوب العناية بالخلية الأولى في الإنفاق على من يجب الإنفاق عليهم وفي صلة الأرحام والإحسان إليهم.. تراهم يفعلون العكس فيُقْدِمون على ما يحدث التخلخلَ ويُضعِفُ أواصر الودِّ، وذلك بقطعهم ما أمر الله به أن يوصل.

وعلى الصعيد العام: تراهم ينصرفون عن أن يكونوا عنصر صلاح وإصلاح، قياماً بالواجب، وإسهاماً في بناء القوة الذاتية للأمة، بدءاً من المجتمع الذي يضمهم ويعيشون في كنفه. وبدلاً من ذلك كله: يسلكون سبيل الفساد في الأرضِ.. الفسادِ الذي قد يتعدى حدود الفرد والجماعة إلى الأمة والعياذ بالله من الهدم والهدامين!

قال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾ هي ست خصال في المنافقين إذا كان فيهم الظَّهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض. وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث خصال: «**إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا**» وكأن أبا العالية يشير إلى ما روى الشيخان من قول النبي ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا أحدث كذب، وإذ وعد أخلف، وإذا أوئتمن خان**» .

لقد جاءت الآيات على بعضٍ من صفات المؤمنين البررة وما فازوا به من رضوان الله: كي يُستمسكَ بتلك الصفات وتكونَ ضياءً على طريق الأمة في بناء الفرد وإحاطة المجتمع بعناصر السلامة والنماء.

كما جاءت على صفات أولئك الأشقياء الفجرة، صفات الهدم لا البناء، وما أعقبت لأصحابها من سخط الله وسوء المصير: كيما تُجتنَب، ويَتَنَبَّه المؤتمنون على بناء الأجيال إلى خطرها على الفرد والأسرة والمجتمع.

وإذا كان الشطر الأول من الآيات ينمي حوافز العطاء عند المؤمن، ويكشف عمًّالها من قيمة كبرى في معايير البناء في أي ثغر أقام الله عليه المؤمن ثقافياً كان أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو غير ذلك: فإن الشطر الثاني منها يحول ـ بعون الله ـ دون بواعث الأذى، أن تمد أعناقها، ودون صفات الهدم والعبث، أن يكون لها طريق إلى سلوك الذين تأتمنهم الأمة على مواجهة الصعاب، وتحمّلهم أمانة الحركة الواعية التي توجِّه المسار إلى ما هو الأفضل والأقوم، وتنمي فاعلية الخير والعطاء.

* * *

المحتويات

الموضوع	الصفحة

* * *